كلــود أفـلين

عين الهرّ

روايـة بوليسـية أدبيـة

ترجمـة

د. يوسف الياس الحسين
والصديق الحاج الصديق

روايـات فرنسـية
٣

كلـــود أفـلين

عين الهـرّ

رواية بـوليسـية أدبيــة

ترجمـــة

د. يوسف الياس الحسين
والصديق الحاج الصديق

روايــات فـرنسـية
٣

• تمت الترجمة بالاشتراك مع المركز الفرنسى المصرى للترجمة بالقاهرة .

عـــين الهـــــــرّ

١

ليـــلة عـاصفـــة

– ١ –

فى مساء الأحد ، ليلة عيد الفصح لعام ١٩٣٠ ، هطل المطر مدرارا وتجمعت المياه فجعلت شارع بونابرت سيلا يتدفق من ميدان سان جرمان إلى شارع دى فور ، وكذلك كان الحال فى شارع ضفة السين . وأقفر الحى الا من شخصين وقفا أمام باب فندق واحتميا بسقيفة بلورية صغيرة تعلوها لافتة زجاجية مضيئة كتب عليها « فندق مارسيليا » وأخذ المطر المنهمر يقرع بلّور السقيفة المحكم الالصاق مصدراً صوتا حادا كأنه قرع الطبول . وتدفقت المياه على الرصيفين فى نهر الشارع فعكست أمواجها أنواراً شاحبة باهتة بدت كما تراها العيون من وراء الدموع . وبين الحين والآخر كان البرق يبرق وكانت السماء ترعد وكان كل ذلك يثير الخوف والهلع ومع هذا فما كان الجو بارداً .

أما الشخصان الواقفان فكانا السيد بيدا صاحب الفندق ، وهو ربعة متين الأسر ، باسم الشفتين مكبر العينين ، يرتدى على رأسه طاقية (بيريه) مثل قبعة قدماء المحاربين التى يرتدونها فى مسيراتهم ، وهى قبعة لا تبرح رأسه قط الا فى الليل ، أما الشخص الآخر فهو زبون شاب من زبائنه يدعى جان مارك برجيه ، يرتدى معطفا ثقيلا ويضع غطاء من المطاط على حذائه وقبعة صوفية تكاد تخفى عينيه ، وشالا قد لفه حول رقبته وفمه ولكنه لا يكتم أنفاسه المحمومة ولا تنهداته التى تنبعث منه من وقت إلى آخر كأنها آهات متوجع . وراح السيد بيدا ينظر اليه قلقا متألما ، وليسرى عنه لجأ إلى أسلوب يرى أنه خير أسلوب ، فقد خبره وجربه طوال خمسين عاماً من العمل ، ألا وهو أسلوب الحديث من جانب واحد ، فقال وكأنه يحادث نفسه وبلكنة أهل نيس :

ما يضايقنى يا سيد جان مارك هو رد فعل الناس عندما أحكى لهم عن هذه الليلة ، بلكنتى ، فهم سيظوننى مبالغا ، فشهرة أهل الاقاليم شىء صنعه الباريسيون وهم يتهمون أهل بلدنا بالمبالغة ، ولكنى لن أتردد فى أن أقسم لهم أنى لم أر مثل هذا المطر منذ معركة فردان . قد تقول لى أن المطر فى فردان كان يسقط وتتساقط معه أشياء أخرى كالقنابل والقذائف والرصاص . كانت ليالى سوداء ، لا ليال تنيرها مصابيح الغاز ! أما معاطفنا العسكرية ، أيّا كان نوع الصوف الذى صنعت منه ، فقد تحولت إلى ورق نشاف – وضحك لنفسه – أتعرف لماذا أضحك ؟ تخيلت نفسى فى فردان تحت سقيفة بللورية مثل هذه السقيفة التى تحتمى بها الآن ، ولكن كان من الافضل طبعا أن تكون من الفولاذ –

لا من زجاج الكاثدرائيات ، فزجاج الكاثدرائيات يصير هشيما تحت القنابل ، بل أن الكاثدرائية ذاتها – ثم كف عن الضحك – انك تتذكر كاثدرائية رنس ، تلك المعجزة التى دمرتها القنابل ، أو أضرت بها ضررا كبيرا . وعندما أقول : انك تتذكر فهو أسلوب للحديث ، فأنا أعلم أنك كنت آنذاك صغيرا جدا ومدينتك ليون بعيدة عنها . ولكن كل فرنسى قد سمع عن استشهاد بلدة رنس تحت ضربات الهمج .

رد جان مارك بصوت أضعفته الحمى وكتمه الشال الذى يغطى فمه وقال :
– بالتأكيد يا سيد بيدا .

وأخذ ينظر بعيدا منقبا بعينيه عن سيارة أجرة . ولكن الطوفان جعل ليلتها باريس بلدا مقفرا . إنها اللعنة الإلهية كما جاءت فى الكتاب المقدس . ولم يكف السيد بيدا عن الحديث فمضى يقول :
– يا لها من سقيفة متينة ! فى العام الماضى وفى يوم كهذا سقطت قطع من البرد ، حجمها مثل هذه – ومد قبضته إلى فم جان مارك ، فقفز هذا الاخير مرتاعا من المفاجأة – وقالت لى زوجتى : « ستتهشم سقيفتك » ولكن أنظر اليها ، إنها سالمة ليس بها شرخ واحدة . ليس معنى هذا أن زوجتى تمنت أن تتهشم السقيفة ، كلا بالتأكيد ، ولكنها ترى أن السقيفة المزخرفة لا تناسب روح العصر . ثم أنها تتضايق لأن الناس يأتون فى الايام المطيرة كيومنا هذا ويحتمون بها وهم ليسوا من زبائننا ، وهو أمر تضيق به زوجتى . أنت تعرفها كما أعرفها ... ولا أستطيع استبدالها بأخرى أكثر رقة لأن العمارة ملك لها . وليس لى فى الأمر شيء .

وصاح جان مارك فجأة قائلاً : ها هى ... وأزاح الشال بسرعة بيد وأشار بالأخرى إلى سيارة أجرة مرقت كالسهم واطاراتها تلحس أسفلت الطريق لحسا . ثم عاد إلى تأوهاته :
– سيفوتنى القطار ، سيفوتنى القطار . يا لها من كارثة .
– هدّىء من روعك يا سيد جان مارك ، القطار يغادر المحطة فى منتصف الساعة الثانية عشرة ، وقد سمعنا منذ هنيهة دقات العاشرة من كنيسة سان بلبيس ولو كنت مكانك لسرت على الاقدام حتى سان – جرمان – دى برى فهناك احتمال أكبر لتجد سيارة أجرة .

واغتاظ جان – مارك فقال : أأسير بالحقيبتين ؟ إنهما ثقيلتان كما تعلم .
– يمكنك أن تتركهما وتعود بالسيارة لتأخذهما . وهما فى أمان هنا خلف الباب .
– أخشى أن يزداد علىّ المرض كانت درجة حرارتى منذ قليل ٣٨٫٤ وقد يعطلنى المرض ان فعلت ذلك .

فرد السيد بيدا مقطبا حاجبيه :
– الحق مظهرك يدل على التعب ، وعليك أن تستفيد من الجو الدافىء فى الجنوب فتستريح ثم تعود إلى باريس وأنت فى خير حال . وحين تعود ، ستجد لدينا حجرة لك فى الفندق . وسنستطيع عند

عودتك أن نخرج أحد الزبائن الذين يبيتون لليلة واحدة ، وعند ذاك ستجد نفسك مرة أخرى وكأنك فى بيتك . وزوجتى تستلطفك ، فأنت تحسن معاملة الكبار والشباب ، فتسألهم عن صحتهم أو تؤدى لهم خدمات صغيرة وتظهر وكأنك مهتم بحكاياتهم المعادة التى يقصونها عليك ! ما أندر من يشبهك من الشباب فى أيامنا هذه ! وفندق فى درجة فندقنا وفى حىّ مثل حينا يهيىء لنا أن نعرف أخلاق الناس ! لن أقول أنهم متشردون فهذا قليل عليهم ، إنهم كالبهائم لا يحترمون شيئا ! أما أنت فقد صرت واحداً منا ، ثم اننا نعلم عنك ...

واضطرب جان مارك ثانية ثم قال :

– يحسن بك أن تعود إلى الفندق يا سيد بيدا . قد تصاب بالبرد أنت أيضا .

كان ذلك ما يتمناه السيد بيدا ولكنه قال :

– لا أود أن أدعك وحدك هكذا .

ثم انسابت سيارة فاخرة وسط نهر الطريق كأنها زورق فاخر . وصاح جان مارك رغما عنه مشيرا للسيارة .

وقال السيد بيدا متأدبا :

– أو تشير حتى لعربة الرولزرويس ؟ وتخيل أنها وقفت فاذا بداخلها غانية حسناء ! عندئذ لن يقيك أن تكون لك خطيبة ، فهذه أشياء تحدث للشباب فى هذه المدينة الخليعة . ثم تنهد وأضاف : أما أنا فقد قصدتها بعد أن ولى شبابى . حسنا ، سأرجع إلى الفندق ، فاذا كانت زوجتى قد استسلمت للنعاس وهى تقرأ الجريدة فسأعود لك . والا ... ومد يده مصافحا اليد الهامدة الخامدة التى امتدت له : سفرا سعيدا وعودا حميدا ! إذا لازمك سوء الحظ فى العشر دقائق القادمة فلا تتردد فى الذهاب إلى محطة سان جرمان ومنها تركب المترو وأمامك متسع من الوقت وتستطيع أن تحمل حقيبتك على مهل .

– شكراً يا سيد بيدا ، إلى اللقاء . وشكرا على الكأس المدفئة التى دعوتنى لها . أشكر لك جميلك .

– عفوا أنا الذى عليه أن أشكرك . فلطفى من باب الواجب ، أما الزبون فلا شىء يدفعه إلى مثل لطفك ! لقد حبّبت أهل ليون إلى نفسى مرة أخرى رغم لكنتك الغريبة . إلى لقاء قريب .

– ٢ –

وهم جان مارك أن يتابع بنظراته السيد بيدا وهو يدفع الباب الزجاجى ليدخل إلى الفندق وإذا بصوت محرك سيارة يشده شدا يعجز عن دفعه . انها سيارة تقف بعيدا عنه قرب ميدان سان سيلبيس . وبما أن كل شىء ساكن ماعدا صوت المطر المنهمر ، وبما أنه واقف تحت الكرة الزجاجية المضيئة فلا بد أن يراه من بالسيارة . وصاح صياحا كاد يقطع حباله الصوتية :

– تاكسى ! تاكسى !

وانفتح باب السيارة واندفع منها رجل وامرأة تخطيا الرصيف قفزا ثم دلفا إلى أحد المنازل ، وبدت يد السائق وهى ترفع راية عداد السيارة .

– تاكسى ! تاكسى !

وقصف الرعد قصفا فتأوه جان مارك ، ويبدو أن سائق السيارة لم يسمعه . وساء الجو ، ورغم ذلك اقتربت السيارة ... ولكنها دارت وسلكت شارع روفور .

وهمس جان مارك :

يا لسوء حظى ! وابتعد صوت قصف الرعد بينما انهمر المطر انهمارا ، وفى ميدان سان سولبيس دقت ساعة مبنى البلدية دقتين فكأنهما جرس الكنيسة يدق معلنا وفاة أحد الأشخاص . إنها دقة النصف ساعة . نظر جان مارك إلى ساعة يده : لا شك فى ذلك فالساعة الآن العاشرة والنصف . ولبس فردة القفاز وكان قد خلعها ليصافح بيدا ، ونظر متقززا إلى حقيبتيه من خلال الباب الزجاجى وقد ظهرت عليه فى شكل نصف دائرة عبارة « مدخل الفندق » يضيئها ضوء المدخل الخافت . أحال عينيه فى الشارع وفحص كل جوانبه وأطرافه فما رأى انسانا ، ولو رأى أحدا لشجعه ذلك على الذهاب إلى محطة المترو . وفتح باب الفندق ثم سحب الحقيبة الاولى وما كاد يسحب الثانية حتى ألقاها أرضا :

– تاكسى !

لم تكن سيارة أجرة بل سيارة خاصة ، سوداء اللون من آخر طراز . ولقد ظنها جان مارك تاكسى لانها كانت تسير ببطء شديد . ورفع كتفيه يائسا وعاد إلى حقيبتيه وعيناه قد شدتا إلى تلك العربة الغريبة التى أخذت تبطىء سيرها وهى تقترب من الرصيف ، وكانت حبات المطر تغطى صفحة زجاج السيارة فلا يستبين ما بداخلها ، ولكن زجاج نافذة السائق أخذ ينخفض والسيارة توشك أن تتوقف . لفّت الدهشة جان مارك حين بان وجه لا يعرفه اطلاقا قال له صاحبه بالانجليزية :

– هل أساعدك ؟

ولم يفهم جان مارك ، وردد الكلمة بالانجليزية والشال يغطى فمه فرد عليه السائق :

– نعم ، قالها بلكنة أمريكية ممعنة فى امريكيتها .

ورفع نظره إلى جان مارك ، عيناه سوداوان نفاذتان ، لا يحسبها الناظر اليهما عينى أمريكى . إنها بالاحرى عينا ايطالى من أهل نابولى . عينان مفزعتان تغوران فى الاعماق كأنهما تنقبان عن شىء . واندفع جان مارك يوضح الأمر قائلا :

– سيدى ، لم أفهم ما قلته ، كنت أنادى سيارة تاكسى ليس الا ولعل رنين الكلمة بالفرنسية يشبه كلمة « مساعدة » بالانجليزية ، حسبت سيارتك أجرة . عفوا ، فانا أنتظر سيارة أجرة منذ وقت طويل .

وخنق صوته الانفعال ، فقهقه السائق وقال :

– نعم حسبتك تطلب النجدة .

وضاق صدر جان مارك فقال :

– حسنا يا سيدى ، انه لأمر مضحك . إلى اللقاء وشكرا .

كف راكب السيارة عن الضحك ونظر إلى الحقيبتين ثم قال :

– ربما كنت ذاهبا فى رحلة . هل تريد أن تركب القطار ؟

واستعاد جان مارك صوته اللاهث وقال :

– رحلة ربما ، أما أنى أريد أن أركب القطار فنعم . سأغادر باريس لوقت غير طويل ، سأزور أهلى . ولكنى مريض . أعانى من البرد وتحت هذا المطر لا أستطيع أن أحمل الحقيبتين حتى محطة المترو ...

وأعاد الأمريكى النظر اليه وعيناه ما زالتا تبرقان وتستطلعان وان بدتا أقل افزاعا من ذى قبل . اتضح لجان مارك أن ليس بالعربة أحد سواه .

– ربما استطعت مساعدتك ؟ إلى أى محطة ستذهب ؟

– إلى سان جرمان دبرى . انها على بعد خطوات .

– عفوا ، أقصد أى محطة سكة حديد .

ورد جان مارك بصوت يشبه مقامر يراهن على كل ما يملك .

– محطة ليون . فأنا ذاهب إلى مدينة ليون .

– حسنا ، انها فى طريقى ! لا أقصد مدينة ليون ، ولكن محطة السكة الحديد « ليون » .

وفتح الباب مسرعا ومد ذراعه اليسرى إلى الحقيبتين وجان مارك لا يكاد يصدق هذا الحظ الذى هبط عليه من السماء .

– حقا يا سيدى ؟ ما ألطفك .

– هيا ، هيا بلا عقد ، يبدو أنك معقد ! ناولنى حقيبتك ، سأضعها على أرضية العربة أمام المقعدين الخلفيين . وكرر قائلا : حقا ؟

ولكنه كان قد دفع بأثقل الحقيبتين فتناولها الامريكى دون عناء وألقى بها خلف مقعده . ثم أخذ الثانية وقال :

– الآن ، اذهب إلى الناحية الاخرى وتعال اجلس إلى جانبى .

وقفل بابه ثم فتح الباب الآخر ، واسرع جان مارك فجلس إلى جواره . وتنهد الامريكى تنهدا خفيفا وسأل جان مارك . مستعد ؟

وقفزت العربة والمطر يطرق سقفها طرقا .

ها هى العربة تدور يمينا ناحية شارع ديفور وتصر عجلاتها صريرا ثم تدور ثانية فى اتجاه شارع رين والامريكى يقودها كالمجنون أما جان مارك فقد وضع راحتيه تحت فخذيه وتشبث بمقعده وقد تعلقت عيناه بحركة ماسحتى زجاج السيارة الامامى وكانت أنوار السيارة الكاشفة تلمع مقدار طرفة عين عند تقاطع الشوارع ، ولكن من المستحيل ايقاف السيارة على مثل هذا الطريق الزلق . ترى من هذا الرجل ؟ وراح جان مارك يختلس النظر إلى وجه الرجل الجالس بجانبه والذى كان لا يتبسم أبدا . يخيل للمرء أنه ممثل ممن بلغوا سن الاربعين يقوم بدور عاشق يتقرب للصبايا حتى يستجبن له . لا شىء فى ذلك الرجل يوحى بأنه أمريكى .

واخترقت السيارة ميدان سان جرمان دبرى بلا حذر . تجرأ جان مارك وسأل الرجل :

– أما كنت تفضل السير فى الشارع الرئيسى إلى اليمين ؟

انتفض الرجل الغامض وقال :

– ماذا قلت ؟ وضحك . قال : شاطئا السين رائعان حتى فى مثل هذا الجو الردىء ! ودلفت السيارة إلى شارع بونابرت ، وما هى الا ثوان حتى كانت على شاطىء السين .

سأله الامريكى فجأة :

– هل أنت مصدور ؟ أمريض بالسل أنت ؟

انزعج جان مارك ، وأرخى الشال وسعل ثم قال :

– لا ، أرجو أن لا أكون مريضا . انها نزلة شعبية فقط .

وقال الامريكى :

– شىء سىء مع ذلك . وجو ليون سىء جدا !

أخذ جان مارك يسعل سعالا منتظما ورغم عجزه أن يسترد أنفاسه : الا أنه قال :

– المسألة ذهاب واياب فقط ، فأنا ذاهب لأخبر أهلى بعزمى على الزواج .

اختنق صوته . ضحك الامريكى مرة أخرى ضحكة جافة قاسية وكان يبدو أنه يتهكم .

– آه ، الزواج ، الاسرة ! انك ابن طيب ! وبورجوازى تماما ، فضلا عن انك تتكلم بلكنة أهل ليون الجميلة .

وبلغت السيارة ميدان سان ميشيل ، وبدت كاثدرائية نوتردام تحت المطر وكأنها شبح نوتردام . وبدأ جان مارك يسيطر على نفسه . ثم عاود سؤال الرجل الجالس إلى جواره ، وتشجع فقال :

– لولا لكنتك ، لما ظننتك أمريكيا . فأنت تشبهنا كل الشبه وهذه السيارة ...

وأجابه الجالس إلى جواره :

– انها عربة استأجرتها بلا سائق ، وهى طريقة مريحة جدا للاجانب ، وكلما أتيت فرنسا فعلت

ذلك . إنها عربة جيدة جداً ! انى أشبه أهل هذا البلد أو بالأحرى أهل ايطاليا .
– هل أنت من نابولى ؟
– زر نابولى ولا يهمك بعد ذلك شيء ، حتى لو جاءك الموت . تقريبا من نابولى ، نعم تقريبا من نابولى .

وسارت السيارة سيرا سريعا خطرا ، وفجأة تعطلت . وقطب الامريكى حاجبيه : ماذا حدث ؟ عطل آخر ، عطل آخر . هذا القدر . وبدأ صوت المحرك وكأن المطر أغرقه ، وسال الماء على جسم السيارة معلنا انتصاره . وزم الامريكى شفتيه :
– قد لا تكون السيارة جيدة هذه المرة . هل لك دراية باصلاح المحركات ؟ فرد جان مارك قائلا : كلا ، للاسف . أنا آسف ، كلا !
ولم يبد على الامريكى الانزعاج ، وقال :
– أما أنا فنعم ، أصلح دائما أى عطل . وقفنا تحت شجرة عارية من الورق ، ما أسوأ الربيع . لا أهمية لذلك ، فالشجرة تظل شجرة ...
وأخذ من صندوق العربة الامامى بطارية كهربائية وأضاءها ثم أطفأها ، ثم ناولها لجان مارم ، وقال :
– سننزل من العربة وسأبحث عن سبب العطل وعليك أن تنير البطارية وترفع غطاء العربة لتحمى المحرك . أظن العطل أصاب (الكربوراتور) المفحم .

وحين نزلا من العربة هبت عاصفة من ناحية السين فأغرقتهما بالماء ، وهدرت الريح وكسّرت غصون الاشجار وهزت مداخن البيوت . ونظر جان مارك إلى السماء فى ضوء البطارية : الحادية عشرة الا عشرين دقيقة .
وصاح الأمريكى يسمع جان مارك :
– ماذا ننتظر ؟

أخذ مفتاحا انجليزيا ورفع غطاء السيارة ودفع برأسه تحته ، ومن حسن حظ المحرك أن الهواء كان يهب من الناحية المضادة ، ولكن لم يكن ذلك من حسن حظ جان مارك ، فقد كان فريسة للمطر ويداه مشغولتان . وصاح الامريكى من جوف العربة قائلا :
– متى موعد مغادرة القطار ؟
– الحادية عشرة والنصف يا سيدى ... الساعة الثالثة والعشرين والنصف .
– حسنا ، لدى متسع من الوقت ! أتمنى ألا تصاب بالالتهاب الرئوى .

ظل الامريكى صامتا . أما الطبيعة ، فكانت فى أشد صخب لها . « الكاربوراتور مفكوك . إرفع الغطاء قليلا ، شكرا » .
وسمعه جان مارك يهمس عدة مرات قائلا :

– الآن سأدير المحرك . لا تتحرك .

وعاد الامريكي إلى مقعد القيادة ، وأرجع جان مارك الغطاء إلى مكانه ، وجفف يديه ، ونظر لشاطىء السين ، وكان مقفرا على مدى النظر . ومرت سيارات والحال كما هو ولم يحفل بهم راكبوها ، فكأنها طائرات تحلق على ارتفاع الفي متر .

ادار الأمريكي مفتاح المحرك بسرعة فى المرة الأولى ، وببطء فى المرة الثانية ، ثم أطال ادارته فى المرة الثالثة ولكن دون جدوى . اختلط صوت الآلة الرتيب بصخب الطبيعة الغاضبة . اقترب جان مارك من الباب المفتوح وسأل متلهفا :

– هل أدرت مفتاح الاتصال ؟

عجيب أمر هذا الرجل ! انه يسخر من كل شيء . وسأل الامريكي جان مارك :

– انك عليم بالسيارات يا عزيزى ، ولكنك لا تفصح عن ذلك ! طبعا أدرت مفتاح الاتصال ! العطب فى مكان آخر . انها البلقات .

عاد الامريكي إلى ما كان عليه ، وظل جان مارك يتطلع إلى ساعته بين الفينة والاخرى . غيّر الامريكي « بلقا » ثم آخر دون جدوى .

وخفت قصف الرعد . وفى الحادية عشرة صاح جان مارك قائلا :

– أعتقد أنى سأسير إلى المحطة على الاقدام . يمكننى أن ألحق بالقطار رغم هاتين الحقيبتين .

أجابه من جوف العربة صوت لا انفعال فيه :

– لا بأس عليك ، هدىء نفسك . سيعود كل شيء إلى طبيعته ، لم يسبق أن فشلت فى اصلاح أى عطل .

– ولكن المحرك غارق فى الماء ...

– نعم ، ولهذا أمسح وأجفف وأبدل . إبق كما أنت ممسكا بالغطاء .

وفى الحادية عشرة والربع هتف جان مارك ووجهه يقطر دموعا وماء .

– لم يعد أمامى الّا ربع ساعة !

وأطل رأس الأمريكي من تحت غطاء العربة وقد بدا عليه الجد والاهتمام :

– حقا ؟ سأغير آخر « بلق » .

وعاد إلى مقعد السيارة وكان قد فعل ذلك مرات عديدة . يا لها من معجزة ! دار المحرك من أول محاولة ، محدثا صوتا فظيعا . صاح الأمريكي بأعلى صوته قائلا :

– أنزل غطاء العربة ! اصعد بسرعة ، ستلحق بالقطار .

وأخذ يتمتم بالمقاطع الأولى من السلام الملكي الانجليزى ، وهو أمر غريب بالنسبة لأمريكي ، ولو كان من أصل ايطالى من نابولى . وكانت تنبعث من معطف جان مارك رائحة كريهة كرائحة كلب مبتل .

فى عتمة الليل ومن خلال المطر المنهمر لاحت ساعة « محطة ليون » مشيرة إلى الحادية عشرة وعشرون دقيقة ، وكان شارع ديدرو لايزال مكتظا بجموع المسافرين بعد اجازة عيد الفصح . وأطلق الامريكى بوق السيارة .

— ستكون الطامة الكبرى أن يعطلنا هذا الزحام وقد أوشكنا أن نصل المحطة .

وحاول جان مارك وقد أضناه التعب أن يكون بشوشا :

— شكرا لك يا سيدى ، أتمنى أن أرد لك جميلك فى يوم من الايام . إسمى جان مارك برجيه وعنوان أهلى ١٠ شارع ديمون بحى كروا روس فى ليون . أما فى باريس ...

وقاطعه الامريكى قائلا :

— سأتذكر هذا الاسم ! شكرا وعلى أى حال ستظل ذكراك عالقة بذهنى بعد الذى حدث .

ثم أضاف متمهلا :

— وأرجو أن تحتفظ أنت أيضا بذكرى طيبة .

ثم أبطأ فى قوله وهو يفوه بهذه العبارة الاخيرة ؟ وتبادلا النظرات وكانت عينا الامريكى تشعان فى الظلام تماما كما رآهما وهو واقف أمام باب الفندق . ولم تستمر هذه النظرة سوى ثوان ، فقد كان منظره مفزعا .

— لقد وصلنا ! اعتقد أن حدة المطر خفت . وهمس جان مارك قائلا :

— سر على طول ، فى أعلى هذا الطريق المنحدر .

وصعدت العربة الطريق المنحدر دفعة واحدة . ورد الامريكى قائلا :

— أعرف من أين تقوم القطارات الرئيسية ! وبمجرد أن تنزل سأناولك الحقيبتين . أقول وداعا منذ الآن .

— وداعا ، سيدى ، وشكرا مرة أخرى ...

وكان من المستحيل الاقتراب من الرصيف المليء بالسيارات ، فقفز جان مارك من العربة إلى أرض الشارع . وسرعان ما ناوله الأمريكى احدى الحقيبتين قائلا :

هذه هى الأولى ، وهذه هى الثانية ، وداعا .

وانقفل باب السيارة من الداخل ، وانطلقت السيارة كقذيفة وإذا بجان مارك يصيح ويلوح بذراعيه دون جدوى .

— سيدى ! سيدى ! لفت نظره صوت شرطى يقول له من تحت معطفه :

— لا تبق هنا ، فقد تدوسك السيارات . أتريد حمالا ؟ ثم نادى : حمال ! حظك سعيد ، ها هو ذا أحد الحمّالين . وتمتم جان مارك قائلا :

— الحقيبة ! وبقى نظره عالقا بالحقيبة التى دفع بها الأمريكى إلى يده .

وسأله الحمّال وهو يمسك بالحقيبة ويدفعه نحو الرصيف : ماذا عن الحقيبة ؟

– ليست حقيبتى ، إنها أصغر بكثير من حقيبتى ! لقد بلغت الساعة عشرة وخمسة وعشرون دقيقة ! الحقيبة التى فى يدك هى حقيبتى ، أما هذه فلا .

وانتزعها الحمال من يده وأخذ يعدو حاملا الحقيبتين .

– هل ستركب قطار مارسيليا ؟ أسرع فهو فى آخر الرصيف . أمعك تذكرتك ؟

كان الحمّال رجلا بدينا يشبه بيدا صاحب الفندق فى بدانته رغم انه باريسى فى حركاته وكان يعدو فى سرعة فائقة . ورد عليه جان مارك لاهثا وهو يحاول اللحاق به :

– لا ، سآخذ تذكرتى فى القطار ! وهذه الحقيبة ...

– هل تتذكر ماركة التاكسى الذى ركبته ؟

– لم يكن تاكسيا ، كانت عربة خاصة .

– إذن لا خوف على حقيبتك فصاحب السيارة ...

– لا ، لا أعرفه .

وبلغا الباب المؤدى إلى الرصيف ، وصاح الحمال قائلا لمراقب الباب :

– دعه يدخل ، مسافر إلى مارسيليا . وقال العامل :

– هيا اسرعا ، سيتحرك القطار بعد لحظات . وقال الحمال : نعم ، نعم .

واستأنف الجرى ووجّه الكلام إلى جان مارك : سأوصلك إلى آخر عربة فى القطار ، وعليك أن تتصرف بعد ذلك ...

– شكرا ، سيدى ... شكرا ...

وكان على الرصيف اناس وقفوا يتطلعون إلى القطار وهو يوشك أن يتحرك ، وطغى صوت المذياع على صوت المطر معلنا :

– انتبهوا ، سيقوم القطار ، اغلقوا الابواب .

كان عليهما أن يجتازا عربة البريد قبل أن يبلغا أول عربة ركاب فى مؤخرة القطار .

صاح الحمال :

– لا تغلقوا الابواب !

وتسأل الركاب : هل سيلحق بالقطار ؟ لا ، لن يلحق به .

وصاحت امرأة بازدراء : من الحمق أن يأتى مسافر متأخرا بهذا الشكل .

وانحنى أحد الركاب من الباب الذى ظل مفتوحا ومد يده وحمل أحد الحقيبتين اللتين قذفتا أمام قدميه . وتعلق جان مارك بالمقبض النحاسى ورأى على البعد الحمال وقد تدلت ذراعاه فى بلاهة . فهمس جان مارك قائلا لمن أدخل حقيبتيه :

– سأنقده أجره فى المرة القادمة .
وأدخل جان مارك إلى العربة وانقفل الباب خلفه وأسرع القطار . وقال الرجل لجان مارك :
– لقد كاد القطار أن يفوتك .

واكتظت عربات القطار وممراته بالركاب . وطغت رائحة الغبار مع الرطوبة على المكان . وسأل أحد الركاب جان مارك : هل تسافر بالدرجة الثالثة ؟
فأجاب بصوت لا يسمع : نعم ...
– لا أدرى ان كنت ستجد بها مكاناً خاليا ، ولكنك لن تجد بها على حال مقعدا تجلس عليه ، فقد ذرت القطار كله قبل قيامه .
وأسرع القطار وتعالت الضجة . وقال الراكب الاول :
– حاول رغم ذلك أن تمرق بين الناس ، وسأحفظ لك حقيبتيك .
رد جان مارك قائلا : نعم الحقيبة ...
– ما هناك ؟ أى الحقيبتين تعنى ؟
– الصغيرة ، حدث خطأ أعطانى الشخص الذى أوصلنى حقيبة غير حقيبتى . لقد أخطأ ...
وأنصت الرجلان لكلامه وهما فى دهشة . وسأله ثانيهما بخبث : شخص لا تعرفه ؟
– نعم ... شخص ساعدنى .

وقال أولهما : هناك أناس طيبون . وقال ثانيهما : لابد ان اسمه وعنوانه على الحقيبة .

ورفع الحقيبة وتفحصها . لم يكن ذلك بالأمر الهين بسبب الزحام . وأخذ يقبلها بين يديه . أحس الراكب الأول أن أمر الحقيبتين يعنيه فقد تناولهما ولولاه لما كانتا فى القطار فقال لصاحبه .
– ناولنى هذه الحقيبة .
استجاب الآخر دون أن ينبس بكلمة . وتعلقت عينا جان مارك بالحقيبة وحذا الركاب حذوه . وأخيرا ، قال أول الرجلين :
– لا عنوان ولا اسم عليها .

٢

«وماذا رأيت أيضا ؟»

- ١ -

أشرقت شمس الغد وكان بمحطة ليون مسافرون ينتظرون وصول القطار . ومستقبلون شجعهم الجو الصحو فأتوا لاستقبال ابنائهم على الرصيف رقم (١) ، ينتظرون وصول القطار الذى غادر باريس فى الحادية عشر والنصف . وأتت أسرة جان مارك كلها ماعدا مدام برجيه الجدة ، التى سنسميها« الجدة » رغم أن هذا النعت لا يناسبها تماما . وجاء أيضا الوالد يوحنا برجيه وزوجته اميلى وشقيقه ليونارد والصغيرة مارى لويز التى كانت لا تكف عن الجرى بين عربات نقل الحقائب وتنتقل من جندى سنغالى إلى جرو وضع فى سلة لا يراه أحد وهو يشتكى . وفى كل لحظة يصيح أحد أفراد الاسرة قائلا :

– مارى لويز ! تعالى هنا . والصغيرة لا تستجيب لهم . إلى أن سمع صوت المذياع القوى صائحا :

– انتبهوا ، الرصيف رقم (١) ، قطار باريس السريع سيصل فوراً. العربات المتجهة إلى مارسيليا فى مقدمة القطار ، عربات المؤخرة ستبقى فى ليون . وقالت أميلى فى خجل :

– سيكون فى المؤخرة ، أتذهب إلى الوراء يا يوحنا ؟ فرد عليها بصوت رصين رافعا أصبعين مضمومين دلالة على النفس :

– لعله ركب عربة من عربات مرسيليا . اننا قريبون من المخرج وسيرانا حين يخرج . لنحذر الزحام . مارى لويز ، امسكى يد والدتك .

أمسكت مارى لويز يد عمها ليونارد .

– أريد أن أراه حين يصل . أريد أن أراه حين يصل ! أحملنى على كتفك يا عمى !

قالت الأم اميلى : لا ، يا مارى لويز . وردد العم قائلا : حسنا يا صغيرتى . إنها جد سعيدة بلقاء شقيقها الاكبر . انه لن يعرفها .

قال الأب لشقيقه : لا أدرى من أين لك بهذه الأفكار ؟

واستقرت مارى لويز على كتفى عمها وأسفت كما كان يحدث كل مرة لانه أقصر من والدها . وهذه الطفلة لم تزدد طولا منذ ستة شهور سوى بضع سنتمرات . وقالت أميلى : طال غيابه جدا .

واحتج الوالد قائلا : لنفرض أنه لن يعرفها !

وأردفت أميلى قائلة : لقد انقطعت أخباره عنا ما يقارب ستة أشهر . ثم وصلت هذه البرقية منذ

ثمانية أيام ! لماذا لم يرسل خطابا ؟ لم يرد على خطابى ! لابد أنه مريض ولم يشأ أن يخبرنا بذلك .
قال يوحنا : الأمر نقيض ذلك ، فالمرء لا يخفى مرضه .
وقال العم ليونارد : لقد ركب القطار . وان كان مريضا فلقد شفى من مرضه .
وقال الوالد : هذا كلام منطقى . احذرى يا مارى لويز ، حذاءك الابيض قد يوسخ ملابس عمك .

صاحت الصغيرة من مرقبها : وصلت القاطرة ! أرى القاطرة .
صاح الميكرفون : الرصيف رقم (١) قطار باريس السريع يصل المحطة . احترسوا .

ملأ القطار المكان ضجيجا وواصل الميكرفون : محطة ليون بيراش . سيقف القطار عشر دقائق . ليسافر القطار إلى افينيون وتاراسكون ومارسيليا .

ملأ البخار الابيض وآهات القاطرة الجو ، أناس يسرعون فى كل اتجاه وجماعات من الركاب يتدافعون أمام أبواب العربات ، ينزل بعضهم ويصعد آخرون . وأخذت مارى لويز تبكى . أناس كثيرون ، لا أرى جان مارك .

قال الأب : أترين ، كان يمكنك ألا تتعبى عمك وتبقين على الأرض .
وقالت الأم : أرجو ألا يكون القطار قد فاته .

وضرب ليونارد بطن الصغيرة مارى لويز برقبته وقال :
– ألا ترين جان مارك ؟ من الشخص الذى يسير بين رجلين من رجال الشرطة ؟
وفزع يوحنا وتساءل : بين رجلين من رجال الشرطة ؟
وأخذ ليونارد يضحك وقال : لا ، المنظر من بعيد يبدو كذلك .
وصاحت ـى لويز وسط الصخب : جان مارك ! جان مارك !

كان جان مارك يسير خلف رجلين من رجال الشرطة ويحمل حقيبتين احداهما ليست له ، وعلى رأسه قبعة صوفية شوّه المطر شكلها ، ويرتدى معطفا واقيا من المطر حشر فيه جسده . كان يسير كنائم وقد بدا كالاعمى اذ وضع فوق عينيه نظارة سوداء . قالت والدته :
– يا إلهى ماذا أصابه ؟

لوّح ليونارد بذراعه وصاح : نحن هنا يا جان مارك !
وقال يوحنا : احترس يا ليونارد فى حركاتك ، ستثير فضول الناس ، وربما يكون على الرصيف بعض زبائن الشركة التى نعمل بها .

ورآهم جان مارك فانعطف نحوهم ، وأنزل الحقيبتين ووضعهما على الأرض . وتحير من يعانق

أولا ، ثم قال :
– نهارك سعيد يا والدى ، نهارك سعيد يا أمى ، نهارك سعيد يا عمى . وارتمت أميلى فى أحضان ابنها تعانقه وهى تقول :
– ابنى ! هل أنت مريض بعينيك ؟ ما أشد شحوبك . دعنى أعانقك أكثر وأكثر !

وقال يوحنا : اننا نسد الطريق . وقال ليونارد لمارى لويز : سانزلك .

ودهشت الصغيرة من هذه النظارة السوداء واستسلمت فنزلت عن كتفى عمها .
وقال يوحنا لزوجته : أتسمحين لى أنا أيضا بعناقه . ثم قال لابنه : مم تشكو يا جان مارك ؟

وضمه إلى صدره ، وهما تقريبا فى نفس الطول وان كان الابن نحيلا بقدر ما كان الاب بدينا .
ورد الابن قائلا : أعتقد أنى أصبت بنزلة برد انتقلت إلى صدرى . واين جدتى ؟
قالت اميلى مطمئنة ولدها : انها لم تأت معنا .
وأخيراً عانق جان مارك عمه ليونارد ثم أخته مارى لويز .

وقال الاب وهو يمسك بالحقيبتين :
– كان بوسعها أن تأتى . استيقظت هذا الصباح كعادتها قبل الجميع ، وكأنها قالت ... وتوقف عن الحديث ، ولم يطلب منه جان مارك الاسترسال فى الكلام . وأرادت مارى لويز أن تمسك بيد شقيقها ، ولكن جان مارك أخذ يبحث عن تذكرته فى جيوبه .

وسألته أمه : هل استشرت طبيبا ؟
– لا ، يا أمى ، لم تكن المسألة تستحق ذلك . أريد أن أرسل برقية ...
وأعلن المذياع : رصيف رقم (٣) ، انتبهوا . قطار الركاب الآتى من جرنوبل يدخل المحطة الآن .

وقال يوحنا : أرسل البرقية فيما بعد ، فالجدة فى انتظارك . خذ هذه الحقيبة الصغيرة يا ليونارد حتى أخرج تذاكر الرصيف .
قال العم ليونارد : لم تحضر حقيبة الجدة . ماذا فعلت بها ؟

ورد جان مارك : سأقول لكم فيما بعد . انها قصة طويلة ...

ويبدو أن يوحنا لم يسمع السؤال ولا الجواب . وقال لعامل الباب :
– أربعة أشخاص . أنا والسيدة والسيد والصغيرة . أما هذا الشاب ، وهو ابنى ، فلديه تذكرة من باريس .

ولّم يوحنا شمل الاسرة فى بهو المحطة . وقال العم ليونارد :
– سأذهب أنا للمشاحنة مع سيارات الاجرة . وخرج . وقالت الام بقلق لابنها :
– ألا تقول لنا من ماذا تشكو يا جان مارك . أأنت محموم ؟

قال يوحنا : مهلا . انه بحاجة إلى العناية وسنفعل ذلك ، ولكنى أود أن أطلب منه أن يوضح لنا لِمَ لمْيأت بحقيبة الجدة معه ؟

وردت اميلى : أنتم تبالغون ، انّها مجرد حقيبة .
– إنها ليست مجرد حقيبة يا اميلى ، إنها حقيبة الجدة . سنعود إلى المنزل بعد ربع ساعة وأعتقد أنك تفهميّن ما أقصد .

ثم صاحت مارى لويز : عمى ليونارد ينادينا . وعاودها الفرح فقالت : سنركب التاكسى ، سنركب التاكسى !
– كأنكم تتعمدون تعطيلنا ! أسرعوا ، فلنعبر الشارع . وأنظروا إلى اليسار لا إلى اليمين قبل أن تعبروا .

وبينما كان الاب والعم يساومان سائق التاكسى أخذت مارى لويز تصيح : أريد أن أركب التاكسى ، أريد أن أركب التاكسى .

أما جان مارك فراح ينظر وقد هده التعب إلى ميدان كارنو وإلى نهج فيردان وقد اكتظا بوسائل اللهو التى غطاها أصحابها وقاية لها من المطر . والاكشاك الخشبية محكمة الغلق وعربات النقل والمساكن المتنقلة لاصحاب تلك الحوانيت . لقد بدأت اذن موجة الاحتفالات بالربيع . وكفت مارى لويز فجأة عن الصياح وقالت لشقيقها :
– ستأخذنى يا جان مارك إلى الملاهى ؟

وردت والدتها قائلة : قضيتِ عصر الامس بأكمله هناك .
وأخذت بذراع ابنها وهمست فى أذنه : أما زلت سعيدا يا حبيبى ؟
فرد عليها وهو يضغط على ذراعها : نعم يا أمى ، ولكن أريد أن أرسل برقية .

وقال يوحنا للسائق :
– نعم ، أوافق على أن عددنا كبير ، ولكنك تستغل الفرصة لأن ابننا مريض . أنسيت أن البص رقم ١٣ يوصلنا رأسا للمنزل .

ورد السائق قائلا :
– لا أمنعكم من ركوبه ، ما أبخل أهل ليون !
أمعن يوحنا النظر اليه وقال :

– إذا كانت ليون لا تروقك فما عليك الا أن ترحل عنها وتعمل فى مكان آخر .

قال السائق :

– لابد ان أقنع بها ، فأنا من أهل ليون . هيا اركبوا انتم ومريضكم . سيبيِّن عداد التاكسى أينا أكثر بخلا .

وما أن سارت السيارة حتى سأل يوحنا وليونارد بصوت واحد : أين الحقيبة ؟

وبدأ جان مارك يقص القصة : ارتفاع درجة حرارته ، المطر ، السيد بيدا صاحب الفندق ، الامريكى ، العطل ، المحطة . وفغر الكل أفواههم دهشة ، ثم أكمل الشاب قصته :

– عندما ذهب الامريكى ، أدركت أنه ترك لى حقيبة غير حقيبة الجدة ولولا خوفى أن يفوتنى القطار للاحظت فى التو واللحظة الفرق بين الحقيبتين .

ورد الوالد وهو ينظر إلى الحقيبة المجهولة فوق الاخرى قرب السائق وقال : بالطبع فحجمها نصف حجم حقيبة الجدة .

قال ليونارد : لا ، ليست نصفها .

وردّ يوحنا : أنا لا أعطى مقاسا بالضبط ، ولكني أتكلم بالتقريب .

وقال جان مارك مدافعا عن نفسه : أطلق لسيارته العنان بعد نزولى منها .

وقالت اميلى : عليك أن تعيدها لى فى أسرع وقت .

وقال يوحنا : أو تبدأ بأن تكتب له كلمة ليتم تبادل الحقيبتين .

وقال جان مارك : ليس عليها اسمه ولا عنوانه .

فقال يوحنا : هذا أمر غريب .

وقال ليونارد : كلا ، عندما يركب المرء عربته الخاصة ...

وسخر يوحنا من أخيه وكان حانقا عليه فى ذلك الصباح : (خاصة) ! ليست عربة خاصة وإنما عربة مستأجرة . وسأقول لكم رأيى : شيء من اثنين ، إما أن البطاقة قد انسلخت عن الحقيبة واما أن تكون المعلومات بداخل الحقيبة . لكل بلد عاداته . نواقص الامريكيين كثيرة ولكنهم أكثر الناس نظاما .

والقى على ليونارد نظرة تحد لم تجد نفعا اذ رد ليونارد قائلا :

– اتفق معك ، ولكن ربما كانت الحقيبة مغلقة بالمفتاح .

فقال جان مارك : لا ، لقد جربت أقفالها فوجدتها غير مغلقة بالمفتاح ولكن كان الزحام فى ممر القطار شديدا فلم استطيع فتحها .

وسألت اميلى مندهشة : هل قضيت الليل بطوله واقفا فى ممر القطار ؟

– نعم يا أمى .

وسأل يوحنا : وحقيبتك ، أرجو ن تكون قد اقفلتها بالمفتاح .
وقالت اميلى : أتشك فى رجل كان بهذا الظرف مع ولدك !
وهز يوحنا رأسه هزة العالم بالأمور وقال : يجب الاحتراس دائما من الاجانب .
فقال جان مارك : نعم ، كانت حقيبتى مقفلة بالمفتاح . ثم أنها كانت فارغة تقريبا .

وقال ليونارد . ولكنها حقيبة الجدة !
- اطمئنوا ، عليها اسمى وعنوانى .
وسأل يوحنا : عنوانك فى ليون ؟
- نعم بالتأكيد .
وتهلل وجه ليونارد ، وقال : اذن قد نجد الآن برقية عند وصولنا ! وتكون الجدة قد عرفت المسألة من أولها إلى آخرها .
وقال يوحنا : لنأمل ذلك .

وكانت الصغيرة مارى لويز جالسة على ركبتى عمها ليونارد وقد انشغلت بالنظر إلى الشوارع التى مروا بها ولم يسبق لها أن رأتها فى الفجر : شارع أوغست كونت ، ميدان بلكور ، ميدان الجمهورية ...
وقالت مارى لويز لجان مارك : أرجو ألا يكون ما أحضرته لى فى الحقيبة المفقودة !
وقهقه الأب والعم لقولها . وبدأ جان مارك أكثر أسفا وقال :
- لم أحضر لك أى شيء . لم يكن لدى وقت فى هذه الايام وأمس كان يوم أحد .
وانفجرت مارى لويز باكية ، فقالت لها أمها : هل تريدين صفعة على وجهك ؟

ومع كُلّ ، فقد زال التوتر من الجو . وقال يوحنا وعلى وجهه علامات الرضا :
- اننا نقترب من مصانع حرير سان بوليكارب . ثم استدار نحو ابنه قائلا : ألا تسالنا كيف يسير العمل ؟
وأجاب جان مارك دون أن يظهر أى اهتمام بصوته الحزين :
- بالطبع ، يا أبى ، بالطبع .
- لقد انقضت مائة سنة منذ اسس المصنع فى فبراير ١٨٣٠ . فبراير ١٩٣٠ . كانت تلك مناسبة لاحتفال ناجح جدا ومؤثر جدا ، القى فيه السيد كوزون كلمة بليغة . أليس كذلك يا ليونارد ؟
أجاب ليونارد بالايجاب . وقد شربنا اقداح الشمبانيا احتفالا بنجاح المصنع المضطرد وكما قال السيد كليمون وهو أكبرنا سنا حين قدم هدية الموظفين للسيد كوزون :
- انقضت مائة عام منذ أنشأ والدك مصانع سان بوليكارب للمنسوجات . وبعد مائة عام أخرى سوف يقام على شرف ابنائك حفل يفوق حفلنا هذا . كانت حرم السيد كوزون فى زمرة الحاضرين

وبصحبتها اولادها ، وكان يزين جيدها عقد أخاذ اهداه زوجها لها صبيحة يوم الاحتفال . خص السيد كليمون كل فرد منا تقريبا بكلمة مما أثار عاطفة السيدة كومب فاغروورغت عيناها بالدموع ، وكانت هذه السيدة قد اصبحت مساعدتي في الخزينة .

سأل جان مارك : وماذا عن الأمور المادية ؟

وبدا وكانه استيقظ لتوه وزاد انتباهه . نظر اليه يوحنا وليونارد نظرة تعجّب وسألاه :

– أي أمور تعني ؟

– لقد أزدهى المصنع بفضلكم ، انتم عماله وموظفوه . فبِمَ كافأكم السيد كوزون ؟ أبالنبيذ وبالعقد الذي وهبه زوجته ؟

قال ليونارد مرتابا : اخشى أن تكون صرت شيوعيا .

اجابه جان مارك : ايصبح الانسان شيوعيا إذا ظن ان دفع اجر العاملين خير احتفال بالاعياد المئوية ؟ انهم يستحقون مثل هذه الزيادة .

وهز يوحنا كتفيه وقال :

– زيادة لكل العاملين ! انها أفكار جيلكم هذا . « الجميع » يستحقون ، خيارا كانوا أم اشرارا ، مخلصين أم غير مخلصين . انتظر يا جان مارك حتى يأتي وقت المكافأة السنوية وستعلم وقتها أن السيد كوزون يقدر اخلص عماله ، ان صح هذا التعبير .

قالت اميلي :

– دعونا من هذا كله . اترغب في الطعام يا بني ؟ هل اكلت شيئا منذ مساء الامس ؟

– لا يا أمي ، لا رغبة لي غير ان انام بعض الوقت .

– عليك ان ترى جدتك قبل ذلك ، فهي مستاءة منك أكثر منا ، لانك جفوت اهلك مثل هذا الجفاء .

– لم اكن جافيا والا لما كنت معكم الآن .

قال يوحنا للسائق : انعطف عند ميدان كرواروس لتبلغ شارع ديمون .

واردف ليونارد : كلما اقتربنا من المنزل تمنيت لو أن برقية وصلت . وإذا كان الامر غير ذلكم فاستعدوا لضجة من النوع اياه .

قال يوحنا : انها تستظرف بعض الأمور احيانا .

– ما اقل ما تفعل ذلك .

وفي ميدان كرواروس احتل الحمام كعهده تمثال جاكار « نصير عمال الحرير » ، كما كتب على قاعدة التمثال .

وحين وقفت السيارة قال يوحنا :
– لا تنتظرونى . سأقضى السائق اجره واتى بالحقيبة الكبيرة ، يا ليونارد ، خذ الحقيبة الامريكية ، أقصد الحقيبة الغريبة .

انتشر آل بيرجيه على الرصيف وكان شارع ديمون هادئا كعهده فى مثل تلك الساعة .
قال ليونارد : لم لا تحمل انت الحقيبة الامريكية ، حتى تلحق بنا بسرعة .
قال جان مارك : استطيع حمل الحقيبتين معا . فرد عليه يوحنا :
– كلا ، كلا ، انت متعب ومسكننا مازال فى مكانه بالطابق الرابع ، أى على ارتفاع مائة واربعة درجة من درجات السلم . افعلا ما قلت .

رقى الجميع درجات السلم وكان جان مارك يمسك بمارى لويز وقد سرت رعشة فى جسده . قالت اميلى :
– نظفوا احذيتكم . لندق الجرس ، فقد طلبت الجدة ان نفعل ذلك .
بسطت مارى لويز ذراعها وضغطت على الزر باصبعها فى رفق ، ثم تراجعت مسرعة وراء امها . قال ليونارد : تقدمنا يا جان مارك .

سمع الجميع وقع خطوات تسرع إلى الباب ، ثم فتح الباب وتمتم جان مارك بصوت خفيض :
– صباح الخير يا جدتى . وانحنى . فقالت الجدة :
– ها قد اتيتنا بعد طول غياب ! اهلا بك .

وطبقت على خده قبلة يابسة . ولان الردهة كانت تلفها عتمة تحجب ملامح القادم ، سارت الجدة إلى قاعة الطعام وكان بها نافذتان تطلان على الافق وعلى سقوف منازل كثيرة تمتد إلى التلال البهية التى سميت تباهيا « تلال الذهب » . تبع الجميع الجدة .

وفى طريقه إلى الصالة تخلص ليونارد من الحقيبة اللعينة . التفتت الجدة إلى جان مارك ووقفت قبالته . كانت امرأة قصيرة القامة نحيلة الجسم معتدلة القوام تعنى بمظهرها . وكانت عيناها لا تغفلان شيئا وكان شعرها الاشيب جميلا . قالت الجدة لجان مارك :
– أزل هذه النظارة عن عينيك . ما اشد شحوب وجهك !
رد جان مارك معتذرا كمن يتوسل :
– كان طقس باريس ممعنا فى السوء خلال الايام الماضية .
قالت الجدة هازئة :
– ذلك طبيعى . انهم يشيعون ان الطقس سىء فى ليون وحقيقة الامر ان شمسها ساطعة . لقد اتيتنا

بعد طول غياب . ولعلك ستوضح لنا ما غمض من أمور . يحق لنا فيما اظن ان تبيِّن لنا بعض الأمور .

كاد جان مارك ان يحتج على ذلك ، غير ان ليونارد سبقه فقال : يا أمي ، هلا اذنت له بالجلوس . لقد ظل واقفا فى القطار طوال الليل !

وردت الجدة :

– ولم لم يسافر نهارا ؟ لعله تخلّق باخلاق باريس . فاهلها يستيقظون عند الخامسة مساء وينامون عند السادسة صباحا . حسنا ، جاوزت الساعة الآن السادسة بقليل ، وسيسمع الصبى توا قولى . بوسعك ان تجلس كما يروق لك فقد اعتدنا سوء الادب . لا اظنك تجرؤ وقد تسكعت ستة شهر فى مقاهى مونبارناس التى يفوق سوء سمعتها ... اذهبى إلى المطبخ يا مارى لويز .

– حالا يا جدتى . واتجهت مارى لويز صوب غرفتها .

– قلت لك اذهبى إلى المطبخ فلا اريد ات تسترق السمع وراء الباب .

سارت مارى لويز إلى المطبخ .

– تكاد هذه الصغيرة ان تشابه اخاها . حسنا ، ها هو يوحنا .

عبر يوحنا الردهة مسرعا منبهر الانفاس وان بدأ عليه الانشراح ، وكان يحمل باحدى يديه الحقيبة الكبيرة وبالاخرى علبة من « الكريم » .

– ما اسوأ سائقى التاكسى . انهم مغرمون بعدم رد « الفكة » . لقد زعم سائق التاكسى ان هذا اول مشوار له منذ الصباح . تصوروا ان افتح صندوق النقد كل صباح فلا يكون فيه غير اوراق من فئة الالف فرنك . اضطريت ان استعين بالسيدة بيوشون واغتنمت الفرصة فاشتريت علبة من « الكريم » . اعدى لنا قهوة طيبة يا اميلى . لقد هيأت الجدة المائدة وذلك لطف منها . اسرعت اميلى تعد القهوة وقد ابتسمت لاول مرة منذ وصول القطار . تطلع يوحنا إلى ليونارد وجان مارك وقد ظلا واقفين ، وسأل وهو يضع الحقيبة وكأن سؤاله لا يعنى احدا : كيف الحال ؟

فاجابه صوت حاد : ما أبهج حالنا يا ابنى . الا ترى سحنة الابن الضال ؟ ارجوك . اعرف كل شيء : الفصل الممطر ، البرد .... هذا هراء . يمكنه ان يسخر من أبيه ومن امه وعمه ولكنه لن يسخر منى . فهذا بيتى ولا اطيق ان يدخله قبل ان يحدثنا كيف جاز له ان ينسانا كما فعل منذ ان رحل عنا وكيف كان عيشه بباريس .

حاول يوحنا ان يكمل الجملة التى بدأها .

– لا تهولى الأمور يا امى فانتِ تظلمين جان مارك . انه لم يطلب أكثر من مصروفه الشهرى .

– ذلك ما يحيرنى ، فهو لم يطلب أكثر من ذلك على الاطلاق ، فى وقت تزداد فيه باريس غلاء يوما بعد يوم .

أوشك جان مارك ان يفقد أعصابه وقال : كنت اعمل بعد انقضاء وقت الدراسة .

جاء رد الجدة لاسعا كالسياط :

– كنت تعمل فى محلات يوغان لاصلاح التحف . أما زلت تعمل هناك ؟

سكت جان مارك ونظر اليه يوحنا وليونارد دهشين . اردفت الجدة قائلة :

– لقد قررت ان تخطب دون ان ترجع الينا فى ذلك ، واغفلت رباطك بأوغستا ، اليس كذلك ؟

لم يجد جان مارك مناصا من الدفاع عن نفسه فقال :

– لم يسبق لى ان ارتبطت باوغستا . انها صديقة فحسب . لا اظنك تصدقين ما يشاع فى مثل هذه الاحوال .

– بالتأكيد لم اصدق . افقدت عقلى حتى افعل ذلك ؟ كيف يمكنك ان ترتبط باحد !

تشجع يوحنا وقال : يمكنه ذلك ... خطيبته ...

– فلنتحدث اذن عن خطيبته ! اسم وصورة . لا داعى للحديث عن مظهرها . فتاة باريسية !

انفجر جان مارك قائلا : انها فتاة باريسية وسأتزوجها عما قريب . هذا ما جئت احدثكم به .

ردت الجدة بقسوة : اولا يحدث الزواج عادة بين الخطيبين ؟ الم تكونا واثقين من ذلك ؟

استدار يوحنا نحو المطبخ سبيل النجاة الوحيد وقال :

– هل اعددت القهوة يا اميلى ؟

– حالا يا والدى . دقيقتان فقط .

كانت الدقيقتان اطول مما ينبغى لتواصل الجدة هجماتها ، ولكنها لم تفعل ذلك ، صمتت فجأة واخذت تحدق فى شىء على مقربة من قدمى يوحنا : حقيبة جان مارك .

– ٤ –

رفعت الجدة بصرها وقالت : اين حقيبتى ؟ ماذا فعلت بها ؟ ابلغت بك الجرأة ان تنساها بباريس بعد ان حرمتنى منها ستة اشهر كاملة ؟

تسمر الاب والعم فى مكانيهما فقد ثارت ثائرة الجدة فى موعدها كالبركان ، ولا علم لاحد بمدى ثورتها ولا بنهايتها . قال جان مارك :

– لقد اخطأ من اوصلنى المحطة فترك لى حقيبته .

– من اوصلك ؟ اهى خطيبتك ؟

– كلا . رجل امريكى . كان الأجدر به أن يرسل برقية .

– لماذا ؟ اى امريكى تعنى ؟ اين حقيبتى ؟

– دعينى اقص عليك القصة يا جدتى . لقد نال منى التعب .

اسرع يوحنا يقول : ها قد اعدت القهوة . هيا بنا يا امى . اجلس يا جان مارك . ستنعشك القهوة . بعد تفحُّص الحقيبة الغريبة ، انا واثق انك ستجد بها العنوان . اين وضعتها يا ليونارد ؟
– فى البهو . سآتيكم بها .

وضعت اميلى ابريق القهوة على المائدة ، وقفزت مارى لويز فجلست على مقعد صغير ، وقال يوحنا : فلنلتذ بمذاق القهوة ونرى الامر بعد ذلك ، فالرجل الحقيقى يجمع بين العمل والمتعة .
قال ليونارد : ها هى يا امى . لو ابعدنا الفناجين قليلا لوضعت القهوة على مقربة منك .
قالت الجدة : لا يهمنى كل ذلك . اريد حقيبتى . هذه الحقيبة صغيرة . كيف اختلط عليك الامر ؟ كيف فعل الامريكى بك ذلك ؟
رد يوحنا قائلا : لقد اسعف جان مارك حين لم يجد تاكسيا ساعة المطر .
قالت الجدة : ولمن صُنع المترو ؟
قالت اميلى : حافظوا على طلاء المائدة ، ابقوا الغطاء عليها .
قال ليونارد دون ان يمس اقفال الحقيبة : ما اجود المادة التى صنعت منها .
قال يوحنا : تصلح للسفر بالطائرة . الامريكيون يكثرون من السفر بالطائرة . انهم يحبون ذلك وهو يناسب اسلوب حياتهم . افتحها يا جان مارك .
قال جان مارك : يسوءنى ان اكون فضوليا .
ردت عليه الجدة قائلة : انت اكثر لطفا مع الغرباء منك مع اهملك . انها حقيبة قديمة وقد تكون ملأى بالخرَف البالية . ربما تعمد الامريكى الخطأ .
قال يوحنا : لماذا يسوؤك فتحها يا جان مارك ؟ ان كان بالحقيبة رسائل فلن تقرأها . نريد اسما أو عنوانا على ظهر خطاب .
وقالت مارى لويز : هيا اسرع وافتحها .
انفتح القفلان فى آن واحد وازاح جان مارك غطاء الحقيبة .
سأل ليونارد : الا توجد ببطن الغطاء بطاقة ؟ لا شيء .

التفّ الجميع حول الحقيبة ، عدا الجدة التى بقيت جالسة ممسكة بابريق القهوة تستزيد منها ، وقالت : لن اترك القهوة تبرد وانتم تفتشون الحقيبة .
قالت اميلى : ما اجمل هذا الحرير .
وقال ليونارد : انه حرير فرنسى رغم الزخارف الصينية التى عليه .
ردد جان مارك : زخارف صينية ؟

أخذ جان مارك يتأمل الحرير الاصفر والازرق الذى كان يحجب ما بداخل الحقيبة ، فرأى تنّينا ازرق فى اطار من سماء صفراء . كان ضوء السماء الحقيقية ينسل من النافذة فيجعل النظر إلى الزخرفة امرا لا تطيقه النفس . وضعت اميلى اصابعها على احد الحزامين اللذين احاطا بالحقيبة .

– ما هذا : فستان ؟ قميص نوم ؟

قالت الجدة وهي تضع زبدا على قطعة خبز : أواثق انت يا جان مارك ان الرجل الشهم الذى اغاثك لم يكن فتاة امريكية أو صينية ؟

قال يوحنا وقد نفذ صبره : اخرجيها يا اميلى لنراها ثم نعيدها مكانها .

وقال ليونارد : انه قميص نوم . ما ابدعه !

قبض جان مارك حافة المائدة باطراف اصابعه وغمغم يحدث نفسه : مستحيل .

تنبهت الجدة وحدها لما فعل فسألته : ايذكرك ذلك شيئا ؟

لم يجبها جان مارك . فقد انصرف بصره عن قميص النوم الذى بسطته اميلى على مقعد وظل يحدق فيما تحت القميص .

قال يوحنا : انها منشقة تحوى اشياء .

اضاف ليونارد : لعلها أدوات تجميل .

قال يوحنا : لا اظن بالحقيبة اشياء اخرى . وضع اللفافة على المنضدة وسأل : هل أفضها ؟

قالت الجدة وهي تقضم الخبز : هل تأمل ان تجد فيها اسما أو عنوانا ؟

كانت اللهفة لفض اللفافة لا تقاوم ، ففتح يوحنا المنشقة .

قالت اميلى : هناك منشقة اخرى . ما هذه البقعة الصغيرة ؟ بقعة دم ؟

انزعج ليونارد وقال يوحنا وهو يفض اللفافة الثانية : املك نفسك ، الم تصب بجرح اثناء الحلاقة ؟

قالت الجدة : لعلها امرأة ملتمية !

صرخت اميلى فجأة وحاكتها مارى لويز وصاح يوحنا وليونارد ، بينما سقط جان مارك ارضا وهو يئن . هبت الجدة واقفة : جان مارك ! لقد اغمى عليه !

بركت الجدة واخذت تهز رأسه . اصبحت صرخة اميلى بكاءً متصلاً .

– كلا ، مستحيل . يا للهول ! اخرجي يا مارى لويز ، اخرجي . يا للهول . يا للهول !

تشبثت مارى لويز بفستان امها وقالت : انى خائفة يا امى . خائفة .

اصطكت اسنان يوحنا وليونارد .

قال ليونارد : انها يد امرأة . وقال يوحنا : هى بلا شك يد صناعية .

قالت الجدة وهي تسرع فتقفل الحقيبة : يا له من وحش ! ارتمت اميلى على الجدة وهي تبكى وتقول :

– ولكن انظرى اليها ، انظرى اليها . انه خاتمى . الخاتم الذى ارسلته لجان مارك ليهديه اوغستا . اوغستا . اوغستا !

انهارت اميلي وفقدت وعيها . ملك الخوف ليونارد ويوحنا . كانت الجدة وحدها ثابتة فاخذت توجه الجميع ، فأمرت بماء لا نعاش اميلي وبحمل جان مارك إلى غرفته وبابلاغ الشرطة فوراً ، وبأخذ ماري لويز إلى دار السيدة بيوشون وبالاتصال بالدكتور جيرييه الذى لابد من ان يكون بداره .
قالت الجدة :
– لعلها ليست يد اوغستا . فيد اوغستا اطول . انها يد امرأة مجهولة ، امرأة لا نعرفها .

٣

نصيحة الكاتب

— ١ —

اندفع الشقيقان صوب بلدية « كرواروس » ، حيث مركز الشرطة ، كانا بحاجة إلى أن يجريا جنبا إلى جنب وأن يتلامسا ، فقد ملكهما خوف بالغ . كان يوحنّا يحمل الحقيبة المرعبة وقد أمسك أول الأمر بمقبضها وكأنها حقيبة عادية . لقد رتّبت الجدة محتويات الحقيبة أحسن ترتيب . دُهش الشقيقان لذلك ، فقد لاحظت الجدة كل شيء وهى تأكل الخبز بالزبدة : المناشف وقميص النوم المزيّن بتنّين فى وسطه والأحزمة . انتاب يوحنا وهو يهبط الدرج مسرعا احساس بأن شيئا ما يتحرك داخل الحقيبة . يا للفظاعة ! ألصق يوحنا الحقيبة على بطنه ولفّ ذراعيه حول الغطاء وظل يحمل الحقيبة على تلك الحال . وأخذ يتأوّه بين الفنية والأخرى . أمسك ليونارد بمرفق يوحنا ليشجعه ولكن دون جدوى ، إذ ملك الخوف ليونارد أيضا .

قال ليونارد لأخيه وهما يغادران البناية : أرجو ألّا نقابل أحدا فى الطريق .

سار الاخوان لا يلتفتان يمنة ولا يسرة وقد ظهر الهم والعبوس على ملامحهما . كانا يلبسان سترتين سوداوين ينمان عن انتسابهما إلى أوساط صناعة الحرير . سيدان محترمان وموظفان مثاليان فى مصنع عمره مائة عام ، يحملان حقيبة بداخلها يد مبتورة ! وعلى أصبع من أصابع اليد المبتورة خاتم اميلى ! صدق يوحنا وهو يقول لأخيه ساعة خروجهما : من الأمور ما يعجز الأنسان عن تصوره .

خشى ليونارد أن يكون مركز الشرطة مغلقا ، غير أنّ المركز كان مفتوحا . وحين دخل الأخوان البناية كان أحد الموظفين يرد على محادثة هاتفية .

– مدير المركز لا يأتى قبل الساعة التاسعة ... حسنا . إلى اللقاء يا سيدى .

وضع الموظف السماعة وأخذ يتحدث إلى عريف وقف قبالته :

– ما أعجب الناس ! إنهم يظنون أنّ المدير يقضى الليل بمكتبه كما كان يفعل نابليون وينتظر ما يحدث لهم من توافه الأمور . تصور أن الشخص الذى تلفن قبل قليل أبى أن يخبرنى بما حدث له ! ما هذا ؟

تفحص الموظف الأخوين ورأى نظراتهما الخائفة . قال يوحنا وهو يرتجف خوفا :

– عفوا ، لقد حدث أمر فظيع جدا ، فظيع ! انها جريمة بلا ريب ... سببها عملية استبدال ... ابنى ...

عجز يوحنا عن سرد ما وقع . أراد ليونارد أن يكمل الحديث فقال : إبن أخي ... ولكنه عجز بدوره .

قال الكاتب : أتقول أن ابنك استبدل ؟ ماذا تعنى بقولك « استبدال » ؟

رد يوحنا : كلّا . الحقيبة هي التي استبدلت لا إبني . ابني لم يقتل ولكن خطيبته قتلت « بلا شك » .

– لم قلت « بلا شك » . ألست واثقا مما تقول ؟

انتزع يوحنا الكلمات من جوفه انتزاعا : عجيب الّا تكون قد قُتلت وقد بُترت يدها بترا .

صاح الكاتب : ماذا تقول ؟ (كسا الغضب وجه الكاتب وهو يقول) : هلّا أفصحت ! لم أفهم شيئا مما تقول أنّ ابنك بتر يد خطيبته ؟

صاح يوحنا : كلّا يا سيدى ، كلّا ! لقد فقد وعيه عند فتح الحقيبة !

– هل كانت اليد بالحقيبة ؟

وضع يوحنا الحقيبة على المكتب ، فدفع الكاتب مقعده بعنف إلى الوراء وقال : فى هذه الحقيبة ؟ أومأ يوحنا برأسه بالايجاب وهمس ليونارد : نعم .

خطا العريف خطوات إلى الامام وملك الكاتب نفسه وقال آمرا : افتحها !

حرّك يوحنا أقفال الحقيبة ولكنه أحجم عن رفع الغطاء .

– لقد أعدنا كل شيء مكانه .

ردد الكاتب : قلت لك افتح الحقيبة ! الا تدرى أننا سنأخذ البصمات بعد ذلك ؟

ارتعد يوحنا خوفا وبدأ وكأنه يتوسّل بنظراته ويستنجد بالعريف أو بليونارد . ولكن العريف وليونارد والكاتب ظلوا جامدين كالتماثيل . كان على يوحنا أن ينجز المهمة بمفرده . قال الكاتب بصوت مخنوق :

– يا للهول ، اقفلها . يا للفظاعة !

سأل يوحنا بنفس النغمة : هل ألفّها ؟

ملك الكاتب زمام نفسه وصاح فيه : قلت لك أقفلها ! ثم استطرد بصوت مخنوق : أطلب لى شارع فوبان من فضلك ايها العريف .

قفل يوحنا الحقيبة . كان العرق يغمر وجهه ووجه ليونارد . بدا الكاتب وكأنه فى حلم . حاول أن يملك أمر نفسه وقال :

– قلت قبل قليل أن عملية استبدال قد وقعت . هل استبدلت هذه الحقيبة .

أجاب الاخوان بصوت واحد : نعم .

قال العريف : ألو . هنا مركز شرطة « كرواروس » . أريد قسم نشر المعلومات . لقد وقعت جريمة . مد العريف السماعة للكاتب . كان وجهه المحتقن يثير الشفقة .

– ألو . قسم نشر المعلومات . أنا ماييه من قسم « كرواروس » . أحضر بعضهم يدا مبتورة داخل حقيبة ... من أحضرها ؟ العائلة . حسنا ، حسنا ، انه لأمر فظيع . رفع العريف رأسه نحو الأخوين وسألهما : أتعرفان القاتل ؟ أنكر الأخوان بشدة . قال الكاتب لمحدثه : انهما ينكران معرفتهما للقاتل .

ورفع رأسه ثانية وقال : من أين جاءت الحقيبة ؟

أجاب يوحنا : من باريس . قال الكاتب لمحدثه فى التلفون : من باريس.

ورفع الكاتب رأسه ثالثة وسأل : من أى مكان فى باريس ؟

– لا نعلم يا سيدى .

– انهما لا يعلمان . نعم . هو كذلك . شكرا .

وضع الكاتب سماعة التلفون . خرج العريف .

– سيأتى مفتشا شرطة بعد قليل . انتظراهما . سأسجل أقوالكما الآن . علينا ابلاغ النيابة العامة . لا تعليق لى على تصرفكما ولكن الاجدر بكما أن تنتظرا حتى يأتى كبير المفتشين .

– قال ليونارد وقد تعلّق نظره بساعة الحائط : ولكن كان علينا أن نفعل ذلك بسرعة لارتباطنا بموعد العمل ، محلات سان بوليكارب للمنسوجات والحرير .

– لا أظنكما تذهبان إلى مكان عملكما هذا الصباح .

بلّل العرق وجه يوحنا ، فمسح جبينه وقد ملكه خوف يماثل خوفه حين رأى اليد المبتورة .

– لم يحدث أبدا أن غبنا عن العمل ، لا أنا ولا أخى ، الا بسبب مرض خطير .

– أتظن ما بالحقيبة أهون من المرض ؟

– الأمر لا يعنينا مباشرة ، فابنى ...

– وبهذه المناسبة أين أبنك ؟ لِمَ لم يأت معكما ؟

– ذكرتُ لك يا سيّدى أنه فقد وعيه . واصابت زوجتى نوبة عصبية حين رأت خاتمها على اصبع اليد المبتورة .

قال الكاتب : لقد رأيت الخاتم كذلك . هل عرفتم اليد بسبب الخاتم ؟

– ليس تماما يا سيدى . نحن لا نعرف خطيبة ابنى ، أما هو فقد تعرف على اليد .

– هل تفترض ذلك ؟

– لقد تركناه فاقد الوعى ، وفى طريقنا اليكم أخطرنا الدكتور جيربيه . أمّا أمرت بذلك .

– هل لانها لم تتأثر بذلك ؟

تنهد يوحنا وليونارد فى آن واحد واجابا : لا . كلا .

رفع الكاتب حاجبيه ونظر اليهما ، ثم أخذ ورقة وريشة غمسها فى المحبرة وهزّها فوق سلة الاوراق المهملة وسأل يوحنا .

– ما أسمك ؟ أذكر لى فقط الاسم الذى ينادونك به عادة .
– بيرجيه ، يوحنا . مكان وتاريخ الميلاد ١٨٨٢ فى « سان رومبير ليل بارب » ، وبذا يكون عمرى ثمانية وأربعون عاما . كبير الصيارفة بمحلات سان – بوليكارب للمنسوجات والحرير .
– العنـــوان ؟
– ١٠ شارع ديمون ، الطابق الرابع على اليسار .
تحوَّل الكاتب إلى ليونارد : وأنـت ؟
– بيرجيه ، ليونارد . نفس المكان ، نفس العمر ، نفس العنوان ، نفس مكان العمل ، رئيس مخازن بنفس المصنع .

أخذ الكاتب ينظر اليهما . كان يوحنا طويل القامة ، ضخم الجثة ، أسمر الون ، كث الشعر ، تغطى يديه فروة من الشعر . أما ليونارد فكان قصير القامة ، ضامر الجسد ، يُنذر شعر رأسه بالصلع . كانا مختلفين فى لون عيونهما ، فيوحنا ذو عينين سوداوين وعينا ليونارد رماديتين . قال الكاتب دهشا : أتوأمان أنتما ؟
– نعم ، ولكن من بويضتين مختلفتين .
حدجه الكاتب بنظرة استياء واستطرد قائلا : تحدثتما عن امكما بصورة غريبة . تبادل الاخوان نظرات غريبة .
– انتما اسرة مترابطة فيما اظن . ثم سأل الكاتب ليونارد : امتزوج أنت ؟
تردد ليونارد قبل أن يجيب : لا ، يا سيدى .
– لماذا ترددت قبل أن تجيب ؟
– خشيت ان تظن ايضا أنَّ أمى ... إننا نجلّها اجلالاً كبيرا . نعم يا سيدى . ثم قال وهو يشد قامته فخرا :
– لم تأذن لى أمى بالزواج . هذا كل ما فى الامر . انها تريد ان نظل اسرة متماسكة ونعيش كلنا معا وانا اتفق معها .
– ماذا تعنى بقولك « كلنا معا » ؟
قال يوحنا : زوجتى وانا ، وولدىّ الاثنين جان مارك المسكين ابنى عمره ثلاثة وعشرون عاما وطفلة اسمها مارى لويز عمرها ثمان سنوات ، وأخى .
إستأنف يوحنا قائلا بعد صمت قصير : ووالدتنا ، وقد اصبحت ارملة منذ كنا طفلين أنا وليونارد . كان والدى ضابطا ، توفى اثر نزلة برد (استطرد يوحنا فخورا وأيَّده ليونارد) انها سيدة بحق !
قرأ الكاتب ما دوَّن وقال :
– حسنا سأعطيكما وثيقة باستلام الحقيبة . أخذ الرجل يكتب ويقرأ ما يكتب بصوت عال : « أتى بهذه الحقيبة السيد بيرجيه ، وبداخلها يد امرأة بترت عند الرسغ وفى أحد اصابع اليد خاتم ... » .

أىّ حجر كريم يزيِّن الخاتم ؟ هل هو من الاحجار الكريمة ؟

قال يوحنا : نعم سيدى ، انه « عين هر » ويسمونه ايضا « عين النمر » انها من الكوارتز المحلى بخيوط الاميانتى . كانت امى تحفظه كتذكار عائلى ، وقد ارسلته إلى جان مارك قبل خمسة أو ستة شهور لكى ...

– احتفظوا بالتفاصيل لوقت آخر .. ما يهمنى الآن هو مصدر هذه الحقيبة .

– ٢ –

استعاد يوحنا شيئا من ثباته وكرامته وهو يقص القصة على الكاتب الذى ظل يستمع دون أن يقاطعه وقد مدّ ذقنه إلى الامام ورفع بصره ونسى وجود ليونارد الذى نسى وجوده بدوره . لم يكن ليونارد ليحرص على شيء حرصه على توكيد أقوال يوحنا كلمة كلمة . وبعد ان فرغ يوحنا من سرد القصة فاجأه الكاتب سائلا :

– أما زلتما متمسكين بقصتكما عن الرجل المجهول ؟ الامريكى المجهول ؟

– بالتأكيد يا سيدى الكاتب .

– مجهول أخطأ فأبدل حقيبة باخرى ... وبها يد الخطيبة ! أيمكن أن يكون مجهولاً ؟

– انه طالب فى مدرسة الفنون الجميلة بباريس وهو نابه جداً يا سيدى ، طالما قرظه اساتذته . أمنا هى التى ارسلته إلى هذه المدرسة وهى معجبة بما يفعل . ولكى لا يصير عالة علينا أخذ يدرس ويعمل فى ذات الوقت . كان يعمل ، منذ وقت ليس بالبعيد ، كان يعمل فى محلات بوغان ، اكبر محلات باريس لاصلاح التحف والاثريات . انه ابن بار حقا . ما كان له ان ينشأ على غير ما ربيناه عليه ، انه ابن ممتاز .

سأل الكاتب بنبرة شابها الشك : وخطيبته ؟ خطيبته التى ارسلت أمكما الخاتم اليها ؟

قال يوحنا وقد تغضّن وجهه فجأة : الامر غير ذلك يا سيدى ، انها لم ترسله لها .

– لكن ابنك منحها الخاتم . قلتما انه تعرَّف على اليد لوجود الخاتم عليها . إذن فالخطيبة هى الضحية ؟ فمن هى ؟ هذا كل ما أطلب معرفته !

– الآنسة سارازان . قال يوحنا ذلك وكأن العالم كله يعرفها ، « هوغت سارازان » . لا نعرفها معرفةً شخصية كما ذكرت لك ، لقد خطبها جان مارك فى ديسمبر واخبرنا بذلك فى يناير وارسل لنا صورتها . وجاء بالامس ليخبرنا بقرب موعد زواجهما – هاله ما رأى . فتاة بمثل هذا الجمال . وأسفاه .

حوّل يوحنا بصره عن الحقيبة .

– انكما تعرفان على الاقل هويتها ! عمرها ، مهنتها ، عنوانها ؟ .

– هويتها ؟ انها فتاة كريمة يا سيدى ، من اسرة كريمة ، ولذلك فهى لا تعمل . ففتيات الاسر

الكريمة لا يعملن رغم تغير التقاليد والعادات فى هذا العصر . عمرها ؟ لقد كتب لنا جان مارك قائلا : « فتاة شابة » التقيت باحدى الفتيات ... » ومن هذا نستنتج ان عمرها ثمانية عشرة سنة أو عشرون أو احدى وعشرون على الأكثر !

- وعنوانـــها ؟
- عنوانــــها ؟
- نعم ، عنوانها ! عنوان الآنسة سارازان ، هوغت سارازان !
- العنوان ... ضحك يوحنا ضحكة بائسة . لا اعرفه ! وأنت يا ليونارد ؟ رد ليونارد بهدوء شديد رغم شحوبة لونه :
- ولا انا . انت تعلم انه لا يعنينا ان كانت تسكن فى هذا الحى أو ذاك من احياء باريس ، فنحن لا نقصد باريس مطلقا ! وعلى كل حال فابن اخى يعرف العنوان وسيخبر به اولئك السادة !
- حسنا ، لقد وصلوا .

سمع ثلاثتهم صوت سيارة منطلقة كالاعصار وقفت امام مبنى الشرطة . وتنفس الكاتب الصعداء ثم التفت إلى الرجلين قائلا :

- انتظرا مع العريف فى الغرفة المجاورة .
- وقال يوحنا : ولكننا على عجلة من امرنا ولابد ان ...
- اطمئنا فالمفتشين ليسا اقل منكما عجلة . هيا ، هيا .

خرج التوأمان من باب جانبى ، وظهر عند المدخل شخصان آخران كأنهما توأمان .

قال اعلاهما مقاما ، معرفا نفسه : سنفيل ، كبير المفتشين .

هب الكاتب واقفا : مرحبا بكبير المفتشين . أنا ماييه ، السكرتير .

مدّ سنفيل يده اليه .

- أظنك تعرف المفتش دولورم .
- بالتأكيد . مرحبا يا دولورم .
- اهلا يا ماييه .
- سأله سنفيل : هل معك أحد ؟
- كلا يا سيدى ، انهما فى الغرفة المجاورة ... نظر المفتش إلى الحقيبة : أهذه هى الحقيبة ؟ ... ثم حرّك الاقفال .

قال دولورم : يا للهول ! وحاول الكاتب جاهدًا السيطرة على هلعه .

- انها اليد اليسرى ، قال سنفيل دون انفعال . بترت بضربة واحدة . واضح تماما ان من بترها ليس جراحا .

وقال دولورم : سبق ان رأيت أرجلاً مبتورة ، أما يدا فلا .

قفل سنفيل الحقيبة قائلاً : وماذا تفعل إذا رأيت رأساً مبتورة !

– إذا كانت رأس الشخص الذى بتر هذه اليد فسوف اهنىء من فعل ذلك يا سيدى المفتش .

استعاد الكاتب هدوءه فقال : قد لا يكون القاتل بعيداً ، إذ يبدو لى أن الفتى الذى احضر هذه الحقيبة من باريس يعلم عن هذا الحادث أكثر بكثير مما قاله .

سأله سنفيل : أهو موجود هنا ؟

– يوجود الاب والعم فقط . اما الابن فبقى بالمنزل مغشيا عليه كما يزعمان . العنوان ١٠ شارع ديمون فى الشارع الكبير .

– هل ارسلت هناك أحد رجالك ؟

– كلا ، لقد فضلت انتظاركما . ارتسم الغضب على وجه سنفيل .

– هل اختل عقلك حتى تفعل ذلك ؟ دولورم ، خذ الحقيبة وهيا بنا إلى هناك ! استدع اقرباء الفتى !

قال السكرتير فى خجل وهو يمضى لفتح الباب الجانبى :

– ألن تتركا وثيقة باستلام هذه الحقيبة منى ؟

– سوف ترسل لك ورقة بذلك فيما بعد . ظهر يوحنا وليونارد أمام باب الغرفة وقد بدا عليهما الانزعاج .

– سعدتم صباحا أيها السيدان . سنعرِّف بعضنا ببعض فيما بعد . أما الآن فنحن فى عجلة من امرنا هيا بنا إلى منزلكما !

قال ليونارد : حسنا يا سيدى ، حسنا .

نظر اليه سنفيل نظرة استغراب وكان دولورم قد خرج حاملاً الحقيبة فلحق به الآخرون . وبقى الكاتب والعريف بمفردهما فى الغرفة ، وظلا واقفين ينصتان كأنما ينتظران وقوع كارثة جديدة . وترامى إلى سمعها صوت من خلال النافذة يقول : ١٠ شارع ديمون ، اننا على مقربة من العنوان ! وحين سمع الرجلان ابواب العربة تقفل ومحركها يدور وهى تندفع إلى الامام تنفسا الصعداء .

– ٤ –

وصل المفتشان المنزل ولاحظا ان احدا لم يهرب . كان الدكتور جيريه هناك وقد قام بحقن اميلى التى ظلّت تبكى طوال الوقت ، كما حقن جان مارك المغمى عليه وسرعان ما نام جان مارك . استعاد المفتش سنفيل هدوءه الذى عرف به فى المنطقة بأسرها . وفى الطريق من مركز الشرطة إلى منزل العائلة أيقن سنفيل بعد لقائه يوحنا وليونارد أنّ الآخوين لن يفيدان كثيراً ، وما أن لمح الجدة حتى أدرك انها دون غيرها قادرة على معاونته فى مهمته . غير ان الجدة لم تظهر ميلا للتعاون ، بل قالت بلهجة قاطعة أنها لا تعلم عن الامر شيئا .

كانت العقبة الاولى خلوّ المنزل من جهاز تلفون . قال سنفيل : أول ما ينبغى الحصول عليه عنوان الآنسة سارازان من حفيدك . سيأخذ مساعدى العنوان والحقيبة فوراً إلى قسم المعلومات لابلاغهما لباريس دون ابطاء ، هذا إذا لم تكن باريس قد علمت ذلك .

قالت الجدة : تلك حجرته . بوسعك أن تدخلها .

ظلّ مصراعا نافذة الغرفة مواربين ، وكان جان مارك نائما على السرير ، شاحب اللون ، قد ارتدى قميصا . تقدم سنفيل ودولورم ووقفا بجانب السرير وتتبعتهما الجدّة ، بينما انتصب يوحنا وليونارد عند عتبة الباب . عقدت اميلى أصابعها حين مسّ سنفيل كتف جان مارك وتأوّهت : يا الهى !

انتفض جان مارك وصاح : لا ! ورفع عينيه المذعورتين صوب الرجلين الغريبين ، وسرعان ما استرد وعيه حين بلغه الجدة وهى تقول دون وجل : هذان السيدان من رجال الشرطة ويريدان عنوان الآنسة سارازان .

قال جان مارك والكلام لا ينفذ من حلقه : حسنا . لا ، لا يمكن ، لا لا ، مستحيل . ثم مسح جبينه ، وأخذ يصارع الموجهع الثانية التى تلت الموجة الاولى من الكابوس وقال : ٩ مكرر ، شارع لافيرم ، نوبى ، على مقربة من باريس .

– ورقم التلفون ؟

– ماييو ، ٤٦ – ٧٩ .

قال دولورم بعد أن دوّن المعلومات : حسنا . هل أعود إلى المركز يا سيدى المفتش ؟

– نعم ، ولكن أرسل لى السيارة فيما بعد .

خرج دولورم وواصل سنفيل استجواب جان مارك : هل تفضل أن تجلس أم تظل راقدا ؟ هرعت ايملى تساعد جان مارك ليجلس ، بينما ناولته الجدة سترته . دخل الجميع غرفة الطعام المضاءة . وقال يوحنا على استحياء :

– أتاذن لى ولأخى بابلاغ المكتب بالتلفون أننا سنتأخر عن موعد العمل ؟ نعمل فى محلات سان بوليكارب للمنسوجات والحرير .

أجاب سنفيل : من الافضل ان يعفل ذلك أخوك لا أنت . ولا تسهب فى الحديث عن سبب الغياب .

– لكن ينبغى أن نبرر سبب غيابنا .

– أخبرهم انك ستوضح لهم الامر فيما بعد . ستتولى الصحافة عنكما ذلك على كل حال .

– شحب وجها الشقيقين وصاحا : الصحافة !

هز سنفيل كتفيه مستسلما وقال لجان مارك : هيا . قص علينا ما حدث .

ما كان ذلك بالامر السهل . كيف يقص المرء عن طيب خاطر ما حدث . كاد يغمى على جان

مارك حين بلغ الجزء المفزع من القصة . غير ان الجدة اسرعت وواصلت حديث جان مارك . بقى سنفيل صامتا . قالت الجدة :

– هذا الخاتم « عين الهر » ، كانت زوجة ابنى الواقفة امامك قد ارسلته إلى ابنها فى ديسمبر ليهديه صديقة من اصدقاء الطفولة : الآنسة أوغستا شنلونغ التى تدرس بباريس ايضا . هبَّ المفتش واقفا فجأة :

– ابنة صاحب محلات سيليستان للمجوهرات ؟ لِمَ لم تذكروا ذلك من البداية ؟

سأل يوحنا وجلا : أتعرفها ؟ اجابت الجدة مستاءة : ما كان بوسعنا ان نخبرك بذلك فهى غير الفتاة التى نحن بصددها .

جلس سنفيل ثانية . قالت الجدة :

– كنا نظن جان مارك على صلة بتلك الفتاة . وقد ارسلت زوجة ابنى الخاتم دون ان يشير عليها أحد بذلك . كانت فى بساطة الهدية التى ارسلتها له ، فضلا عن انها ظنت ان مثل هذه الحلية افضل هدية تهدى لابنة الصائغ الوحيدة . التفتت الجدة جهة جان مارك وقالت له :

– غير انك اهديت الحلية فيما اظن للآنسة سارازان لا لاوغستا كما كانت ترغب والدتك . كان وقع تلك الجملة قاسيا ولكن الجدة لطَّفت صوتها وهى تقول : لقد عرفتَ يد الآنسة سارازان ، اليس كذلك ؟ يد اوغستا أطول ، وهما جميلتان رغم طولهما .

همس جان مارك وقد نكس رأسه : نعم . اهديت هوغت الخاتم . اهديته الآنسة سارازان ، فقد انقطعت علاقتى باوغستا . كانت عينا جان مارك تحاولان اقناع سنفيل : ما كانت علاقتنا جادة كل الجد . علاقة اصدقاء ، الطفولة كما تعلم ...

سأله المفتش :

– هل كانت الآنسة سارازان تعلم ان « عين الهر » ارسلت لها اصلا ؟

– كلا .

تنحنحت الجدة متمتمة وقالت : بلى ، يا سيدى المفتش . فبعد أيام من ارسال الخاتم ، تلقينا تمنيات اوغستا التى ترسلها بمناسبة اعياد رأس السنة . لم تقل كلمة عن الهدية . وقد قلت لاميلى : « اكتبى اليها واسأليها » . لكن اميلى لم تشأ ان تفعل ذلك فكان ان كتبت اليها شاكرة لها تمنياتها مرسلة لها تهانينا ثم أضافت : « ارجو ان يكون الخاتم الذى اهداه جان مارك لك قد اعجبك » .

التفت جان مارك نحو جدته مذهولا . سأل المفتش سنفيل الذى ظل يراقب جان مارك : وماذا قالت الآنسة اوغستا ؟ قالت الجدة :

– لم تردَّ . ولكننا علمنا ما حدث بعد اسبوعين ، حين جاءتنا رسالة من جان مارك يعلن فيها انه خطب الآنسة سارازان . سأل سنفيل جان مارك :

– هل تعرف الفتاتان احداهما الاخرى ؟

– كلا . ليس بواسطتى على كل حال .

قال يوحنا بصوت راعش : سيدى المفتش ، ارجو الا تظن ان ابنى ...

رد سنفيل : لست اظن شيئا . انا اصغى وأدّون المعلومات . واصل سنفيل التحقيق مع جان مارك .

– متى رأيت الآنسة سارازان آخر مرة ؟

– يوم الاحد ... امس ... حوالى الساعة الرابعة . كان كل شيء على ما يرام ، كان كل شيء على ما يرام .

– أين رأيتها ؟

– بمـنزلـها .

– اتعنى منزل والدها ؟

عاد جان مارك رأسه للوراء وتوترت عضلاته ، شأن من اصابته نوبة صداع . صاح يوحنا : يجب استدعاء الطبيب ! قال سنفيل وهو يهب واقفا : كلا ، قليل من الهواء سيعيد اليه الادراك . قالت الجدة بلهجة حادة :

– هل تنوى اجبار هذا الفتى المسكين على الذهاب معك إلى مركز الشرطة يا سيدى المفتش ؟

– لست انوى ارغامه ، اننى ارجو ان يفعل ذلك فهو شاهد رئيسى ، اننى افهم حاله واضطرابه ، فهذا امر طبيعى فى مث هذا الحال ! ومن سوء الحظ انه مصاب بالبرد ايضا . اظنه اول من يرغب فى ان نبين الأمور وتتضح رغم كل شيء . اظن باريس اجابت على رسالتنا . علينا مناقشة المعلومات معه ، الا إذا كان القاتل قد ...

حركّ المفتش سنفيل يديه وكأنه يرسم صليبا على الهواء . لم تكون ثمة علاقة بين اشاراته تلك وبين افكاره فى تلك اللحظة . قالت الجدة متمّمة حديث المفتش : قد مزّق الجثة ليسهل له الخلاص منها .

صرخت اميلى : اسكتى يا أمى ، اسكتى !

قعد يوحنا قرب جان مارك وامسك يد ابنه . كان الابن قد استرخى وبدا انه لم يسمع شيئا مما قيل . اجابت الجدة : انها ليست غلطتى . المفتش هو المسئول عن ذلك . اشاراته خليقة بتهدئة روع اقرباء الضحايا ! وحاكت الجدة الصليب الذى رسمه المفتش .

إنفجر غضب سنفيل وقال : لا تسيىء استغلال كبر سنك وشعرك الأشيب يا سيدتى ؛ لم يبد عليك التأثر لما حدث !

استعاد المفتش هدوءه وقال لجان مارك : سنذهب إلى المركز متى ما شئت . قال والد الفتى راجيا المفتش :

– أود ان ارافقكم يا سيدى المفتش ، فاكون فى صحبة ابنى حين يعود إلى المنزل .

- حسنا ، بالسيارة مقعد خال .

قالت الجدة : وانا أيضا . اجابها المفتش دون ان ينظر اليها : بالسيارة مقعد واحد خال لا مقعدين .

أخذت اميلى تبكى وهى تضم جان مارك بحرقة : آه ، يا حبيبى ، خذ الشال معك وغط نفسك جيدا .

٤

شــــارع فــوبــان

– ١ –

أثار ذهاب سيارة الشرطة عن منزل آل بيرجيه وإيابها إليه فضول المارة على قارعة الطريق ، بينما أخذ سكان بعض المنازل المجاورة يسترقون النظر من وراء ستائر نوافذ منازلهم . جلس المفتش سنفيل قرب جان مارك بينما جلس يوحنا قرب السائق . وحين تحركت السيارة ظهر ليونارد على عتبة متجر بيشون لمنتجات الألبان وأشار بيده لمن فى السيارة .

قال سنفيل : أخوك يتلكأ فى الرجوع إلى المنزل . التفت إليه يوحنا وقال مدافعاً عن توأمة : لعله انتظر حتى يكلم شخصاً مسئولا بالشركة فمثل هذه الأمور لا يسرّ بها لكل من هبَّ ودبَّ . قال المفتش : أنت مصيب فيما قلت .

عبرت السيارة نهر الرون بسرعة جنونية ، وحين بلغت منطقة « جروكايو » الحديثة الاخضرار ، أخذ المفتش تيفنيه يتأمل منظر أسطح المنازل الكثيرة ولمحات خاطفة من مياه نهر الرون المتلألئة . أمّا يوحنا فقد صرف اهتمامه إلى معالم الطريق ، شأنه فى ذلك شأن سائق السيارة ، بينما اسلم جان مارك جسده الطويل إلى اهتزاز السيارة بفعل الطريق أو حين يبطىء السائق سيرها فجأة . هبطت السيارة مرتفع سان سباستيان ومرت بمرتفع كراوباكيه بحدائقه المعلّقة ، ثم بلغت شارع جريفون .

قال يوحنا للسائق بصوت مرتجف :

– ذاك شارع تراى ، حيث يعمل أخى وأنا منذ ثلاثين عاماً ، بمحلات سان بوليكارب للمنسوجات والحرير . ثلاثون عاماً !

لم يحفل السائق بما قال يوحنا . أطلق بوق إنذار السيارة وسلك شارع بويجايو دون أن يبطىء رغم كثرة السيارات . كانت الشمس علو جسر موران ويبهر ضوؤها انظارهم . بعد ثلاث دقائق يبلغون شارع فوبان ، المقر الاقليمى للشرطة القضائية ، حيث يتلهف المفتش تيفنيه مدير الشرطة الجنائية للقائهم .

– ٢ –

عقب اتصال مركز شرطة كراوروس بشارع فوبان ، اتصل مركز الشرطة برئاسة الشرطة فى

باريس سائلاً إن كانت الشرطة الباريسية قد عثرت على جثة امرأة بترت يدها اليسرى . أجابت الشرطة الباريسية بالنفى .

احضر دولورم الحقيبة التى سميت « الحقيبة الدامية » وارسلها فوراً إلى المعمل الجنائى ومعها عنوان الآنسة سارازان .

فى هذه المرة اتصل مفوض الشرطة تيفنيه بزميله الباريسى المتفش بيكار واطلعه على كل ما لديه من معلومات . قال المفتش بيكار لزميله تيفنيه بعد ان حاول عبثا الاتصال بالرقم مايبو ٤٦ – ١٧٩ : لعلَّ المنزل خال من السكان . سأتصل بك حالما نجد شيئا . رد عليه المفتش تيفنيه : ربما اتصلت بك قبل ذلك . انتظر منى مكالمة بين دقيقة وأخرى .

ولو ان البندول الرخامى الذى ينفرد بتزيين المنزل كان يعلن انقضاء الدقائق لأعلن انقضاء تلك الدقيقة . طرق الباب فقال المفوض تيفنيه : ادخل . دخل سنفيل وحده : اتى الخطيب وابوه يا سيدى . قال تيفنيه :

– لا بد ان الشرطة الباريسية بمنزل الآنسة سارازان الآن .
– ماذا حدث ؟
– انها قصة سمجة . ثم لخَّص المسألة . قال تيفنيه :
– حسنا . دعه يدخل .
– الابن والاب معا ؟
– كلا . الابن فقط .

فتح سنفيل الباب واطلَّ برأسه . نهض تيفنيه . وخطا إلى الامام . وظهر جان مارك وقد جحظت عيناه . اغلق سنفيل الباب واشار تيفنيه على جان مارك بالجلوس وعرفه بنفسه : المفوض تيفنيه ، مدير الشرطة الجنائية . يؤسفنى الزامك بالحضور يا سيد بيرجيه . اننى اقدر حالك .

جاهد جان مارك نفسه وقال بصوت خفيض : نعم يا سيدى ، انه امر فظيع .

عاد تيفنيه إلى مجلسه خلف المكتب الواسع واشار على منفيل بالجلوس واخذ ينظر إلى جان مارك : لندع الحديث عن الطريقة الغريبة التى وصلت بها الحقيبة اليك ولنتحدث فيما هو أهمّ . أمتأكد انت ان اليد التى رأيتها هى يد خطيبتك الآنسة سارازان وبها الخاتم الذى اهديته لها ؟

– نعم يا سيدى .
– سنتصل بمنزلها . لم نتلقى رداً حين اتصلت قبل مجيئك .

أخذ جان مارك يتنفس تنفساً عميقا حتى سمع صوت تنفسه .

– طبيعى الا ترد الآنسة سارازان على التلفون ان كان قد اصابها سوء ، ولكن لِمَ لم يرد احد من افراد اسرتها أو من أصدقائها ، ولِمَ لم تبلغ الشرطة بالحادث منذ مساء الامس أو قبل ذلك ؟ لابد ان

تكون الجريمة قد وقعت منذ وقت طويل قبل لقائك بالامريكى الذى ترك لك الحقيبة . اليس كذلك ؟

– تسكن الآنسة سارازان ... اعنى كانت تسكن بمفردها يا سيدى ... مع خادمتها ... وهى لا تكون بالمنزل أيام الاحد .

– بمفردها ! أتسكن وحدها ؟

ادخل جان مارك طرف إبهامه بين فكيه ورفع مرفقه وقال : تسكن بمفردها لانها ... ثم استطرد وهو يخرج إبهامه من فمه : لم تكن فتاة إذا توخينا الدقة ... كان عمرها خمسة وثلاثين عاماً تقريبا ، أو ستا وثلاثين .

رفع سنفيل حاجبيه دون ان يحوّل نظره عن الورقة التى كان يدوّن عليها البيانات .

قال تيفنيه : وانـت ؟

– انا ... ابلغ من العمر ...

– ارى فى الورقة التى امامى ان عمرك لم يجاوز الثالثة والعشرين . حسنا ... يا سنفيل ، هلّا طلبت الاتصال بمايبو باسرع ما يمكن . ارفع السماعة عندما تبدأ المكالمة ودوّن البيانات .

عمّ الصمت المكتب ، بينما كان سنفيل يجرى الاتصال التلفونى . ظل تيفنيه ينظر إلى جان مارك وقد ارخى كتفيه وكأنه يريد ان يختفى من الوجود . قالت عاملة التلفون بصوت عال : تم الاتصال بمايبو ٤٦ – ٧٩ .

ناول سنفيل المفوض تيفنيه السماعة . جاء من بعيد صوت رجل أجش : الو . سألت عاملة التليفون البارسية : مايبو ٤٦ – ٧٩ ؟ حوّل صوت الرجل السؤال إلى شخص قريب منه . هل رقم التلفون هنا مايبو ٤٦ – ٧٩ ؟ ثم أجاب : نعم ، مايبو ٤٦ – ٧٩ .

قالت عاملة التلفون : ليون على الخط . سأل تيفنيه : أهذا منزل الآنسة هوغت سارازان ؟

– من السائل ؟

– المفوض تيفنيه من الشرطة القضائية بليون .

سرعا ما تغيرت نبرة صوت المتكلم : عفوا سيدى المفوض ، انا الضابط بلوندل . سأوصلك حالا بكبير المفتشين بيلو . هتف تيفنيه بحبور : أيتولى بيلو هذه القضية ؟

بدا على سنفيل ذات السرور لكون بيلو مسئول عن القضية . ربط جان مارك عنقه وكأنه يريد أن يسأل « ومن يكون بيلو ؟ » .

– صباح الخير يا عزيزى بيلو . أنا تيفنيه . لشدّ ما سررت بمحادثتك . جاء صوت بيلو كبير المفتشين : يسعدنى التحدث اليك ايضا . الضحية هى الآنسة سارازان وهى تملك هذا المنزل الواقع عند الرقم ٩ مكرر شارع لافيرم بنوييى . المشهد فظيع ، لاسيما وان يد الضحية قد بترت .

– فى المخدع ؟

– لا ، على الأريكة فى قاعة من قاعتى الاستقبال . كانت تلبس قميص نوم وروب دى شامبر . كانت محتشمة .

– متى وقع ذلك؟

– يرى الدكتور بونتت الذى جاء بعدنا أن الجريمة وقعت بين الثالثة والثامنة مساءً . وان القاتل بتر اليد بعد ذلك ؟

– ارجو أن يكون الأمر كذلك . ولكن لِمَ لم يبلغكم أحد قبلنا بوقوع الجريمة ؟

– تسكن الآنسة سارازان المجنى عليها مع خادمتها . كانت الخادمة تجهل ما وقع حين وصلنا المنزل ، فتحت لنا الباب فى هدوء ودهشت حين علمت اننا من الشرطة . قالت انها خرجت من المنزل صباحا كعادتها أيام الاحد وعادت إلى البيت من السينما كعادتها أيام الاحد ، وصعدت إلى غرفتها على أطراف اصابعها حتى لا توقظ سيدتها كعادتها أيام الاحد . كانت تنتظر قبل وصولنا رنين جرس الصباح لتحمل طعام الافطار لسيدتها . قال تيفنيه :

– بالمناسبة ، عندما اتصلت بكم قبل قليل طالباً الاتصال بماييو ٤٦ – ٧٩ ، لم يرد على التلفون .

– كانت الآنسة سارازان تفصل التلفون حتى تنام فى هدوء . اثار فضولى ان الخادمة لم تدخل لا قاعة الاستقبال ولا اية حجرة من حجرات الدور الارضى . كان بوسعها رؤية الضحية من قاعة الطعام أو قاعة الاستقبال الثانية ، لكنها تزعم ان سيدتها كانت تمنعها من تنظيف المنزل قبل ان تستيقظ من نومها ، ولا تسمح لها بفتح مصاريع النوافذ . لعلها كانت تأمرها بذلك .

التفت تيفنيه جهة جان مارك وهو يقلّب البيانات التى سجلها سنفيل من حديث كبير المفتشين بيلو ، وقال لمحدثه وهو يرمق الفتى بنظرة حادة :

– اسمع يا بيلو ، إسأل الخادمة متى رأت خطيب الآنسة سارازان آخر مرة ؟

– لحظة واحدة .

ظل جان مارك يميل بجسمه إلى الامام وقال : اسمح لى يا سيدى ... لكن تيفنيه انصرف عنه إلى التلفون : ألو . ماذا ؟

– انها لا تعرف للآنسة خطيبا .

ردَّد تيفنيه الجملة وهو يضغط على الكلمات :

– لا تعرف للآنسة سارازان خطيباً .

تغيَّرت لهجة جان مارك فجأة وقال معترضا : انها جيزيل الخادمة ، إسألها إن كانت لا تعرف السيد جان مارك بيرجيه .

حوَّل تيفنيه السؤال لمحدثه ذاكرا اسم الخادمة . وفى نوبى جرت مشاورات قصيرة . قال بيلو : اسمها جيزيل فعلا . وهى تعرف السيد جان مارك بيرجيه حق المعرفة ، فهو « صديق » للآنسة سارازان . ردّد تيفنيه :

– « صديقها » ... هزَّ جان مارك كتفيه . قال تيفنيه :

– عزيزى بيلو . اظننا سنلتقى قريبا للتحرى فى هذه القضية .
– اظن ذلك يا سيادة المفوض .

– ٣ –

وبعد انتهاء المكالمة التفت تيفنيه إلى جان مارك وقد بدت الطيبة على ملامح وجهه . انخدع جان مارك بذلك وقال تيفنيه :
– هل كنت تريد ان تقول شيئا قبل قليل ؟
– كنت اريد أن انبهك يا سيدى ، فالآنسة جيزيل فتاة بلهاء ولم تكن الآنسة سارازان تثق فيها . ان ندرة الخادمات هذه الايام تجبر المرء على الرضا بأية خادمة . لم يكن ثمة ما يدعونا إلى اطلاعها على نوايانا وما كانت الآنسة سارازان بحاجة أن تبوح باسرارها لمثلها . كانت الآنسة سارازان مرموقة فى الوسط الذى تعيش فيه . كانت علاقاتها واسعة . كنا متحابين ومخطوبين . اقسم بحياة اختى الصغيرة . جئت اخبر اهلى بعزمنا على الزواج واستشيرهم فى الأمر . ما كان فرق السن عقبة فى طريقنا ! كانت الآنسة سارازان شابة الوجه ، ذكية وتعشق الفن وتحب الرسم وكنت طالبا فى كلية الفنون الجميلة . قصدت باريس لذلك الغرض . لقيتها فى حفل أقامته الكلية .. رقصنا معا ، وتعدّد لقاؤنا بعد ذلك ...

اضاف تيفنيه بلهجة حانية : ولم تنتظر حتى يتم زواجكما لكى ... ؟ قال تيفنيه ذلك وهو يقرّب أصابع يده من اليد الاخرى حتى تكاد تتلامس . أقرّ جان مارك بحركة من كتفيه أنهما لم ينتظرا الزواج لكى ... بدا وكأن استنكار المفوض نفخ فيه روحا جديدة . ظهر الغضب على تيفنيه . لم يكن غضبه شديدا ، كان أشبه بغضب مدير المدرسة حين يوبخ تلميذا لضعف درجاته ، غضب لمصلحة التلميذ بلا ريب .
– ألا ترى معى ان لكل مقام مقال ؟ انك تتحدث عن الحب وعن اللقاء وبين ايدينا جثة امرأة بترت يدها . صاح جان مارك وقد أوشك ان يفقد وعيه :
– كلا ، كلا ، نعم .
– الا تعلم ان الامر خطير ومأساوى بالنسبة لك ليس المهم فى الامر ان شابا فى الثالثة والعشرين احب امرأة فى الخامسة أو السادسة والثلاثين ، فانتما راشدان مسئولان عن اعمالكما . خاصة هى . ولكن كيف تجرؤ على الحديث عن مشاريعكما وقد فارقت هى الحياة ولا تستطيع ان تكذب ما تقوله ؟ ما الدليل انك صادق القول ؟
قال سنفيل : لقد ارسل صورة الآنسة سارازان إلى أهله قبل أعياد رأس السنة . والصورة ضمن هذه الأوراق يا سيدى .

أضاف جان مارك وهو يرتجف وقد غلبته نفسه : الصورة ليست قديمة ، تأملها وستدرك كم

جميله . تأمل تيفنيه الصورة ولم يقل شيئا بشأنها .
– ليس هذا دليلا على عزمكما الزواج .
– اقسم لك « انها » كانت راغبة فى الزواج يا سيدى .
– « هى » التى كانت راغبة فيه ، « هى » أليس كذلك ؟
– وأنا كذلك ، أنا كذلك .
– أواثق انك لم تسع للافادة من سخاء الآنسة سارازان وهى امرأة تكبرك باثنتى عشرة سنة وتملك مسكنا ؟
– اقسم اننى لم انل منها مليما واحداً . ولك ان تسأل عن الحياة التى كنت أحياها بباريس . يمكنك الحصول على ما تريد من معلومات فى فندق مارسيليا بشارع بونابرت من السيد والسيدة بيدا صاحبى الفندق .
– تأكد اننا فاعلين ذلك . لِمَ كذبت على اهلك وزعمت خطبتك « فتاة شابة » ؟ لِمَ أخفيت عنهم عنوانها ؟
– لم اتعمد إخفاء العنوان عنهم . لقد نسيت ان اكتبه لهم ، وهم لم يطلبوا منى عنوانها ! أما حديثى عن « فتاة شابة » فقد كان كذبا كما تقول ولكنها الكذبة الوحيدة . كان أهلى يظنون ان علاقة تربطنى بصديقة من صديقات الطفولة .
قال سنفيل : الآنسة اوغستا شنلونج ، ابنة جواهرى ميدان سليستيان . أومأ تيفنيه برأسه موافقا ، واستطرد جان مارك يقول :
– أردت أن اتفادى العقبات ، فقلت ان الآنسة سارازان « شابة » واتيت الآن لوضع الأمور فى نصابها مع اهلى . أكيد اننى لم اتخذ افضل الوسائل . كانت جدتى ... ابدى سنفيل استياءه عند ذكر الجدة فالتفت اليه تيفنيه وهو يسأل جان مارك :
– أكنت تخشى الجدة أكثر من الآخرين ؟
قال جان مارك : نعـم . وخفت صوته وقد ارهقه الأرق والحزن والخوف ثم قال : اننى متعب ، متعب جداً . رأسى تحترق . أريد أن اعود إلى المنزل وانام يا سيادة المفوض .
رد تيفنيه :
– آسف . لم تنته القضية بعد . ستطلب باريس منا كافة المعلومات عن وصول الحقيبة الغريبة اليك .
– لقد ذكرت كل شىء يا سيدى المفوض .
– ما رأيك يا سنفيل ؟
أجاب المفتش وهو يقول لجان مارك فى شىء من الغلظة : كلا ، لم تقل كل شىء . قلت انك لاحظت ابدال الحقيبة فى محطة ليون بباريس وقد كاد القطار يفوتك . (وافق جان مارك على ذلك) . اتريدنا ان نصدق ان الامريكى الذى تتحدث عنه رتَّب كل شىء ترتيبا محكما ؟
– الامر كذلك يا سيدى المفتش . لقد زعم ان عطبا اصاب السيارة . وأطال اصلاحه كما يحلو به فى

ذلك الرصيف الذى نسيت اسمه . اعنى الرصيف بعد نوتردام قبل الجسر المؤدى إلى الباستيل .

سأل سنفيل : ألم يركما أحد ؟ كان سنفيل قد استمع بلا تعليق حين قص جان مارك القصة فى منزل والده بشارع ديمون . ألم يركما أحد المارة وانتما تصلحان السيارة ؟

— هو الذى كان يصلح السيارة ، بينما أمسكت مصباحا ضخما كنت أضىء به محرك السيارة ! مرّت سيارات ولكنها كانت مسرعة . لم تقف سيارة واحدة منها ، فقد كان المطر يهطل مدرارا . ربما لحظ بعضهم ما حدث . كنا فى ذلك الشارع بين العاشرة والنصف والحادية عشر والربع . قد يؤكد احدهم ما أقول ان نشرتم الخبر فى الصحف .

لم يعلق رجلا الشرطة على قول جان مارك . أستأنف سنفيل حديثه قائلاً :

— وأمام فندق مارسيليا ، ألم يركما أحد حين عرض الامريكى مساعدتك ؟

— لو حدث ذلك قبل دقيقتين فقط لشهد به السيد بيدا صاحب الفندق ، فقد كان يقف معى ، ثم رجع إلى الفندق لينام . طلبت منه ان يرجع إلى الفندق لسوء الطقس . لا ريب ان المجرم كان يرقبنا من مكمنه فى نهاية الطريق . لا اعرف لنفسى اعداء قبل ذلك ولم أوذ احداً فى حياتى . يشهد بذلك كل من عرفت . ورغم ذلك هناك من يريد الانتقام منى !

قال تيفنيه : عادة لا ينتقم الناس الا ممن اساءوا اليهم . لابد انك تعرف الامريكى وتنكر ذلك .

— اقسم اننى لا اعرفه . لم اره من قبل . انه حاسد لا ريب . أشعر بصداع حاد . دعونى انام . ارجوكم .

— يكفى خلود الضحية للراحة يا سيد بيرجيه . قصتك غير مقنعة .

— صاح جان مارك : انها عين الحقيقة !

— رد تيفنيه بهدوء مخيف : انها باطلة .

— ٥ —

دخل يوحنا مقهى صغيرا فى شارع فوبان . ولفظ فوبان مكتوب بالاحرف الكبيرة يعنى ايضا مركز الشرطة القضائية الاقليمى . كانت تلك اول مرة يدخل فيها مقهى صباح يوم من أيام العمل منذ ان كان عاملا بسيطا فى محلات سان بوليكارب للمنسوجات والحرير . كان يوحنا قد خرج وحيدا من مركز الشرطة القضائية ، إذا جاز ان يكون الانسان وحيدا حين يلازمه كابوس أبطاله ذلك العدد من الاشخاص . كان يوحنا قد فارق ابنه جان مارك .

لم تكتف الشرطة بحبس ابنه الوحيد وأكبر اطفاله الذى سيحمل اسم أبيه بدعوى انه شاهد رئيسى فى القضية . تساءل يوحنا كيف يكون جان مارك شاهدا رئيسيا وقد اكتشفت العائلة مجتمعة ما بداخل الحقيبة ! لقد فضضتُ بنفسى المنشقة التى لُفت بها اليد المبتورة . لماذا لم تكتف الشرطة

بحبس ابنه ، بل منعت اباه ان يراه ! كيف يمنع اب عن رؤية ابنه ! هل يعقل ذلك ! أوشك يوحنا ان يعبر عمّا يجول بخاطره بصوت مسموع ويبدو ان كلمة أفلتت من لسانه . اتراها كلمة « منع » ؟ لقد التفت اليه الساقى فاغرا فاه دهشة .

عبثا حاول يوحنا ان يؤذَن له برؤية ابنه . ولحسن حظه أو سوئه تناهى إلى سمعه وهو ينزل الدرج صوت شرطى يقول لصاحبه : « سيكون بزنزانة الحراسة نزيل جديد قبض عليه قبل قليل . انها قضية مفزعة » .

ليس هناك أكثر من قضية مفزعة يُكشف عنها فى آن واحد فى عين المكان والزمان . ويوحنا يعرف زنزانة الحراسة انها اشبه بقفص حيوان مفترس . وهى تقع فى ركن من أركان مخفر الشرطة . سيحبس جان مارك فى ذلك القفص شأنه شأن معتوه أو حيوان غريب . كانت الصدمة أقوى من أن يزيل أثرها شيء عادى . لذلك فعل يوحنا ما أقوى من الصدمة : دخل صباح يوم من أيام العمل مقهى ! رغم أن امساكه بكأس الكونياك لم يقلّل من وقار مظهره وملبسه – كان يلبس قفازين رماديين وسترة وقبعة سوداوين – ورغم انه لم يرفع الكأس إلى فمه إلا مرة واحدة منذ ان دخل المقهى قبل عشرة دقائق إلا انه ادرك ان الصدمة الثانية لم تضعف أثر الاولى ، بل اجتمعت الصدمتان وكبرتا حتى اصبحتا كارثة لا توصف : كبير صيارفة محلات سان بوليكارب للمنسوجات والحرير يقف أمام طاولة مقهى صباح يوم اثنين فى الساعة العاشرة وتحبس الشرطة ابنه فى ذات الوقت ، بل تتهمه وتقبض عليه ، ثم هناك اليد المبتورة والحقيبة والخاتم . ماذا وجد رجال الشرطة ؟ عبثاً سألهم يوحنا . لقد حجبت الشرطة عنه كل المعلومات رغم انه والد المتهم !

وغداً يعرف عشرات الالوف من أهل ليون وملايين الفرنسيين النبأ وهم يطالعون صحف الصباح ! وعليه هو أو ليونارد شراء الصحف لمعرفة النبأ مثل بقية الناس ، ثم عليه قبل ذلك الرجوع إلى المنزل ومواجهة دموع اميلى واحتقار الجدة . ما العمل حتى لا تخدش هذه القضية سمعة الصغيرة مارى لويز ؟

لن يخفّف حزنه أحد ، ولا حتى ليونارد . فرغم انهما توأمان إلا أنه قلّما يتفق مزاجهما ، انهما لم يولدا من بويضة واحدة . اخذ يوحنا يفكر فى عدل ورحمة الله وهو مدرك لما فى أفكاره من زندقة : « أيجوز أن تنهار فى لحظة واحدة حياة بأكملها حافلة بالعمل وبالنزاهة » .
طغى الحزن على يوحنا فوضع كأسه وسأل : كم ثمن الكأس ؟ دفع الثمن وخرج دون ان يفرغ الكأس – أذهل فعله رواد المقهى فصرفوا انظارهم اليه وهو يخرج . غمغم الساقى وهو يلتقط النقود : انه ثانى شخص يعود من « البناية » الواقعة عند طرف الشارع .

⑤

الـــوان محليـــة

– ١ –

فى باريس أو على الاصح فى حى نيبى وضع المفتش بيلو لتوه سماعة الهاتف بعد مكالمته المهمة مع زميله تيفنيه . ولكى يحتفظ فى ذاكرته بالمعلومات التى تلقاها منه ، لم ينظر إلى جيزيل الواقفة امامه . كان الهاتف الابيض الذى استعمله موضوعا على منضدة بقائمة واحدة قديمة مثل بقية الاثاث ، وثمينة دون أدنى ريب . جلس بيلو على مقعد وثير وسط قاعة الاستقبال الثانية ، وكانت جثة القتيلة على مقعد آخر مماثل بالقاعة الاولى ، حيث انهمك رجال كشف الهوية يرفعون البصمات . أخذ المفتش ينظر إلى الجدران . كانت القاعة ملأى بلوحات فان غوغ . لم يكن هنالك غير لوحات فان غوغ . قد يكون الانسان جاهلاً فى مجال الرسم ولكن فان غوغ اسم خاص . كان المفتش قد رأى له لوحة مقلّدة فى مخدع الفيكونت دولاكيب بالمنازل الريفية فى لكيبر . وخلف اللوحة توارت بمهارة فائقة خزانة صغيرة اعدت للعملاء . ان لوحات فان غوغ الاصلية لا تحتاج إلى أن توضع خلفها خزانة ملأى بالاذونات وأوراق النقد أو المجوهرات ، اشارة إلى قيمتها ، فكل لوحة منها تعادل ثروة كاملة ولا احد غير الخبراء فى هذا الميدان يستطيع تحديد هذه الثروة . ولكن الاطار ، وهذه الكلمة تناسب الظرف تماما ، يوحى بقيمة اللوحات . امّا المنزل فكان تحفة معمارية ، فقد بنى من الحجارة الطبيعية وارتفعت اعمدته حتى السقف . كان المنزل من طراز قصر تريانون ، واهل نيبى مغرمون بهذا الطراز . كان المنزل افسح مما يبدو للناظر اليه من الخارج . وغطت ارضية البهو مربعات سوداء وبيضاء من الرخام ، اما قاعة الاستقبال فقد فرش فيها سجاد سميك من نفس الالوان . أتستطيع خادمة واحدة العناية بمثل هذا المنزل ؟

التفت بيلو إلى جيزيل واسمها اسم رقصة من رقصات الباليه لم يحظ المفتش برؤيتها ولكنه سجل الاسم فى ذاكرته . كانت تلك عادته كلما رأى اعلانا أو قرأ شيئا . ولهذا السبب كان بيلو يعتبر من رجال الشرطة المثقفين . أما الخادمة جيزيل فلم تكن تشبه راقصات الباليه ، فقد كانت غليظة الجسم قروية المظهر رغم أنها تعنى بيديها وتطلى اظافر اصابعها . « اسم احد الباليهات » ، قال المفتش يحدث نفسه وقد خطرت بباله فكرة : « خيالى غاية فى النشاط منذ فترة ! » .

كان ذلك صحيحا ، فقد كان فرحا منذ الصباح . لقد قبل اخيرا أن يعاونه سيمون ريفيير ابنه بالمعمودية والذى توفى والده اثناء تأدية واجبه . كان لبيلو صديقان حميمان هما والد سيمون وكبير

المفتشين بيكار . التحق سيمون بالفرقة قبل عام وظل يتحرق شوقا للعمل معه . ولم يكن ذلك ممكنا الا إذا توفر شرطان أولهما ان يتمكنا من العمل معا ، وثانيهما ان تكون القضية غريبة بعض الشيء كهذه القضية .

فى تلك اللحظة انهمك سيمون يفتش طوابق المنزل ، بينما مضى بلوندل إلى الحديقة . أما بيلو فقد أخذ يتأمل جيزيل التى كانت تنظر اليه بثبات دون ان يرمش لها طرف :

– تفضلى بالجلوس يا آنسة جيزيل . جلست المرأة على طرف احد المقاعد .

– بامكان سيادة المفتش أن يدعونى باسمى فقط بعد الذى حدث ... فرد بيلو : وأنا كذلك أرجو الا تخاطبينى بضمير الغائب .

– حسنا يا سيدى المفتش . ثم اردفت وهى تنظر إلى يديها وقد مدَّتها فوق فخذيها : ما كنت اظن أن مقتل مخدمتى سيحزننى بهذه الدرجة .

– لعلها الطريقة التى قُتلت بها مخدمتك .

قالت جيزيل وهى تؤكّد قول المفتش : معك حق .

– هل تعلمين هنا منذ وقت طويل ؟

– لا ، منذ ثلاثة أو أربع اسابيع فقط .

– فقط ؟

– نعم يا سيدى المفتش ، لم اكن أنوى البقاء طويلا .

– عجبا ، ولم ذلك .

– لقد اخبرنى مكتب العمل ان فترة الخدمة ستكون قصيرة .

– اى مكتب ؟

– مكتب « لوبليك » فى شارع التيرن .

– اعرفه ، فهو مكتب محترم .

– شـــكراً .

– وماذا قالوا لك فى المكتب ؟

– لا تأملى البقاء زمنا طويلا فى خدمة الآنسة سارازان . اقصى ما يمكن أن تعلمين به شهران ، فالآنسة سارازان امرأة متقلبة المزاج. اننى آسفة لقول ذلك والآنسة قتيلة بقاعة الاستقبال ، ولكننى اعيد ما قيل لى ، بل لقد قالوا أكثر من ذلك ، قالوا : « إنها مغرمة بتغيير خادماتها » .

– وقبلت العمل معها رغم ذلك ؟

قالت جيزيل بخضوع لم يكن يناسب هيئتها ، فبدت وكأنها تخادع : لا خيار للمرء حين يكون عاطلا . لقد قلّل من كنت اعمل معهم عدد الخادمات واكتفوا بخادمة واحدة . اخرج بيلو مفكرة وقلما . وقال : ما اسم من كنت تعملين عندهم قبل الآنسة سارازان ؟

– بالطبع خدمتُهم خمس سنوات ونصف وكتبوا لى من نهايتها شهادة تقريظ . السيد والسيدة

لوكور ، ٣١ شارع فرندى .
– انه منزل الصيدلى !
قالت جيزيل بحماس : آأنت من سكان الحى ؟ مط بيلو شفتيه فى تواضع بالغ علامة على انه ليس من سكان الحى . واستطردت جيزيل تقول :
– اعترف ان الآنسة سارازان سخية جدا ، فأجر شهرين عندها يعادل ستة اشهر عند غيرها .
– وهل تبيّن لك تقلُّب مزاجها ؟
– أبدا . فقد كانت صريحة لا تخفى ما تريد ان تقول . وكانت مهذبة فى حديثها .
– هل كانت الآنسة مضيافة ؟
– لم تكن تستقبل احدا مطلقا فى أوقات الطعام ، هذا هو ما يهمنى كشغّالة . هذا فضلا عن احتفاظها بمفاتيح الادوار العلوية . فلم اكن اشرف انا عليها .
– باى غرفة تقيمين ؟
– فى الدور الاول ، فى غرفة انيقة لا تشبه غرف الخادمات .

التفت الاثنان معا إلى قاعة الاستقبال المجاورة حيث اخذت الاصوات الصادرة منها تتحول شيئا فشيئا . ومن الباب الداخلى الواسع (وهو ايضا من طراز تريانون)الذى اعد لمصراعين من الزجاج لم يركبا ، وقد ظهرت فى اقصى يمين الباب حافة مقعد طويل شرقى الطراز ، فى شكل قدم صغيرة داخل خف ، رأى بيلو وجيزيل رجال الهوية يتأهبون للانصراف . قال احدهم لبيلو :
– لقد انتهينا يا سيادة كبير المفتشين . يمكن الآن نقل الجثة .
– شكرا . اتصل بسيارة الاسعاف . ثم التفت نحو جيزيل قائلا : إبقِ هنا متى اعود .

أراد بيلو ان يرى الجثة للمرة الأخيرة فى ذلك الوضع الذى صوره المصورون مرات كثيرة . من يدرى فلعل النظرة تكشف عن شىء جديد . ولكن لا جديد فى الامر ... لا شىء ... لقد سقطت القتيلة على ظهرها بعد ان ضربها القاتل خلف رقبتها فجرحها جرحا طفيفا .

قال بونتت الطبيب المسئول ولكن علينا انتظار نتيجة تشريح الجثة : « لقد ماتت القتيلة فى الحال . لم يستعمل القاتل موسا بل آلة أخرى قاطعة ، قد تكون خنجراً أو قاطعة ورق » . لم يعثر بعد على هذه الآلة ، وقد لا يعثر عليها فاخفاء المدية اسهل من اخفاء الفأس . وبمناسبة ذكر الفؤوس :
– الا توجد بصمات على الفأس ؟ سأل بيلو دون ان يوجه سؤاله إلى احدهم .
– لو كانت بها بصمات لاخبرناك بذلك ، أجاب نورى ، اقدم رجال كشف الهوية والمسئول عنهم .
– ولا حتى بصمات جيزيل ؟ كانت الفأس ، أو الفُؤسِ ، على سبيل الدقة ، فى المطبخ . قالت جيزيل بانها كانت تقطع خشب الوقود .
– لا توجد بصمات على الفأس . انها نظيفة لامعة وكأنها فأس أحد رجال اطفاء الحرائق . إنَّه رسغ

رسغ امرأة جميلة دقيق وتكفى ضربة واحدة لقطعه .

كان مقدمة ذراع القتيلة حيث وقعت على الارض فى الوضع الذى ظلت راقدة عليه . كان بترها لا يستدعى قوة خارقة ، يكفى مجهود بسيط أو اعصاب ثابتة . وقد كان مشهد اليد المبتورة فظيعا . لم يستطيع الطبيب ان يحدد الزمن الذى انقضى بين الضربة التى تلقتها الضحية على عنقها وبتر اليد . هل بقى القاتل بالمنزل مع ضحيته ؟ ام أنه قد استهوته فى الطريق فكرة « الصديق » واليد والحقيبة فعاد ادراجه ؟ حقا ، لقد كانت الآنسة سارازان شديدة الحسن .

– انها احسن حالا فى هذه الصورة ، قال سيمون الذى تسلل خلف بيلو دون ان يشعر به . لقد عثرت على هذه الصورة فى مخدعها .

أخذت الصورة على شاطىء البحر وكانت تبرز روعة قوام الآنسة سارازان وقد لفه « مايوه » . وفى تلك اللحظة اقبل رجال الاسعاف فى ملابسهم البيضاء وهم يحملون النقالات . فقال بيلو : يمكنكم حمل الجثة . ثم التفت إلى سيمون وقال له : إحتفظ لى بهذه الصورة ، فسوف نحتاج لها فيما بعد . هل وجدتم شيئا بالادوار العلوية ؟

– لا ، لا اظن .

– إذن دعنى انهى ما انا بصدده والحق انت بلوندل ، فلعله تاه فى الحديقة .

– ٢ –

لم تغادر جيزيل كرسيها حتى عاد اليها بيلو . كان نقل الجثة قد تم عبر باب النافذة فى القاعة الاولى ، فظلت القاعة الثانية خالية الا من جيزيل . عاد بيلو إلى مكانه فى الكرسى الواسع . قال : كنا نتحدّث عن ضيوف الآنسة سارازان .

– نعم يا سيدى المفتش .

ظل صوتها رصينا . اهى قدرة بالغة فى السيطرة على النفس أم أنَّ لا شيء يدعوها للاضطراب ؟

– هل كان أحد من أفراد اسرتها يزورها ؟

– لا أحـد .

– هل كانت لها اسرة ؟

– لا ادرى .

– إذن من كان يزورها ؟

– كانت تستقبل بعض بائعى اللوحات .

– لوحات لفان غوغ ؟

– اوه ، وانت ايضا تعرف وَلَعها بفان غوغ ؟

– كما يعرف الجميع ذلك .

– كانت تملك لوحات لرسامين آخرين بجانب لوحان فان غوغ . كانت تقول أنها أعمال لرسامين انطباعيين . ولكنها كانت مغرمة بفان غوغ . كانت تقول لى بأن فان غوغ فى انحاء المعمورة يحسدونها على ما تملك من لوحاته .

– هل كانت تبيع بعضا منها ؟

استخفّت جيزيل السؤال فاجابت مبتسمة : كلا ، بكل تأكيد ، فهى تشترى المزيد منها . وقد اشترت اللوحتين اللتين تراهما فى نهاية القاعة فى فترة خدمتى معها .

– هل كان للآنسة أصدقاء ؟

آثار هذا السؤال غضب جيزيل : « أصدقاء » ، يا سيدى المفتش ؟ لم يكن لها غير صديق واحد !

– سألتك عن اصدقائها وليس عن عشّاقها .

– آه حسنا ، ارجو المعذرة ، فقد حسبتك تتحدث عن عشّاقها . لم يكن لها اصدقاء من الرجال فيما أعلم . كان لها صديقات تدعوهن لشرب الشاى . ولكننى لا اعلم ما يجرى بالمنزل فى الامسيات ، فقد كنت ألزم حجرتى عند الساعة العاشرة . قالت لى الآنسة سارازان من قبل : أرجو الا تهتمّى بجرس الباب بعد الساعة العاشرة ، فانى سأفتح الباب بنفسى إذا كنت على موعد مع الزائر ، وإلا فلن أفتح الباب لأحد . وانت تعلم ، سيدى المفتش ، أن حى نوييى قليل السكان .

– وهل حدث ان سمعت جرس الباب من غرفتك ؟

– مـــرة واحـــدة .

– هل فتحت الآنسة سارازان الباب ؟

– خُيِّل إلىّ أنى سمعت صوت البوابة تُفتح . فبامكان الآنسة ان تفتح الباب من مكانها فى البهو بالضغط على أحد الازرار دون ان تضطر للخروج .

– وهل رأيت من زارها ؟ أكان رجلا أم امرأة ؟

– كان علىّ ان انهض حتى اتمكن من رؤية القادم . لقد كنت مستلقية على فراشى . ظننت انه صديق الآنسة سارازان .

– حسنا . قالها بيلو وهو يضع ساقا على ساق . فلنتحدث عن صديقها جان مارك بيرجيه . مطّت جيزيل شفتيها كما فعلت اثناء المكالمة التى تلقاها بيلو من ليون . علّق بيلو قائلا : يبدو انه لا يروق لك ؟ قالت جيزيل حذرة :

– لا ينبغى الحديث عن الاعجاب أو عدمه فى هذا الأمر . فلم يكن جان مارك يخصّنى فى شىء .

– أكان يزور الآنسة كثيراً ؟

– نعـــم .

– هل كانت الآنسة سارازان تهتمّ به ؟

– ماذا تعنى ؟

– هل كانت تحبّه كثيراً ؟

– اظن ذلك ، فما كانت الآنسة تسرّ الآخرين بشئونها الخاصة .
– كم يبلغ من العمر ؟ . كانت جيزيل تجهل عمر جان مارك ولكنها قالت : ان لم يكن فى الثانية والعشرين من عمره فهو دون شك لم يتجاوز الخامسة والعشرين .
– اطلق بيلو صيحة تعجُّب وقال : أهو يافع إلى هذا الحد ؟ لقد كانت الآنسة سارازان فى الخامسة والثلاثين ، اليس كذلك ؟
– ستا وثلاثون سنه ، بل قاربت سن السابعة والثلاثين . الحب غير مستحيل فى مثل هذه السن .
– كم عمرك يا جيزيل ؟ . نظرت جيزيل إلى المفتش فى عينيه وقالت : خمسة وثلاثون . ولكنى أؤكد أن ذلك لم يحدث لى .
– اننى لم أسألك عن هذا ؟

حوَّلت جيزيل عينيها وقالت مغضبة : كلا ، ولكن لا تحسبنى غبية إلى هذا الحد .
– إهدئى يا آنسة ، رد بيلو بنبرة تأرجحت بين اللطف والوعيد . أكان جان مارك ودودا ؟
– لم يكن سخيّا كما يفعل بعض الناس مع الخادمات ، وليس ثمة ما يدفعه إلى السخاء ، ولكنه كان مهذبا .
– هل كانا يخرجان سويّا ؟
– ليس فى الصباح ، فقد كانت الآنسة تخرج بمفردها . لكن ليس لجان مارك سيارة ، واظنها كانت تذهب للقائه بسيارتها الصغيرة .
– حسنا . لقد ذكرت قبل قليل انك ظننت ان جان مارك كان الزائر الليلى حينما سمعت صوت الباب يفتح . ألم يكن لديه مفتاح الباب ؟
– كلا يا سيدى . لا هو ولا سواه .
– من الشخص الذى يمكن ان يكون معه مفتاح ؟
– هذا اول منزل أعمل به ولا يكون معى مفتاحه . كانت الآنسة تفتح لى حين اخرج فى الصباح ذاهبة إلى السوق .
– ولكن كيف دخلتِ مساء الأمس والآنسة سارازان لم تفتح لك ؟
– كانت تعطينى مفتاحا فى ايام الاحد . وكذلك عندما نخرج فى ذات الوقت وأعود إلى المنزل قبلها .
سكت بيلو لحظة ثم قال : هذا يعنى انها لم تكن تخشى ان تترك لك المفتاح عندما تكون غائبة عن المنزل ولكنها تخشى دخولك اليه دون علمها حين تكون بداخله . كانت تخشى ذلك منك ومن جان مارك .
– إلّا فى ايام الاحد .
– إلاّ ايام الاحد . كانت تخشى شخصا أو شيئا فى ايام الاسبوع الاخرى ، ما عدا الاحد ، وقد قُتلت يوم احد .

قالت جيزيل بصوت خفيض : نعم يا سيدى .
– هل تشكّين فى شخص ما ؟
ردت جيزيل فى هدوء : كيف افعل ذلك وانا لم اكن بالمنزل ؟
تجاهل بيلو الاجابة السهلة وقال : سؤال يا آنسة جيزيل . هل كانت الآنسة تلبس دائما خاتمها « عين الهر » فى يدها اليسرى ؟
– خاتمها ماذا ؟
– « عين الهر » . انه اسم أحد الاحجار الكريمة ، وانا اجهل هذا الحجر ايضا .
ردت جيزيل بشيء من الاحتقار : نعم ، نعم . لقد كانت تلبسه على الدوام ، ولكنها فى بعض الاحيان ، ولمعت عينا جيزيل ، كانت تلبس فى يدها اليمنى ماسة كبيرة الحجم ، كبيرة جدا . رائعة .
قطبتّ جيزيل حاجبيها وقالت : ألم تجدوا هذه الماسة ؟
– لا أدرى .
– شكرا يا جيزيل . إرجعى إلى مكانك فى المطبخ .

كان سيمون وبلوندل ينتظران بيلو فى قاعة الاستقبال المجاورة . ماذا وراءكما يا عزيزى ؟ قال بيلو ذلك وبصره يقع على الاريكة التى كانت عليها القتيلة ، وقال : لقد كانت مولعة بالألوان ! تلك البقعة الحمراء على الساتان الاصفر ، وتلك الاخرى على البساط فى منتصف المربع الابيض ، انه أمر محزن ... هيا بنا إلى المكتبة .

– ٣ –

فى طريقهم إلى المكتبة ، عبروا صالة الطعام التى امتلأت خزاناتها الزجاجية بالخزفيات والأوانى الفضية ولوحات فان غوغ فى كل مكان . أما المكتبة فقد اكتظت بأكداس من الكتب القديمة التى رصت حتى بلغت السقف . لا شك ان الآنسة سارازان قد ورثتها عن ابيها أو عن جدها . وقف ثلاثتهم ازاء حافة المنضدة الكبيرة الخالية التى احتلت منتصف الصالة . وضع بلوندل امامه حقيبة صغيرة وحزمة أوارق . سأله بيلو بحركة من ذقنه :
– لقد فتّشت الحقيبة تفتيشا دقيقا . اننا فى أحد المنازل القليلة التى توجد على حافة الطريق . ولكن توجد فى خلفيته حديقة صغيرة رائعة يعنى بها ولا شك بستانى . وهناك ايضا تمثال ، انظر اليه انه تمثال ديان آلهة الصيد .
– قنّاصة ! اضاف سيمون . قال بيلو : انك واسع الاطلاع !
– نريدك ان تكون فخورا بنا ايها الرئيس . قال بلوندل ذلك بجد .
– كنتُ افضل لو عثرت على مدية أو خنجر أو قاطعة الورق التى استعملت فى ارتكاب الجريمة

وعليها بصمات مجرم يحسن التعاون مع رجال الشرطة ! ألم تجدوا شيئا فى جَعبة التمثال ؟ قال بلوندل متحسرا :

– لم ينشأ المثّال ان يجعل له جعبة فارغة ، وكذلك لا يوجد شيء بالمرأب عدا الكبرية الصغيرة وركام المرأب ، ولكن غاية فى النظافة ... لا قطعة قماش متسخة ولا صفيحة فارغة . انه اول تحقيق أشترك فيه تكون القتيلة فيه امرأة تعيش بمفردها . أكلّهن من هذا الطراز ؟

قال بيلو : فى نويبى الراقية أكثر من أحياء منيلمونتان الشعبية بلا ريب . ان العناية الفائقة التى توليها الآنسة سارازان اشياءها تساعدنا على معرفة شخصيتها . إنتهينا ؟

– نعـــم .

– إذن افحص مصدر ثروة الآنسة سارازان . لقد عثرت بين الأوراق على دَفتر شيكات يخصها .

قال سيمون : هاهـو .

كانت الآنسة تتعامل مع بنك خاص معروف لدى رجال الاعمال . ناول بيلو دفتر الشيكات لبلوندل وقال : قم بالاجراءات الروتينية ، واخبر جاياردية رئيس الفرقة إذا ما عثرت على شيء .

(مضى بلوندل لشأنه) ... والآن يا سيمون . ماذا وراء الصورة التى عرضتها علىّ قبل قليل ؟

التقط سيمون ورقة مستطيلة بيضاء من بين رزمة الأوراق وقلبها .

– لقد عثرت عليها فوق مدفأة الآنسة سارازان وليس معها صور أخرى .

– على مدفأتها ؟ ، سأل بيلو وهو يتأمل الجسد النظيف المفتول ، فكأنه لامرأة تمارس ضربا من ضروب الرياضة .

– نعم ، بمخدعها . واظنها كانت تنام لوحدها فالسرير جدّ ضيّق .

– ذلك ما دهشنى ، فقد رأيت مخدع الآنسة سارازان . بماذا تصف شخصا يضع نصب عينيه صورة له وهو شبه عار ؟

– أصفه بالنرجسية .

– نعم ، نعم ، لقد كانت الآنسة سارازان امرأة على قدر من الشذوذ . ولكن لندع ذلك جانبا . هل سرق القاتل شيئا ؟

– لنقل لابد انه سرق شيئا ما ولكن ماذا ؟ فادراج المخدع مقلوبة رأسا على عقب ، كما فتّش القاتل المكتب ومنضدة السرير . وعلى الأرض خليط هائل من الملابس والحلى والأوراق . وبعد رفع البصمات قمت بالتفيش .

– هل قلت حلى ؟

– نعم ، علبة تناثرا محتوياتها على أرض الغرفة .

– ألم تعثر بينها على خاتم بماسة كبيرة ؟

– نعم ، بل أكثر من خاتم . وتوجد بالمثل عقود واساور .

قال بيلو : أرجو ان تكون قد اغلقت باب المخدع عند خروجك .

أخرج سيمون مفتاحا من جيبه وناوله بيلو الذى مضى قائلا : وعلى كُلّ ، فسوف يكون المنزل تحت حراسة الشرطة . هل قمت بتفتيش كل غرف المنزل ؟

– كل الغرف الاخرى باستثناء غرفة جيزيل . لم تسكن منذ سنوات عديدة ، ونظرة واحدة تكفى لمعرفة ذلك ، فى حين لا يجد بعض الناس جحراً يأويهم .

– ولكن هؤلاء لا يتعرضون للاغتيال . ماذا وجدت بالدور الثانى ؟

– مخازن . قال بلوندل انها انظف مخازن رآها فى حياته . ليس على ارضها ذرة غبار ولكنها ملأى بحقائب مختلفة وبأكداس من اشياء لم تعد صالحة للاستعمال تراكمت على مرّ الزمن .

– وماذا يوجد بهذه الحقيبة ؟

– حاجيات حسناء ، مفكرة للمواعيد : كل أيام الاسبوع ما عدا السبت والاحد . ورخصة قيادة وحزمة مفاتيح تدل على ان الآنسة سارازان تستعمل اقفالا من النوع المؤَمَّن . وقد علمت انها مفاتيح الباب والبوابة والمرأب والسيارة . واخيرا يوجد تمثال القديس كريستون للوقاية من حوادث المرور . يبدو ان القديس كريسوف لا يشفع الا فى حوادث الطريق ... !

قال بيلو لنفسه : « إنه يتحدث مثلى تماما ! كانت أمه على حق حين تخوفت من تأثيرى على فتاها . فلولاى لما فكر فى الالتحاق بالشرطة بعد وفاة والده . ولكن ماذا كان بوسعى ان افعل حيال امر لا سلطان لى عليه . لقد اثَّرتُ عليه دون ارادتى ، والآن وقد حدث ما حدث ، فانى سعيد بذلك » .

– ٤ –

– أدخُل يا سيد بيلو . جاء الصوت من مكتب المفوض بيكار ، رئيس الفرقة الخاصة التى يطلق عليها ايضا اسم الفرقة الجنائية أو فرقة « الابطال » . وكان كبير « الابطال » فيها هو الرجل الذى يتأهب للدخول : لم يكن أحد ليفكر فى تلقيبه باسم بولو روسو رغم ان التورية فيه ليست أقل جوازا منها فى بيكار رسور ، لقب المفوض الذى مضى قائلا : أدخُل ودعنى اتشرف بجلوسك امامى . لقد سمعت فى التلفون قبل قليل اشادة بقدراتك دامت خمس دقائق . سأل بيلو :

– من كان المتحدث ؟

– أوه ، أيهمك ان تعرف ؟ تريفلو ناول نص المكالمة لكبير المفتشين .

– تفضّل يا سيدى ، قال تريفلو السكرتير المثالى والمشهور بين الموظفين برأسه الاصلع وبكفاءته وصبره .

قال بيكار : انها من طرف المفوض تيفنيه بليون .

قال بيلو : لقد تحادثنا قبل قليل . علق بيكار قائلا : هذا ما ذكره لى . اما انت فُتحجب عنى كل المعلومات .

كان بيلو صبورا مثل تريفلو . سأل قائلا : ألم تر بلوندل ؟
– بلى ، رأيت بلوندل والآخرين ، ولكنى لسوء الحظ اعتمد عليك كالعادة فى كشف القضايا . هذا رغم ان إزالة الغموض قد يكون من الجنون هذه المرة . خذ واقرأ . لا ، ابق بالمكتب فإنى لا انتظر احدا . علينا مواجهة الصحافة بعد قليل . لا تحفل بعبارات الاطراء .

القى بيلو نظرة عجلى على السطور الاولى وكانت مقتضبة ثم بدأ يقرأ ابتداء من :

« تيفنيه : ان تكليفكم بيلو بالتحقيق فى قضية الآنسة سارازان يعنى أنكم مهتمون بها .

– « بيكار : هل يعنى هذا ان ليون لا تأخذ القضية مأخذ الجد .

– « تيفنيه : اننا نهتم بها كجريمة قتل ولا نعتقد ان هناك لغزا عصيًا ، فقد بدأ كل غموض ينجلى هنا فى ليون .

– « بيكار : أحقا ما تقول ؟

« تيفنيه : وهل كنت تظن اننا سنصدق القصة الملفقة التى يرويها الفتى عن وصول الحقيبة اليه ؟ لقد ظل يردد بصورة آلية وبلا مجهود يذكر ، طيلة نصف الساعة التى استغرقها التحقيق ، قصته الساذجة كلما حاولت التضييق عليه . هذا فضلا عن ان كل الاعترافات الاخرى تبدو إما زائفة وإما بديهية : علاقته بالقتيلة ، فارق السن بينهما ، تمايزهما اجتماعيا وعواطفه نحوها .

– « بيكار : اذن إلى ماذا انتهت ؟

– « تيفنيه : اسمع منى . اننى اعتقد ان المدعو جان مارك بيرجيه قد قام بقتل عشيقته ثم بتر يدها ولفها بقميص النوم الصينى ثم وضعها فى حقيبة اشتراها من سوق الأدوات المستعملة ، هذا إذا لم يكن قد قام بسرقتها من مكان ما . كما اعتقد انه قد صمَّم على فتح الحقيبة امام جميع افراد اسرته كما فعل – يبدو انه امر صعب التصديق ولانه كذلك فإن اى تفسير غيره يبدو معقولا : استبدال ، محاولة للانتقام ، غيرة ... باختصار ، خطط الفتى للامر كما يلى : لن يظن أحد مطلقا اننى من النذالة أو الجنون بالقدر الذى يدفعنى إلى حبك الجريمة بهذه الصورة . ما رأيك ؟

– « بيكار : ما قلته يثير اهتمامى . متى ستبعث بالفتى الينا فى باريس ؟

– « تيفنيه : لسوء الحظ ليس لدى شرطيان لاصطحابه ، ربما شرطى واحد .

– « بيكار : سأبعث اليك صباح الغد بواحد من رجالى ، بعد موافقة جهاز الامن .

– « تيفنيه : لست فى مقام اسداء النصح اليك ، ولكننى اعتقد انه من الاجدى ان ...

– « بيكار : ان يأتى بيلو بنفسه ليلتقى بآل بيرجيه مجتمعين .

– « تيفنيه : نعم ، نعم . وفى نهاية المكالمة وجد بيلو كلاما عن الفراخ السمينة واللحم من انتاج نونتو . قال بيكار :

– ما رأيك ؟

– إذا كانت الأوراق جاهزة فاننى ...

– تريفلو . هل أعددت الأوراق لكبير المفتشين .

– ها هى يا سيدى .

إبتسم بيلو شاكرا وقال : سأسافر فى المساء . ولكن أرجو أن تبعث من يأتى بسيمون من شارع لافيرم .

– تريفلـو ؟

– نعم يا سيدى . بامكان توسان أو الشرطى ماليكورن الذهاب فوراً إلى شارع لافيرم .

– فليذهب توسان . والآن ، هيّا حدّثنا .

فى بداية الظهيرة ، ونظراً لوجود بيلو بمكتب المفوض بيكار ، فقد خف دومبير رئيس معهد الطب الشرعى بنفسه حاملا نتائج التشريح . فقال له بيكار :

– إن حضورك بنفسك شرف عزيز يا دكتور .

– وانا ايضا يسعدنى العمل معكم ، رغم انكم فى كثير من الاحيان تأتون الينا ببيض الديكة ولبن العصافير لاجراء التحاليل عليهما . ولكن هذه المرة فإن مرتكب الجريمة كان على علم بما يفعل . اننى لا اتحدث عن اليد المبتورة ، فقد يكون ذلك بفعل الغضب أو لمتعة مرضيّة . الأداة التى استعملت لبتر اليد هى الفؤيس التى عثرتم عليها . وقد ابدى لى بونتت دهشته من غزارة الدم النازف من جرح اعقب الوفاة . ولكن بامكان النزيف ان يستمر لساعات إذا كان الجرح فى منطقة من مناطق تجمد الدم ، اعنى ان ... لم يدعه بيكار وبيلو يكمل حديثه .

– لا داعى للشروح ، إذ انه لم يعد هنالك غموض فى اللغة التى تستعملها بعد السنوات الطويلة التى عملنا خلالها معا . ولكن دومبير لم يطق ان يقاطعه أحد .

– ... اعنى ان الذراع المدلاه مثالية لاحداث مثل ذلك النزيف . لا أهمية لذلك ، وسوف تجدان تفاصيل أكثر بالتقرير . لقد دفعنى إلى الحضور جرح القفا الذى احدث الوفاة بدقة متناهية ، واجهز على القتيلة فى الحال تقريبا . لقد انتزع هذا الجرح من آخر ركن فى ذاكرتى ، او إذا شئتما عن آخر ركن من أركان النسيان عنده ، بليغة قالها لنا فى أيام الدراسة ، عند اول اشغالنا بالتشريح ، الاستاذ فارابوف . قال هذه العبارة وكثيراً مما حفظته عنه . اتعرفان فارابوف ؟

– هل تعرف فارابوف ؟ قال بيكار موجها السؤال إلى بيلو . أجاب بيلو : كلا . اننا لا نعرف من يكون فارابوف ، يا دكتور . فاسمه لم يرد فيما ترسله لنا من تقارير .

– ولن يرد اسمه فى هذا التقرير كذلك ، لئلاّ يبدو سخيفا . ولهذا السبب اتيت . ان الأداة الحادة التى استعملها القاتل – وفى رأيى انه استعمل فتاحة رسائل لاسباب سابيّنها لكم – اخترقت فقارتين : الفقارة السابعة العنقية والفقارة الاولى الظهرية ، ثم مزقت اثنين من الشرايين فى وقت واحد : الشريان العنقى المعترض والشريان العميق هل تعرفان الاسم الذى أطلقه فارابوف على هذا الجزء الدقيق ؟ أسماه « مطعن الغيور » .

(٦)

فـى الطريـق إلى اوغســـــتا

– ١ –

كان بيلو راضياً عن زملائه رجال الشرطة بمدينة ليون وعن المدينة نفسها ، وقَدَمُه تطؤها للمرة الرابعة فى زيارة للتحقيق . ولم يكن بيلو لينخدع بمظهر البرود الذى قد يوحى بالعداء أو بالحذر لدى رجال الشرطة بليون . فما أن يتم التعارف حتى تنبسط الاسارير ويسهل الحديث ويبدأ العمل فى جو من التعاون والتفاهم . مرجع ذلك شخصية المفتش بيلو وقدرته على اكساب زمالة العمل طابع العلاقة الشخصية أينما حلَّ . كان بيلو يرد على ذلك قائلا : « وما الذى يمنع الآخرين أن يفعلوا مثلى ؟ فاللوم يقع عليهم » .

تعشى بيلو فى مطعم القطار . كان الليل قد حل وهو لن يصل ليون فى وقت باكر ، ورغم ذلك فقد عزم المفتش على المضى إلى شارع فوبان بعد أن يتحقق من أنّ غرفة قد خصصت له بالفندق ، وسيبدأ غدا التحقيق ، وهو يأمل أن يعود إلى باريس بقطار الليل . وإذا سارت الأمور كما يحب فسيعود إلى باريس صباح يوم الأربعاء ومعه ما أتى لأجله . كان بيلو بطبعه ميالا إلى العزلة شرط أن ينهمك أثناءها فى عمله ، وهو عادة ما ينسى فى مثل هذه الحال مواعيده . فوجىء عند نزوله من القطار بسنفيل يقابله مبتسما . قال سنفيل :

– نعم ، لقد شرعت فى التحقيق فى القضية صباح اليوم . عاشت الايدى المبتورة إذا كانت تتيح لى أن اصافحك !

قال بيلو : انك تتحدث وكأنك تقرأ من كتاب . انى مسرور بلقائك . هل من جديد بعد مكالمة بيكار وتيفنيه هذا الصباح ؟

– لقد فحص الطبيب الفتى .

– هل انهارت أعصابه ؟

– حدث ذلك منذ أن فُتحت الحقيبة ! وهو يشكو من برد اصابه فى باريس . لقد أصيب بالبرد ، ولكن حالته لا تستدعى دخوله المستشفى ولا حتى عيادة الطبيب .

قال المفتش سنفيل لبيلو وهو يقوّد سيارته الخاصة ويقطع المسافة بين محطة بيراش وشارع فوبان : لقد كنت أنوى دعوتك الليلة للعشاء بمنزلى ، خاصة وأننى لا أعمل هذا المساء ، فاطفالى يكنون لك اعجابا فريدا ! ثم حدثه عن آل بيرجيه جميعهم بدأبماري لويز وانتهاء بالجدة . حدثه عن جان مارك

الذى تدور حوله شكوك المفوض تيفنيه وهى شكوك لها ما يؤيدها .
– طالما أن الفتى ما يزال فى نظر العدالة شاهدا فحسب فبوسعى أن استجوبه دون أن يكون فى ذلك انتهاكا لحق الدفاع !

كان جان مارك نائما فى زنزانته مفتوح الفم من جراء البرد وقد علا صوت انفاسه اللاهثة . كان الفتى مرتديا كل ملابسه عدا المعطف والشال ، بينما كان مفتاح جهاز التدفئة مدارا إلى اقصاه . فتح احد رجال الشرطة الباب فصاح جان مارك : « لا ! » صاح مثلما فعل فى صباح ذات اليوم . كان الذعر يملأ عينيه وهو ينظر إلى بيلو ، ذلك الرجل الغريب . قال سنفيل : انهض وتعال معنا .

سار ثلاثتهم يتقدمهم سنفيل ثم جان مارك وبيلو الذى أخذ ينظر إلى الفتى وهو يسير بينهما « يخطىء كثير من رجال الشرطة حين يعتقدون انهم قد قالوا كل شىء عن مُتَّهم ما بينما يغفلون تماما الحديث عن مظهره . فهذا الفتى الرشيق الانيق يختلف كل الاختلاف عن آل بيرجيه كما وصفهم لى سنفيل . إنه وإن بدا كمن حكم عليه بالاعدام ، كما يحدث للمرء حين يوقظ فجأة من النوم ، فذلك لا يقلل من حسنه ولا من جاذبيته ، وحين تعشق امرأة ثرية طالبا من اسرة فقيرة يصغرها بسنوات ، تكون الوسامة سبب ذلك العشق . ومن يدرى أيهما كان يستغل صاحبه ! » . وحين دخل ثلاثتهم أحد المكاتب ، قال بيلو : لقد جئت لاصطحابك إلى باريس .

بدا جان مارك منهمكا خائفاً . كان بوده أن يصرخ بأعلى صوته ولكنه لم يستطع الّا أن يتأوه قائلا : لا يجوز لكم ذلك !
– سأله بيلو فى لهجة خلت من العداء :
– لا يجوز لنا ماذا ؟
– أن تحبسونى كما يحبس حيوان ، بينما كان عليكم بعد ما حدث لى أن ...
– وماذا حدث لك يا صغيرى ؟
لم يكن بوسع جان مارك أن يحتد أكثر مما فعل وبيلو يخاطبه بتلك اللهجة الحانية : ماذا حدث لى ! الحقيبة ! اليد المبتورة ! انها يد خطيبتى ... (إنفجر باكيا) . ألا تدركون ما حدث ؟ ألا يدرك أحد منكم ما حدث ؟
قال بيلو : هذا سبب مجيئى إلى هنا . لعل الجريمة وقعت فى باريس ولم يحدث فى ليون غير فتح الحقيبة ، فباريس وحدها هى المكان المناسب لكشف غوامض هذه الحادثة البشعة ، وستذهب معنا إلى باريس لمساعدتنا فى ذلك .

كفَّ جان مارك عن البكاء ورمق بيلو بطرف عينه : إذن فانتم لا تظنّون أننى الذى ... ؟ عجز جان مارك عن نطق الكلمة فسأل : هل سنسافر هذا المساء ؟
– غـــدا .
– وهل سأقضى الليلة مع أهلى ؟

– كلّا ، فذلك ليس ممكنا . انك تعرف أن فضول الصحفيين لا حد له . أفضل لك أن تبقى هنا .

قال جان مارك : آه ، الصحفيون . ثم تبع رجل الشرطة فى صمت . سار بيلو وسنفيل صوب السيارة . قال سنفيل :

– لا اشك مطلقا فى قدرتك العجيبة على الاقناع ، ولكن دعنى أؤكد لك ذلك . هلّا ذهبنا إلى منزلى نشرب شيئا من النبيذ ؟ ردّ بيلو : أفضّل فنجانا من القهوة الممتازة ، فالقهوة المركزة وحدها تساعدنى على النوم .

– ٢ –

لم يكن بيلو ينام دون ان يشرب القهوة ، لكنه كان يستيقظ متى شاء . عند بزوغ الفجر راح يتناول افطاره بالمطعم الصغير بمحطة بيراش وأمام عينيه خبر اليد المبتورة والخاتم يحتل الصفحات الاولى فى الصحف المحلية التى اغتنمت فرصة اكتشاف الجريمة فى ليون فأفاضت فى ذكرها . أوردت الخبر كما سمعه مندوبوها من فم السيدة بيرجيه الام التى حدثتهم عن كل شيء : اليد المبتورة ، عين الهر ، الامريكى ، وكل ذلك بدقة ووضوح بالغين على طريقة الكاتب ميريميه . أما السيدة يوحنا بيرجيه – واسمها قبل الزواج اميلى شافون – والدة جان مارك فقد اختفت عن الانظار . ولكن الصحف نشرت صورتها : انها صاحبة عين الهر .

ولم تذكر الصحف اسم اغوستا التى اهدى اليها الخاتم فى الاصل . كما نشرت الصحف صورة للآنسة سارازان ، اخذت لها فى حفل فى باجاتل ، وصورة كبيرة لجان مارك اخذت قبل سنتين وظهر فيها بمظهر حسن : جميل الهندام هادىء النظرات . وحصل الصحفيون من شرطة ليون وباريس على المعلومات الاساسية ، الا ان الشرطة لم تذكر شيئا عن القاتل ، فقد اعلن المسئولون فى شارع فوبان انه لا يحق لهم التحقيق فى صلب القضية مع الشاهد الاول لان ذلك من مهام مركز البوليس القضائى بباريس الذى ينتظر وصول جان مارك قريبا . وكثر الحديث عن أنَّ دافع الجريمة هو الانتقام ، واهمل موضوع الاعتقال التحفظى . أما الاب والعم فلم يتمكن أحد من الاتصال بهما ، فقد عادا إلى مكان عملها بمحلات سان بوليكارب للمنسوجات والحرير ، والتى كان عيدها المئوى مناسبة لاقامة حفل بهيج . كان صاحب المصنع السيد كورزون على صلة طيبة بالصحفيين فقابلهم بنفسه قائلا :

« أرجو ان تراعوا ، ايها السادة ، مشاعر رجلين ممتازين ، وعاملين مثاليين . انهما لم يتخلفا عن العمل رغم الكارثة التى حلت بهما وبابنهما المسكين . سينجلى الامر لا محالة ، وعندها سوف يدعوكم رئيس هذه المؤسسة التى قامت على الشرف والاخلاص لتحادثوا السيدين بيرجيه كما يحلو لكم » .

قال بيلو : « هذا شخص لن أسعى للقائه » . وكان بيلو قد علم من سنفيل ان محلات سان

بوليكارب ... الخ ... تفتح أبوابها عند الثامنة والنصف صباحا ولذلك فقد مضى إلى شارع ديمون قبل ثلاثة أرباع الساعة من ذلك الوقت . طرق الباب فجاءه صوت رجل كسير من وراء الباب : من الطارق ؟

– عفوا يا سيدى . اننى من باريس وأعمل مفتشا أولا بالبوليس القضائى .

فتح الباب على مصراعيه وظهر من ورائه رجل شاحب الوجه أخذ ليبحلق فيمن جاء لحل المعضلة . كان ذلك ليونارد . الذى قال : هل اعتقلتم القاتل ؟

أطلَّ من قاعة الطعام وجهان لا يقلان شحوبا عن وجه ليونارد ، هما وجها اميلى ويوحنا ، وقد سقط عليهما الضوء المنبعث من مدخل قاعة الطعام والذى كان ينير قاعة الاستقبال . أما الجدة فكانت ملامحها تنبىء عن اهتمام بالغ بقدوم المفتش . قال بيلو وهو يخطو نحو الباب : كلا للاسف . اتسمحون لى أن ادخل ؟

– بكل تأكيد ، بكل تأكيد ، قال يوحنا وهو فى حالة يرثى لها . كان يبدو منذ الامس وكأنه كبر عشر سنوات ولكن وزنه لم يقل بعد . أما اميلى فقد أفرغت دموعها وبدت غبية . كان فكها الاسفل لا يكف عن الارتجاف وقد ابقت على جسدها روب دى شامبر باليا . لم يفرغ الاخوان بيرجيه من ارتداء ملابسهما . كانت الجدة وحدها فى أحسن لباس . قال يوحنا : هل سمعتم ؟ إنه من باريس ! اننا مهما تعلقنا بليون واحببناها بلا حدود فإن باريس تظل هى العاصمة . من هنا يا سيدى المفتش ... قال ليونارد مصححا : كبير المفتشين .

كانت المائدة معدة لتناول الفطور . أشار يوحنا إلى ذلك المشهد العائلى وغمغم قائلا : تماماً كما كانت بالامس ! قالت اميلى بلا اكتراث ، لفرط حزنها : لا ينقص الا وجود جان مارك ! قالت الجدة : وهذا ما يجعل البون شاسعا بين أمس واليوم . أظن أنه ينبغى علينا دعوتك إلى الجلوس ؟ . قال بيلو ، وهو يجلس : هذا لطف كبير منك يا سيدتى .

نظرت اليه الجدة فى صمت ثم قالت بصوتها الجاف : كما ينبغى علينا اجراء التعارف . واضح أننى الجدة وهى الام وذلك هو الاب والآخر هو عم الفتى أمّا حفيدتى مارى لويز فقد قضت الليل عند جيران يشاطروننا المصيبة . أماً حفيدى فلم يحفل أحد فيطلعنا على ما حدث له .

كانت نظرات التوأمين تتبع مجرى كل كلمة تتفوه بها الجدة وهى تخرج من بين الشفتين الرقيقتين وترصد أثرها على ملامح كبير المفتشين . ردّ بيلو : ستبرد قهوتك يا سيدتى ، أرجو الّا يضايق وجودى أيا منكم .

إن حفيدك على أحسن ما يمكن . وقد فحصه الطبيب بالامس بسبب البرد الذى أصابه . ورئتاه وشعبه الهوائية سليمة .

قالت اميلى : حمدا لله . أضاف بيلو : لقد تفّهم ابنكم ضرورة ابعاده عن فضول الصحفيين . لقد أتيت لا صحبه إلى باريس فوجوده هناك لا غنى عنه .

قال يوحنا : نعم ، على رجال الأمن اتخاذ كافة الاحتياطات اللازمة . هل لك فى فنجان من القهوة بعد هذا القول المطمئن يا سيدى المفتش ؟

قال بيلو : كلا شكراً ، بينما اندفعت الجدة قائلة : أى كلام مطمئن سمعت يا يوحنا ؟ هل فات عليّ أن أسمع أن جان مارك سيأتى لوداعنا ويصحب هذا السيد أم أن السيد قد جاء ليصحب جان مارك ويكون رفيق سفره ؟

قال بيلو : إنه الشاهد الاول فى القضية ، ولذلك ...

– ولذلك فهو فى حاجة إلى من يصاحبه إلى باريس ؟ هل كفّت الشرطة عن استدعاء الشهود بالخطابات أو البرقيات ؟ ان الشرطة تتصنع العطف وتقيّد الشهود !

قال بيلو : لعل الشرطة تحميهم من خطر محتمل . سألت اميلى :

– هلى ينوى القاتل الآن القضاء على جان مارك ! لم يبد عليها شيء إلا أنَّ فكها ارتجف رجفة قصيرة . أدرك يوحنا عبث ما يفعل فكف عن محاولته الشرب ، رغم انسداد حلقه للاربع وعشرين ساعة التى مضت . كان ليونارد قد فهم بدوره فقال :

– لا شك فى ذلك ، لا شك فى ذلك ! اغتيال الآنسة سارازان اليد المبتورة والحقيبة ، كل ذلك قد يعنى : « لقد انتهى الفصل الاول وجاء دورك » .

قال بيلو : أو « عليك أن تنفذ ما يطلب اليك تنفيذه » .

– وما ذلك ؟ سألت الجدة فى ثبات . هل أسرَّ اليك أم لأحد زملائك مِمّن اتوا بالامس ؟

– كلا يا سيدتى ، لسبب بسيط وهو انه ربما جهل كل شيء عن هذا الامر فى الوقت الراهن . ولو قصد اعداؤه ارهابه واخضاعه لقبول شروطهم لما فعلوا غير ذلك .

قال ليونارد بجذل مؤمنا على قول المفتش : نعم ، نعم . لا أمان لجان مارك الا فى حراسة الشرطة ! . قال يوحنا ، بعد ان القى نظرة على ساعته :

– عفوا يا سيدى كبير المفتشين . قد تعلم اننى واخى نعمل بمحلات سان بوليكارب للمنسوجات والحرير وقد حان موعد العمل . لقد تفهَّم السيد كوزون صاحب المصنع ما أعانيه واسرتى إثر هذه الحادثة البشعة . إن لسانى ليعجز عن وصف ما قام به السيد كوزون نحونا ، ولذلك تقيّدنا بمواعيد العمل . هو أقل ما يمكن ان نرد به على فضله الكريم .

ردَّ بيلو : كنت أود ان اتحدث معك قليلا عن ابنك . سألت الجدة وهى تضحك ضحكة خافته : أو يعرف سيدى المفتش آباء يعرفون ابناءهم ويقدرون على الحديث عنهم ؟

– نعم يا سيدتى . أنت ! .

– كانت تلك هى المرة الثانية التى يبدو فيها الحرج على وجه الجدة ، ودام ذلك الامر ثانية واحدة . وللمرة الاولى سرحت نظراتها وقالت كأنما تخاطب نفسها : أولادى ، نعم اننى اعرفهم ولكن جان مارك ... وسرعان ما استعادت حدتها وقالت : ثم ماذا ايضا ؟ جان مارك تحت سيطرتكم ، فما حاجتكم إلى انسان آخر يحدثكم عنه ؟

نهض بيلو فقالت الجدّة : هلاّ بقيت يا سيدى . سيخرج اولادى الآن وستذهب زوجة ابنى لترتاح . اليس كذلك يا اميلى ؟

– نعم ، نعم . إلى اللقاء يا سيدى . ارجو ان تحرص على ان لا يسنى جان مارك شاله .

تبادل يوحنا وليونارد نظرة حائرة وخرجا بعد ان ودعا المفتش وكأنه هو الذى يستحق عبارات العزاء . بقى بيلو واقفا قبالة الجدة . قالت الجدة بانفعال :

– انت فضولى يا سيد ... ؟
– بيلو . فريدريك بيلو .
– انت فضولى يا فريدريك .
– ذلك من لوازم المهنة يا سيدتى .
– كلا ، ليس بهذه الصورة . ان فضولك قد يجعلك خطرا .
– لا خوف على الابرياء منى يا سيدتى .
– ربما ، ولكن ماذا عن المتهمين ؟ الا تعلم ان المتهمين ليسوا كلهم مذنبين ؟ اننى اوصيك بهذا الفتى . فهو فنان بطبعه صعب المراس ، ويظن دوما ان الآخرين يسيئون فهمه ، حتى انا . ولكن ذلك لا يدهشنى ، فنحن من طينة واحدة – أو قل كأننا من طينة واحدة .

جعل بيلو يفكر وهو يصعد الى السيارة التى خصصها له شارع فوبان : « عجيب أمر هذه الاسرة ! ان واحدا منهم لم يتحدث عن صحف الصباح . ألم يفكر أحد منهم فى قراءتها ؟ دعك من الاخوين بيرجيه ، فهما ربما حصلا عليها فى طريقهما إلى العمل ، ولكن هى ؟ هى التى قامت بمقابلة الصحفيين وحكت لهم القصة الدامية بتفاصيلها ؟ لقد كدت أظنها مزهوة بنفسها » .

بالقرب من ميدان سيلستان فى محلات شنلونج لبيع المجوهرات ، أحد اشهر محلات المدينة ، احدثت الصحف الاثر الذى احدثته الحقيبة فى منزل آل بيرجيه ، فقد اغمى على السيدة شنلونج واتصل السيد شنلونج هاتفيا بشارع فوبان . كانوا يجهلون حكاية عين الهر . عين هر ! لم يحدث على الاطلاق ان قامت محلات شنلونج ببيع حجر من هذا النوع ... ولم لا يبيعون خواتم من فتات الاخشاب !؟ لقد تركوا اوغستا حرة تفعل ماتريد منذ ان كانت طفلة لا تحسن المشى ولا الكلام . « انها ابنتى الوحيدة يا سيدى كبير المفتشين وذلك يعنى الكثير ! » .

أمضى ديدييه شنلونج والد أوغستا طفولته فى مدرسة الاخوة مع الاخوين بيرجيه . ولم تستمر هذه الرابطة بعد سن الطفولة ، ولكن تعارف اوغستا وجان مارك وذهبا إلى حفلات الرقص النهارية عندما كانا يافعين . تلاقيا فى المسرح والسينما والنزهات الجبلية ، ثم فى باريس . وكانت تصرفات اوغستا فى العام الماضى توحى بانها شديدة الاعجاب بجان مارك ، بل انها صرّحت قائلة : « ربما نصبح زوجين ولست اخشى ذلك » .

كان جان مارك طالبا بكلية الفنون الجميلة ويبشر بمولد فنان عظيم ، وكان آل شنلونج يعشقون الفن والفنانين . وحدث ان رسم جان مارك نماذج لعدد من الحلى من الطراز المصرى والبيزنطى راقت للسيد شنلونج ولكن جان مارك رفض رفضا باتا الثمن السخى الذى عرضه عليه السيد شنلونج . يا سيدى كبير المفتشين ، لقد كان جان مارك رقيقا جدا ، شديد الحساسية ، وكان يبدو هائما بحب اوغستا . ثم ماذا حدث ؟ لم تذكر اوغستا اسم جان مارك بعد ذلك لا فى عيد الميلاد ولا فى أعياد رأس السنة . وعندما سألتها أمها : « هل حضر جان مارك العيد ؟ » ردّت قائلة : « لا ادرى ، فالأمر لا يعنينى » . وهذا يدل على ان حضوره كان يعنى شيئا بالنسبة لها . ثم سافرت إلى باريس للالتحاق بكلية الاداب ولم تعد تذكر جان مارك فى خطاباتها . ولكن كيف لا يصيبنى القلق من هذه الزيارة ، يا سيدى كبير المفتشين ، وقد جئت خصيصا من باريس إلى ليون « لرؤيتى » ، بعد ان هدّأ المفتش تيفنيه من خاطرى وأخبرنى قبل قليل أنَّ أوغستا لا صلة لها بهذه الحادثة البشعة ؟

كان شنلونج رجلا قصير القامة ، مفرط الاحمرار ، وربما كان ذلك من اثر الانفعال . استقبل الرجل بيلو فى مسكنه فوق المتجر وهو شبيه بسكن الآنسة سارازان ويدل على ذوق رفيع . غير ان اللوحات التى كانت تزينه كانت لوحات قديمة وضعت فى اطر قديمة .

هَدّأ بيلو خاطر الاب المذعور وبيَّن له غرض زيارته كما بيَّنه لال بيرجيه . ولم يذكر شيئا عن عين الهر . نظر بيلو مسرورا إلى صورة لاوغستا قدمت له دون ان يطلب ذلك . لم يتغير عنوان اوغستا منذ ان كتبت لها الجدة « ارجو ان يكون الخاتم الذى ارسله لكِ جان مارك قد اعجبك ... » ولم يعلم شنلونج أكثر من ذلك عن هذه المسألة . وما ان عاد بيلو إلى شارع فوبان حتى اتصل هاتفياً ببيكار فى باريس واطلعه على نتائج زيارته ووقت عودته . ثم طلب بعد ذلك من سيمون الذهاب إلى رقم ٨٠ مكرر بشارع آساس ، حيث تسكن أوغستا شنلونج الحسناء .

— ٤ —

كانت اوغستا شنلونج تسكن الطابق الاخير فى مبنى عتيق فى شقة صغيرة أنيقة من النوع الذى كان يطلق عليه اسم « غرف الخادمات » ، وتطل الشقة على منظر غاية فى الروعة : حدائق لكسمبورج ومبنى البانتيون والسماء الصافية . لم يلحظ سيمون كل هذه التفاصيل أول مرة ، فقد رأى بطاقة ملصقة على الباب مكتوب عليها بحروف بارزة اوغستا فقط ، كأنه اسم منجمة أو اسوأ من ذلك . « أسوأ ، لِمَ أسوأ ؟ » ، سأل سيمون نفسه . « انها مهنة مثلها مثل مهنة الشرطة » .
طرق سيمون الباب فرد عليه صوت ناعم . المفتاح بالباب كما تعلم . وجد سيمون نفسه أمام فتاة جميلة حقا تلبس فستانا ابيض جديدا جدد شبابها ، وكانت عيناها جريئتين تلمعان وتفيضان غبطة وحب استطلاع . قالت الفتاة : كنت انتظر شخصا غيرك . هل انت زميل فرانسوا ؟ هل حال أمر دون حضوره أم انه واعدك على اللقاء معا ؟

مضت اوغستا نحو النافذة ، وعند ذلك لمح سيمون المشهد الذى تطل عليه الغرفة . لم يكن سيمون راضيا عن بداية لقائه باوغستا . انه يفضل دائما ان يخبر الشاهد بهويته حالا ولا يميل إلى خداعه . ولو ان اوغستا سألته عند الباب : « من الطارق ؟ » لرد عليها « المفتش ريفيير من البوليس القضائى . هل يمكن ان احادثك والقى عليك بعض الاسئلة كشاهد ؟ » أما وقد أدخلتنى دون ان تسأل عن هويتى فان عليَّ الآن ان اهبط بها من عالم تظن اننا ننتمى اليه معا إلى عالمى الكئيب . انه ليس عالمى وحدى بل عالمها ايضا . إلا إذا كانت قد نسيت كل شيء . هل قرأت اوغستا الصحف يا ترى ؟

تفرَّست فيه اوغستا وقالت : ماذا جرى ؟ أأنت أبكم ؟ هل لزم فرانسوا فراش المرض ؟ هيّا . قل ما عندك سيسؤنى مرض فرانسوا ولكنه على كل حال مجرد صديق . ابتسمت اوغستا للمرة الثانية . خصّته بابتسامتها هذه المرة . انك تكبرنا سنّا ، ولكن ذلك لا يعيبك ، ألا تزال طالبا بالكلية ؟ هل نجلس ؟

جلست الفتاة جامعة اطرافها على الاريكة . لم تبد فى جلستها تلك أقل طولا أو حسنا مما كانت عليه . جلس سيمون فوق كرسى على مبعدة منها وقال : لا يا آنسة ، لست طالبا بالكلية ، لا بكليتك ولا بغيرها . جئت أزورك من طرف جان مارك .

كانت عبارة « من طرف جان مارك » عبارة خرقاء ، رغم ان سيمون قصد استعمالها ، فقد قطّبت اوغستا حاجبيها ، وكان لها حاجبان عريضان اسودان يزيدان من قوة شخصيتها ، ثم ردت على الفور : ماذا يريد منى جان مارك ؟ لم يعد ثمة صلة بيننا حتى عن طريق وسيط . لقد انتهى كل شيء إلى الابد .

احمرَّ وجه سيمون خجلا ولعله احس ذلك . وقال : عفوا يا آنسة ، لقد خاننى التعبير . لم آت من طرف جان مارك ولكن لأمر يتعلق به .

انبسط وجه الفتاة واعتدلت فى جلستها وكأنَّ جسدها أرغم على تغيير الوضع المسترخى الذى كان عليه . أضاف سيمون : ألم تقع عيناك على الصحف هذا الصباح ؟ . شحب وجع الفتاة وقالت : كلا « الصحف ! » . ألا يهم اية صحيفة كانت ؟ ثم انك لم تقل لى « قرأت » ولكن قلت « تقع عيناك » . هل فى الصفحة الاولى ؟ أشار سيمون بالايجاب . سألته الفتاة : من أنت ؟

ابتسم سيمون ابتسامة ، قصد أن يهدىء بها روع الفتاة : اننى مفتش بالشرطة القضائية . لاتخشى شيئاً ، فرغم بشاعة الجريمة إلا أن جان مارك سليم لم يصبه إلا رد الفعل .

رددت الفتاة مرتاعة : الجريمة !

شرع سيمون يحكى لها ، موجزا ما استطاع . وظلت تستمع اليه باصغاء شديد : هوغت سارازان ، نوييى ، اليد المبتورة . ولما بلغت قصته فتح الحقيبة والعثور على اليد المبتورة بداخلها ، تغيَّر لون الفتاة الابيض فاصبح شاحبا . وعندما سمعت : « وكان فى بنصر القتيلة خاتم بعين هر » ، رفعت كفها نحو فمها محاولة عبثا ان تكتم أنّه فلتت منه ، ولكن لم تبد عليها الدهشة اطلاقا .

قال سيمون وقد اراد الفراغ من قصته ، حتى وان دفعه ذلك إلى ان يكون عنيفا مع الفتاة :
– الخاتم الذى ارسلته لك السيدة بيرجيه ثم تعرفت عليه فى يد القتيلة . لقد جئت لهذا السبب ، فقد يكون بوسعك مساعدة الشرطة ومساعدة جان مارك .

تحوّلت الفتاة بغته نحو سيمون ، بعد ان كانت تحدق أمامها كالعمياء : مساعدة جان مارك ؟ ولِمَ اساعده ؟ . قال سيمون بحكمة متعطفة : لان الحقد مهما كان عظيما ينبغى له ان ... قاطعته قائلة : ولكن ليس ذلك ما اعنى . (عجب سيمون لانها لم تصفه بالغباء . على اية حال لقد ظنّت به ذلك) . اقصد : لِمَ يحتاج جان مارك للمساعدة ؟ أهو ضحية انتقام مريع وبحاجة للمساعدة ؟

قال سيمون : مريع أو غير مريع . اعلمى ان لكل انتقام دوافعه . إذا كان ما حدث انتقاماً فمعرفة دوافعه قد تهدينا إلى القاتل . وقد يعدها المحلّفون اسبابا مخففة للحكم . ولكن ذلك لا يعنى الشرطة .

تطلعت اوغستا إلى كفيها وقد وضعتهما على ركبتيها ، إلى كفيها الكبيرتين الجميلتين اللذين يكبران يدى هوغت سارازان ، كانت يداها تنبضان بالحياة وقد سرت فيهما رجفة فى تلك اللحظة . قالت الفتاة بصوت خفيض : لكل انتقام دوافعه . ذلك صحيح .

بدت مستعدة للحديث وكأنها تخاطب يديها وتميل إلى الامام وقد تسمرت عيناها باليدين . وظلت عينا سيمون تنظران فى كتلة الشعر أمامه ، كتلة شعر لا تحتاج إلى ترتيب لتكوّن تسريحة رائعة .

– كدنا نتزوج فى السنة الماضية . كنت مستعدة للزواج وكنت أظنه كذلك . إتفقنا على السفر إلى باريس معا بعد نهاية الاسبوع . كنت لا أخرج إلّا لشراء الطعام . اشارت الفتاة بجبينها وهى تقول : وراء هذا الحاجز ، الذى حصلنا عليه فى سوق الحاجيات القديمة ، يوجد من أدوات المطبخ ما يكفى لطهى « البفتيك » . كان جان مارك يعد الطعام ويستعمل منشفة بدل فوطة الطباخين . كانت كل صغيرة وكبيرة فى حياتنا مدعاة للسرور وكنت أقول لنفسى ما أبهج حياتنا معا . كان جان مارك طالبا ويعمل فى نفس الوقت فى محلات بوغان الشهيرة لصيانة الاثريات بميدان فاندوم ، كما كان يرسم لوحات لامتاع نفسه . كنا نزور المتاحف كثيراً ونتردد على دور السينما . كان كل منا يتعلّم من الآخر . وفى بداية ديسمبر ، قبل اعياد الميلاد ، اختفى جان مارك !

رفعت أوغستا كفيها ولكن ، بدلا من وضعهما ثانية على ركبتيها ، ضمتهما وأخذت تُمعِنُ النظر إلى السجادة الصغيرة التى وضعت للنزول عليها من الأريكة فى الصباح ومن السرير فى الليل . كانت كأنها ترى فى تلك السجادة تفاصيل قصتها .

– وفى صباح أحد ايام الاثنين ... قال لى جان مارك فى صباح أحد ايام الاثنين : « سأغيب عنك هذا الاسبوع ، فقد طلب منى مخدمى البقاء . انها نزوة من نزوات أصحاب المليارات » . كان يقول ذلك كلما أراد اصلاح تحفة نادرة فى زمن وجيز . وغاب ذلك الاسبوع والاسابيع التى تلته . غاب

بلا رجعة . كان يسكن في فندق مارسيليا بشارع بونابرت .

وكلّما سألت عنه قيل لى انه خرج أو انه لم يعد بعد . حتى فى الاوقات التى ينبغى ان يكون فيها موجودا . بدأتُ اغتاظ من ذلك . وفى أعياد الميلاد ورأس السنة لم يصلنى منه شيء . كنت اقابل بعض الاصدقاء صباحا ومساء ، ولكنى ما كنت لا كاشف احدا بما حدث . لم تكن الاعياد فى غيابه اعيادا . أدركت تماما معنى أن يكون الانسان وحيدا وسط الآخرين ، كأنَّ اهلى والمنزل والذكريات تلاشت بعد غيابه . كنت أبدو فتاة يائسة مشردة ، أنا ابنة آل شنلونج أرقى محلات بيع المجوهرات بليون . كنت قد بعثت بتهنئة العيد الى اهله . ولم يكن ذلك دون قصد منى ، فقد كنت اقول فى نفسى : « أليس من المحتمل ان يكون هناك ، لسوء أصاب أحد افراد اسرته ، الجدة على سبيل المثال ؟ » . أمرأة مخيفة ، رغم انها دفعت جان مارك لدراسة الفنون الجميلة . كنت أعلم فى قرارة نفسى ان ذلك لو حدث لاخبرنى به اهلى ، فأمى ترسل إلى كل اسبوع خطاباً مسهباً من عشرين صفحة . وقد قامت الجدة بنفسها بالرد على .

جعلت اوغستا اصابعها فى مرفقيها . لابد انها احست باظافرها تتغرز فى ذلك الموضع ولعلها كانت تحث نفسها على مواصلة حديثها فقالت : جاءت فى الخطاب العبارة التالية : « أرجو ان يكون الخاتم الذى ارسله اليك جان مارك قد أعجبك » . احرقت الخطاب ولكن تلك العبارة ظلت عالقة بذهنى . وأصبت من جراء ذلك بأزمة طاحنة ، واخذت على نفسى عهدا بألا تعيش تلك المرأة التى أخذت الخاتم هانئة . وتربصت بجان مارك ثلاثة أيام متوالية عند محلات بوغان ، ولكنه كان قد قطع صلته بالمحل ايضا . ثم ذهبت إلى فندق مارسيليا . رأيته مرات عديدة يمر قريبا من التاكسى الذى كنت فيه وخشيت أن يرانى .

كان يدخل ويخرج وحيدا ، ولم تفدنى مراقبته شيئا . وفى مساء أحد الايام خرج واستأجر تاكسيا فتتبعته . ذهبت حتى اقصى نويبى ودخل المنزل رقم ٩ مكرر بشارع لافيرم . كان يمكن ألا يكون ذلك المنزل منزل المرأة . كلا انه هو ، كنت متأكدة من ذلك . كنت مصممة على مراقبته وان اقتضى ذلك الليل كله ، لولا ان سائق التاكسى الشاب أخذ يتفرس فىَّ متعجباً فخشيت ان يملى على شروطا لا تعجبنى . عدت راجعة وعثرت على العنوان بدليل التليفون . نويبى ٩ مكرر ، شارع لافيرم ، سارازان . اسم واحد ، ولم يكن ذلك مستغربا فهى تسكن فيلاّ خاصة . الآنسة سارازان : مايو ٤٦ – ٧٩ .

انتظرت الآنسة طويلا قبل أن ترفع السماعة وتقول بصوت جلى حازم « ألو ؟ » . كنت اختنق . قلت « هل هذا منزل الآنسة سارازان ؟ » ردت هى : « نعم ، من المتحدث ؟ ». قلت لنفسى « سأخيفك » ثم سكتّ . ردّت قائلة : « الو الو » ، ثم قالت وهى تتهيأ لقطع المكالمة . وتحدث شخصا بجانبها ، لا شك انه جان مارك : « تصور ان يفعل انسان فى مثل هذه الساعة سخفا ... » ثم وضعت السماعة قبل ان تكمل حديثها . سخافات . انها تسمى ذلك سخافات . فى صباح اليوم التالى ذهبت إليها بمنزلها .

اشفق سيمون على الفتاة وهو يسمع صوتها وانفاسها اللاهثه ، فهو يعلم خطورة نبش ذكريات قضى المرء أياما وشهورا يحاول نسيانها . ودَّ لو يرفع وجه اوغستا نحوه ليرى ان كان مازال شاحبا شحوب الموتى . ولكنها واصلت حديثها ونظرها مثبت على سجادة الصلاة حيث لم ينقطع عرض شريط الاحداث التى عاشتها .

– قرعت الجرس . فتحت لى بنفسها . ولكن لم يطف بخاطرى لحظة انها هى امرأة فى تلك السن . كانت غاية فى الجمال والاناقة ، عيناها زرقاوان باردتان . قلت : « هل يمكن ان اقابل الآنسة سارازان ؟ » ردت : « انا الآنسة سارازان » . عيناها باردتان يلمع فيهما الحذر والعداء . لم أصدّق حواسى . ثم واصلتْ هى قائلة : « لماذا ؟ أيبدو لك ذلك غريبا ؟ » قلت : « انت صديقة جان مارك ... » ردت : « وأنت الفتاة التى هاتفتنى أمس مساء . لقد تعرفت على صوتك » . لم تسمح لى بالدخول . وما كنت انوىَ الدخول اطلاقا . ودَدْت لو سمعنى كل من فى الشارع . ولكن صوتى ضاع ، هذا فضلا عن ان الشارع كان خاليا تماما من المارة . قلت : « لقد سرقته منى » . سخرت منى قائلة : « سرقته منك ! ان هذه العبارة وحدها تكفى لأن يهجرك جان مارك . انت الصبية الليونية ، صديقة الطفولة ... كيف ظننت ان جان مارك يليق بفتاة مثلك ؟ » . لقد حدَّثها عنى ، وبتلك الصورة ... قلت : « انه وغد وانت سارقة » . حسبتها ستصفعنى ، ثم استجمعت شجاعتى . فقد وجدت الدليل الدامغ « نعم أنت سارقة : ليس لانك اخذته منى ، معك حق ، ولكن لقبولك حلية كانت مهداة الىّ » . قالت : « أية حلية ؟ أعرف أنك ابنة صائغ » . قلت : « كلَّا ، ليس لهذا علاقة بالامر . الخاتم الذى ارسلته له أمه ليقوم باهدائه إلىّ » . قالت : « عين الهر ؟ » . ومنها عرفت أن الخاتم عين هر . كانت تلبس خاتما واحداً فى يدها ، ماسة ضخمة ، ثمينة . نزعَتْه من اصبعها ومدَّته إلىّ . ولولا انى تراجعت لوضعته قسراً فى كفى . قالت : « خذى ، خذى . هذا الخاتم يساوى شيئاً على الاقل . سألبس من الآن فصاعدا الخاتم الآخر » . ومن جديد فقدت قدرتى على النطق . كانت الماسة تلمع كعبث الشيطان ، وانا ارتجف رعبا . مدت يدها لتقفل الباب فى وجهى . يدها اليسرى . اليد التى ... وقالت بقسوة لا مثيل لها : « هيا انصرفى من هنا . انصرفى . لقد عرفت الآن من يكون الفاعل إذا أصيب جان مارك باذى » . وبعد ذلك ...

ورغم انه لم يحدث شيء يفقدها اتزانها ،فقد انزلقت اوغستا من الاريكة على السجادة . هبَّ سيمون لرفعها ، ولكن فى اللحظة التى كان يتأهب لوضعها على الاريكة انفلتت منه قائلة : دعنى ، هذا يكفى ، أليس كذلك ؟

لم يلحّ سيمون وإن ودَّ ان تكمل اوغستا حديثها ، واخرج من محفظته طلبا للشهادة كان قد اعده ووضعه على المنضدة . « الآنسة اوغستا مدعوة إلى الحضور غداً الاربعاء فى تمام الساعة السادسة مساء إلى ادارة الشرطة القضائية ، ٣٦ شارع أورفيفر ، الغرفة الجنائية ، مكتب المفتش بيكار » . ثم اضاف : فى مثل هذه الساعة من مساء الغد يكون جان مارك قد عاد إلى بلوريس .

ثم انصرف .

٧

العـــودة مـــن ليـــون

- ١ -

شدّ المفوض تيفنيه بحرارة على يد المفتش بيلو ، بعد أن استمتعا بغذائهما فى حانة على ضفة نهر السون .

– آسف لعدم استطاعتى البقاء معك حتى موعد قيام القطار . أرجو أن توافينى بأخبار سير القضية ، رغم أنها الآن قد انتقلت لحسن حظنا من ايدينا اليكم . إذا اتضح أن الامريكى ليس شخصا وهميا فسوف اطلب فوراً احالتى إلى التقاعد ! ليعد ديلورم حال وصولك إلى باريس ، فإن لدينا عملا كثيراً . لقد علمت انك ستحمل الحقيبة والخاتم . رد بيلو :

– دعنا نستفيد من هذا المشوار . سآخذ الصور والوثائق التى أعدتها معاملكم وهى تمتاز بالدقة . ولا غرو فى ذلك فمعاملكم مشهود لها بذلك . قال المفتش وقد أفرحه ذلك : ستثير غيرة الآخرين منا ! نعم ، والصور التى أخذت لليد المبتورة غاية فى الدقة .

وبعد الظهر أذن ليوحنا أن يرى ولده . كان بوسع زوجته اميلى كذلك القدوم ، ولكن يوحنا رأى الا يخبرها بذلك . قال يوحنا محدثا بيلو : « ينبغى مراعاة مشاعر الام فى بعض الاحيان » . احضر يوحنا معه حقيبة ملابس صغيرة . « يبدو عليك الذبول يا عزيزى جان مارك . إن مركز الشرطة لا يشبه المنزل » .

اقترح بيلو أن يتركهما لوحدهما لمدة عشر دقائق ، ولكن الرعب تملك يوحنا فقال له : انك ستسهر على سلامة ابنى يا سيدى كبير المفتشين ! ومن الافضل أن تبقى لسماع نصائحى له .

كانت نصائح يوحنا رسمية وغير مفيدة . ظل جان مارك ينستمع إلى ابيه وينظر إلى بيلو بطرف عينه . واخذ بيلو يطالع احدى صحف المساء . لابد أن آل بيرجيه قد قرأوا صحف هذا الصباح . لقد أطلع بيلو جان مارك على ما بها من أخبار . ولم يغير ذلك شيئا . أما الجدة فلا شك انها ترغب فى رؤية جان مارك ، ولكن بيلو اوضح ليوحنا أن القانون يكفل حق الزيارة لوالدى المتهم « فقط » . أجاب يوحنا :

– هذا شىء طبيعى . الأب والام شخصان فقط ، وإذا اضيف الجد والجدة صاروا أربعة ، وإذا سمح بالزيارة للاعمام والعمات كذلك ! ثم اضاف يوحنا بنبرة تخللها الاسف : وحتى ليونارد ...

كان جان مارك ادكن اللون وكأنه أمضى عدة ليال فى كهف . ولكن بعد حلاقة ذقنه وارتدائه سترة انيقة أُعدت له بشارع ديمون منذ عدة اشهر ، كان بامكانه أن يمضى بثقة إلى احدى عربات الدرجة الاولى ، لو كانت ادارة القضاء فى فرنسا تولى شيئا من العناية لراحة « الشهود الرئيسيين » فى قضاياها . رغم ذلك فقد حصل الشاهد الرئيسى فى هذه القضية على ثلاث تذاكر لركوب القطار . همس ديلورم فى أذن بيلو وهم يخرجون من مبنى المفوضية بشارع فوبان : هل أضع الأغلال فى يديه ؟ اجاب بيلو همسا : كـلا .

ثلاث أماكن ؟ بل ثمانية ! كانت مقصورة القطار كلها خالية . ازاح ديلورم ستائر النوافذ المطلة على الرواق وأحسن انزال ستارة النافذة الزجاجية الكبيرة . قال ديلورم وهو يفعل ذلك : « بسبب وقوف القطار فى المحطات » . تابعة بيلو ببصره وقد ظلّلت شفتيه ابتسامة : أهى المرة الأولى التى تحرس فيها متّهما ؟

– نعم ، يا سيدى كبير المفتشين .

– إذن ، تقبل تهنئتى الحارة !

نظر اليه ديلورم وقد بدا عليه شيء من الانزعاج . وحتى ذلك الوقت لم يثير عبورهم للمحطة أو صعودهم للقطار فضول أحد من الناس . فهل فعل ما يثير الفضول ؟ . قال بيلو لجان مارك :

– استلق إذا اردت . سوف يغادر القطار فى الحادية عشرة ، ولن نكون فى باريس قبل السادسة صباحا . سبع ساعات كاملة تكفى كى ينام المرء فى هدوء ! . قال جان مارك :

– شكرا يا سيدى . لا أشعر بالنعاس . نظر جان مارك بقلق إلى الستائر المدلاة التى حلت محل زنزانة الاعتقال التحفظى . قال بيلو ثانية :

– إذا خطر شيء ببالك فلا تتردد فى الافصاح بذلك لى أو لديلورم . لا أظننا سنستغرق فى النوم فى وقت واحد . سيقوم المستيقظ منا بتسجيل ذلك .

أمّن ديلورم بارتياح على قول المفتش بيلو . أما جان مارك فقد رأى أن يبادر إلى الاستفادة من النصح الذى سمعه لتوه : هل يمكنك أن تستجوب الحمَّال عند وصولنا إلى محطة ليون ؟ . فهو قد رأى عملية تبديل الحقائب! ورأى السيارة عندما انطلقت كالشهاب . قال بيلو :

– لن يكون الحمَّال بالمحطة غدا صباحا ، فهو يعمل فى المساء . ولكن لا تقلق ، فسنطلب منه أن يشهد . قال جان مارك : شكرا يا سيدى .

كان جان مارك يقول بعد كل شيء . « شكرا يا سيدى » وعندما استيقظ هذا الصباح وتذكر لقاءه عند منتصف الليل بهذا الغريب الذى كان المفتش سنفيل يجلّه أكبر الاجلال ، سأل الحارس الذى اجابه مزهوّا :

« لا تَشْكُ مما بك ، فأنت محطّ عناية أناس فى غاية الأهمية ! لقد جاء بيلو كبير المفتشين من باريس خصيصا لهذه القضية ! » وفجأة تذكر جان مارك صوت المفتش تيفنيه وهو يهتف جذلا فى

سماعة التليفون : « بيلو هو الذى سيتولى التحقيق فى هذه القضية ! » . « اهلا عزيزى بيلو يسعدنى أن القاك » . « إذن سنلتقى عما قريب » .

بيلو يتحكم إذن فى التحقيق وفى مصيره . فإذا اقتنع بشىء تبعه الآخرون قاطبة . لذا كان جان مارك يردّد مخلصا ومن أعماق قلبه : « شكرا يا سيدى » .

انتهت الرحلة بسلام . لم يغمض خلالها للمتهم الشاب ولا للمفتش الشاب جفن . أما بيلو فقد نام نوما هانئا ، رغم عدم تناوله للقهوة . وقال حين استيقظ : تغيير الهواء جعلنى انام مثل هذا النوم .

– ٢ –

ولما وصلوا مقر البوليس القضائى ، ترك بيلو جان مارك تحت حراسة ديلورم ومضى إلى قسم الهوية ، حاملا الطرد الذى يحتوى الحقيبة ووثائق التحقيق ، وذهب بعد ذلك رغم أن الوقت كان متأخرا إلى مكتب بيكار ، حيث وجد تريفلو الذى قال له : السيد بيكار غائب لانه ... قال بيلو : هذا شىء طبيعى .

– لن يتمكن من استقبالك فى الحال . اكمل تريفلو جملته بلهجة عتاب رقيق وراح يفسر الامر . قال بيلو :

– لقد استدعى المحافظ مالبرانش مدير الشرطة القضائية لسؤاله عن أمور تتصل بتحقيق فى أوساط المجالس البلدية لم ترق للمسئولين ، فطلب مالبرانش من بيكار اعداد ملف بهذه القضايا ثم مرافعته ، فالامر يتعلق بجرائم وحوادث قتل ارتكبت فى محافظة باريس خلال الستة اشهر الماضية ولم يعثر بعد على من ارتكبها ، وقد امضى بيكار الليل كله يعد الملف وسيمضى صباح اليوم بمكتب المحافظ . ولكن بيكار مهتم اشد الاهتمام بقضية اليد المبتورة ، خاصة بعد لقاء سيمون بالآنسة شنلونج . قال بيلو :

– حسنا . أرجو المعذرة ! كما أرجو أن تقوم بوضع الفتى بيرجيه فى الحبس المؤقت ، وأحرص على أن تكون الزنزانة نظيفة . ساقول له لماذا لم نقم باجراء التحقيق معه على الفور ، ثم اذهب للقاء سيمون .

كان سيمون وبلوندل وجايارديه رئيس الفرقة ينتظرون بالمكتب العام . قال بيلو : أولاً ، وقبل كل شىء ، ماذا عن زيارتك لاوغستا ؟ . ناوله سيمون التقرير : كان حصيلة ممتازة تسجل كل شىء . سأله بيلو ، بعد أن قرأ التقرير :

– اهذا كل شىء ؟

– كل شىء . اننى اتلهف للقائك بها بنفسك . لقد استدعيت فى الرابعة بعد الظهر وقد استاءت كثيرا لذلك .

استدار بيلو ناحية جاياردية ، بوصفه اعلاهم رتبة . تدخل بلوندل قائلا : نعم ، لقد أوكلت التحقيق فى الحسابات المصرفية الخاصة بالقتيلة لرئيس الفرقة . ثم تحدث جاياردیه :

– لقد كانت الآنسة سارازان فاحشة الثراء ، ولكنها لم تعد كذلك وأن بقى لها ما يكفى لتعيش عيشا هانئا تحسد عليه . كانت تلك البيانات التى حصلت عليها من مدير البنك . لم أحصل على أرقام بطبيعة الحال لأن التركة لم تفتح بعد ... كما أعطانى مدير البنك عنوان الموثق . السيد برافيه شارع مالزيرب ، أتذكر ؟ لقد قابلناه عند التحقيق فى جريمة برويير دى سيفر ، قضية المربية والجسد الممزّق . قال بيلو :

– سيصبح هذا الموثق متخصصا فى العملاء اللذين تمزق اوصالهم !. لننتهى اولا من حسابات الآنسة سارازان . هل لها خزانة ؟

– خزانة كبيرة ختمت الآن بالشمع الأحمر .

– وماذا عن الموثق ؟

– ليس بحوزته أية وصية ...

– هذا شيء مؤسف .

– على كُلّ ، لم تودع وصيتها عنده . قال سيمون :

– ولم أجد فى نويبى شيئا يشبهها . ثم اضاف جاياردیه قائلا :

– ولا يعلم الموثق للآنسة سارازان ورثة مباشرة ، فهى لا اطفال لها ولا اقرباء على قيد الحياة .

– ألم تتزوج ابدا ؟ كلا . وماهو مصدر ثروتها ؟

– ابوها وجدّها لامها . امثال هذه الزيجات تثمر مالا ولا تخلف اطفالا . (ضحك الجميع حتى جاياردیه) . صناعات كيماوية على نطاق عالمى . وقد اخبرنى مدير البنك أنها كانت عالمة بخبايا البورصة علمها بلوحات فان غوغ . ولكن من يضمن نتائج المضاربة فى سوق الأوراق المالية ؟ . كانت الآنسة سارازان نفسها تردد ذلك ولابد أن للآنسة سارازان ممتلكات فى الخارج . قال بيلو : ماذا ؟. قال جاياردية :

– هل هذا التعبير لك ؟

– كــــلا .

– يا للاسف . لقد ارضيتنى ، ولو واصلت لأرضيتك . والآن بقى أن نتحدث عن مجموعة اللوحات . قال بلوندل

– إذن فقد جاء دورنا أنا وريفيير للحديث . قال جاياردیه :

– دعنى أكمل ، لو سمحت . ولكننى لن اتحدث عن اللوحات الا انطلاقا مما سمعته عن الموثق والصرّاف . لقد أكدا أن اللوحات كانت ثروتها الحقيقية . قال بلوندل لجاياردية ، معتذرا له عن مقاطعته :

– اننا ننقل ما أكده لنا الخبراء . قال بيلو :

– ذلك فى غاية الأهمية ، فالعديد من جامعى اللوحات يخطئون فى تقدير لوحاتهم . ماذا قال خبراء اللوحات يالوندل ؟

– وجدنا بين تجار اللوحات أبرز خبراء الرسم الحديث . إلتقى ريفيير بقسم منهم والتقيت أنا بالقسم الآخر . وهناك اسماؤهم وعناوينهم . والحرف « خ » امام الاسم يعنى أن الشخص يُعدّ خبيرا معتمدا لدى المحاكم ايضا . كلهم اذهلهم النبأ حين طالعوه فى صحف الصباح . ليس فقط للشهرة التى تحظى بها مجموعتها الخاصة وهى من الدرجة الاولى ، خاصة لوحات فان غوغ . وقد ذكروا لنا اسماء لوحات شهيرة ، أليس كذلك يا ريفيير ؟

– بلـــى .

– لقد دوّنّا اسماء هذه اللوحات ، ويبدو أنها مشهورة للغاية . ماذا كنت أقول ؟ نعم ... أن اسفهم لا يقتصر على فقد عميلة ، فقد كانوا يعتبرون الآنسة سارازان جزء من جماعتهم . قال ثلاثة منهم أنها تعرف عن فان غوغ أكثر مما يعرفه أى شخص آخر على الاطلاق . ويقال أنه لا يوجد كتلوج يفصّل أعمال فان غوغ وأننا لا نعرف كل اللوحات التى رسمها وهى كثيرة . وكان للآنسة فضل كبير فى فضّ بعض المنازعات بين الخبراء وكانوا يحثّونها على إعداد كتالوج بأعمال فان غوغ الكاملة ، وكانت تقول : « سأفعل ذلك عندما يمتدّ بى العمر » . ولكن سبق السيف العذل . وأضاف سيمون :

سألتهم عمّا إذا كانت الآنسة سارازان تغش فى الاتجار باللوحات فى بعض الاحيان . قيل لى : نعم ، بلا ريب ، وهذه عادة لكل جامعى اللوحات . ولكن ذلك لا يُسمّى غشّا . كانت تبيع لوحة لم تعد تعجبها لتشترى لوحة أخرى راقت لها لنفس الرسام . ولكن لم يحدث على الاطلاق أن باعت لوحة لفان غوغ . ويقال أنها كانت تقول : «لم يحدث ابدا أن خنت إلهى» . سأل بيلو : أيظن هؤلاء السادة ... (أكمل سيمون ... والسيدات) ... والسيدات ، أنه كان للآنسة أعداء ؟

أجاب سيمون وبلوندل بالنفى . على النقيض من ذلك ، فقد كان لها اصدقاء وصديقات بين جامعى اللوحات من طبقتها ، تلتقى بهم فى حفلات تدشين معارض اللوحات ، أو فى أسواق بيعها . ولما كانت الآنسة سارازان لوحة ناطقة بالحسن ، و « أنيقة بلا حدود » ، فقد كانت هدفا لآلات التصوير ، وكانت تقبل بكل ظرف أن يصورها المصورون كلما طلبوا منها ذلك . كانت تأتى وترجع فى عربتها الصغيرة ذات الاحصنة .

– ألم يكن لها رفيق دائم ؟

– كلا وهذا ما أذهل كل من زارهم المفتشان . وأضاف جايارديه :

– حتى الصراف والموثق دهشا عندما علموا من الصحف أنها كانت « مخطوبة » إلى شاب فى تلك السن ، مغمور ، بلا مركز ، فى الوقت الذى يتمنى فيه مشاهير الرجال زواجها ! قال بيلو :

– حقا ، أهذا كل شىء ؟ قال بلوندل :

– لقد ذهبت إلى كلية الفنون الجميلة . ولكن لسوء الحظ صادف ذلك عطلة اعياد القيامة ، فلم أجد أحدا يعرف جان مارك بيرجيه الا البواب الذى لا يعرف عنه الا القليل : بعد قراءة النبأ فى

الصحف ، حاول أن يتذكر كيف عرف أن الفتى يعمل أثناء فترة الدراسة بمحلات بوغان لصيانة الاثريات ولم يفلح . فى شهر ديسمبر . خطر بذهنه أن يطلب من جان مارك اصلاح تمثال صغير لنابليون ، سقط منه أحد قرنى القبعة ، ليهديه بعد ذلك لزميل له بالجيش ما تزال اسرته ...
– ثم ماذا ؟ . قال بيلو حاثا بلوندل على الحديث .

– شكرا يا سيدى الرئيس . وافق بيرجيه على اصلاح التمثال وأعاده للبواب بأسرع مما اتفقا عليه وهو يقول : « سوف أقطع صلتى بمحلات بوغان وبالكلية لأسباب عائلية ! » وكان الجذل باديا على ملامحه .

– هل ذهبت إلى محلات بوغان بعد ذلك ؟ قال بلوندل :
– كلا ، قدرت أنك تؤثر أن تفعل ذلك بنفسك .
– أصبت . شكرا ايها السادة . لقد أحسنتم استغلال الوقت .

– ٣ –

امتهن آل بوغان ، منذ ايام لويس الخامس عشر ، حرفة اصلاح التحف الاثرية أبا بعد جد ، وكذلك فَعَل أصهارهم . وكان اسم الشهرة يطغى على الاسماء الحقيقية الموروثة عن الآباء ، وبذلك تم تأسيس سلالة أقوى من سلالات ملوك فرنسا ، طبقت شهرتها آفاق البلاد .
وقد كانت صناعة الخزف حرفة آل بوغان الاولى وكان من الطبيعى ان تنمو مع هذه الحرفة حرف أخرى تلازمها مثل الرسم والقولبة . وكما أكد السيد لويس بوغان لبيلو ، فمثل هذا العمل يحتاج إلى حرفيين من « ذوى الدرجات الرفيعة » ، لاصلاح تحف كالاباريق ذات العروة ناقصة الأقدام أو رسوم كادت تنمحى .

– كان جان مارك بيرجيه يُحسن الرسم ، وقد رسم لنا رسوما رائعة . كان يفعل ذلك حسب توجيهنا له ولكن التوجيه وحده لا يخلق فنانا ماهرا . اندهش وهو يسمع السيد بوغان يكمل حديثه قائلا بلا حماس :
– هذه هى سنة الحياة . ولك أن تعلم أن أمثال هؤلاء المتعاونين يحصلون منّا على أجور لا يحصلون عليها على الاطلاق من غيرنا ، وكان جان مارك يعلم أننا نساعد الطلاب منهم على انجاز دراستهم . كنتُ أريده أن يعمل معنا طيلة حياته . فمن المتعاونين معنا من ظَلّ يعمل حتى بعد سن التقاعد ! ولكن قبل اسبوعين أو ثلاثة من عطلة عيد الميلاد ، جاءنى ليقول لى بالحرف الواحد :
« لقد كنت برا بى يا سيدى بوغان ولكننى وجدت عملا ممتازا ، سأهجر من أجله كل شيء ، وحتى الكلية . ولا تسألنى الآن عن طبيعة هذا العمل ! » . أجبت بقولى: « إفعل ما بدا لك ، فأنت الآن مسئول عن تصرفاتك ، غير أنى أرى ألا تستهين فى مثل هذه السن بالشهادات ، خاصة وأنت من النباهة بحيث لا يكلفك الحصول عليها جهداً يذكر » . وإذا بنا نعلم بعد فاجعة عميلتنا الممتازة

الآنسة سارازان أنهما كانا مخطوبين ! هل حدث أن رأيت الآنسة وهى على قيد الحياة ؟ . قال بيلو :
– كلا ، فعملى يتعلق اكثر بالموتى . حدث ما كان يخشاه بيلو ، إذ لم يتبسم السيد بوغان لقوله .
– أؤكد لك يا سيدى المفتش أنك لو كنتُ قابلتها ولو مرة واحدة وهى على قيد الحياة لهتفت مثلما فعلنا نحن هنا عند سماعنا النبأ : « كلا ، مستحيل ! » .

قال بيلو وقد بدأ صبره ينفذ : « الحب أعمى » . أحنى السيد بوغان رأسه فوق بذلة العمل النظيفة التى تناسبه كفنان يعمل بميدان فاندوم وقال : هل تعلم اننى مشغول بهذه القضية منذ أمس مساء ؟ وسأقول لك ما توصّلت اليه ، إذا سمحت بذلك .
– إننى مصغ إلى ما تقول ، يا سيد بوغان .
– أى شيء يجمع فنانين غير الفن ؟. (بدأ بيلو فجأة ينظر إلى السيد بوغان نظرة مغايرة) . كان كل من جان مارك والآنسة سارازان فنانا على طريقته الخاصة . ولذلك يبدو للوهلة الأولى مستغربا أن تنشأ علاقة بين هذه الباريسية ذات الخمس والثلاثين عاما وذلك الليونى الشاب ، بين هذه المرأة المتمرّسة وذلك الفتى اليافع ! ولكن قد يقع الحب بين شخصين يجدان ذات المتعة فى النظر إلى لوحة أو تحفة ما .

رفع السيد بوغان رأسه وقال : لا تعجب لما اقول ، فأنا أحمل شهادة فى علم النفس . قال بيلو :
– نعم ، نعم . أتظن أن مرتكب الجريمة قد يكون عاشقا مهجورا ؟
– كل الدلائل تشير إلى ذلك . إن الأمور واضحة وضوح الشمس .
– هل تعرف شخصا بعينه كان يحوم حول الآنسة سارازان أو حول جان مارك ؟ لابد أن كل زملائه بالمرسم اكبر سنا منه ، اليس كذلك ؟
– بلى ، قال السيد بوغان ، ولكن لا ، ليس هنا ! ولا أعرف شخصا يحوم حول الآنسة سارازان . أما عن جان مارك فأذكر اننا تلقينا رسالة من جدته بعد رحيله .
– هـ . جدته ؟ هل تعرفها ؟
– كلا . كانت تودّ أن تعرف إن كان لا يزال يعمل بالمحل . اجبتها بالنفى وأنا أعجب لِمَ لم يخبر جان مارك أهله بموقع عمله الجديد ...

– ٤ –

– أدخل ! قال السيد بيدا وهو لا يريد أن يترك قراءة صحيفة « لوقراند جورنال » بمكتبه الصغير ليستقبل الطارق على زجاج الباب الموارب .
– صباح الخير يا سيدى . آسف أشد الأسف ، ولكن لا يسعنى الا أن اخبرك بأن الفندق ملىء كما هو مكتوب بالخارج ولا فائدة من الذهاب إلى فندق آخر لهذا الحى .
– السيد بيدا ؟

– بكل تأكيد ، قال السيد بيدا وهو يهبّ واقفا وقد رأى بطاقة مألوفة تمسك بها يد الطارق . أأنت شرطى ؟ لستَ من الشرطة على أية حال ، فأنا لا أعرفك .
– كلا ، إننى من الشرطة الجنائية . بيلو كبير المفتشين .

أسرع السيد بيدا إلى تقديم كرسى للمفتش . قال :
– أواه ، يا سيدى كبير المفتشين ، لقد تشرفت عندما قرأت فى الصحف أنك تتولى التحقيق فى هذه القضية المقيتة ! إجلس ، اجلس ! ظللت متردّدا يوما كاملا بين أن أحضر إلى مكاتب الشرطة الجنائية أو أن أنتظركم هنا فى مكان ... كُدتُ أقول فى مكان الجريمة ، ولكن لحسن الحظ لم تقع الجريمة هنا ولكن فى مكان اول من تهمّهم الآن هذه القضية بعد الآنسة سيئة الحظ ...

كنت أود أن اعبر عن شكرى لشرطة ليون وباريس ، أو بالاحرى شرطة باريس وليون ، لتجنّبها ذكر اسم « فندق مارسيليا » للصحفيين . فهذا النوع من الدعاية يضرّ أصحاب الأعمال وخاصة أصحاب الفنادق . صُدمتُ حين قرأت النبأ صباح أمس فى صحيفة « قراند جورنال » : سنة كاملة والفتى معنا ، يحظى بعطفنا أنا وزوجتى كأنه ابن لنا . ستؤكد لك زوجتى ذلك حين ترجع من السوق . وقبل ساعة من مغادرة الفندق فى يوم الاحد ، قمت باعداد مشروب ساخن له . كان قد قال لى : لا رغبة لى فى العشاء ، فقد ذهب البرد بما كنت اشعر به من جوع ، هذا علاوة على اننى سأصاب بالغيثان إذا أكلت قبل السفر بالقطار » . البرد ... البرد ... أتتصور ذلك !
– ماذا يا سيد بيدا ؟

دفع السيد بيدا بيديه إلى الامام وهو يقول : لا شيء ، لا شيء يا سيدى كبير المفتشين ، انك تظن أننى أتجرأ ! ينبغى علىّ أن أجيب على اسئلتك بكل أمانة ووضوح ، لا أن أطرح عليك الاسئلة !
– طالما أنك قرأت الصحف صباح أمس ...
– كل الصحف ، كل الصحف ! بعد قراءة صحيفة « قراند جورنال » .
– فلا بد أنك قد قرأت ما قاله عن استبدال احدى حقيبتيه . (عقد السيد بيدا يديه فوق بطنه ولم يقل شيئاً) . ذكر أنه بقى وقتاً طويلاً مع صاحب الفندق الذى كان يسكنه ، ينتظر قدوم سيارة تاكسى فى تلك الليلة العاصفة ...
– نعم لقد قال الحق .
– ... وأنه بعد انصرافك بقليل ، حضر « الامريكى » بسيارته ودار بينهما حوار قصير ، قاما بعده برفع الحقيبتين إلى السيارة ثم غادرا الفندق .

أجاب السيد بيدا بنبرة حادة : هذا صحيح وقد حدث كل ذلك هنا ، خلف هذا الباب ، دون أن تصلنى كلمة مما دار بينهما . أنا هوراس بيدا ، لى أذن مرهفة ، وقد خضت جحيم معارك فيردان

جنديا بسلاح الاشارة لقوة حاسة السمع عندى . وعندما طالعت ذلك الجزء من الصحف كان وقعه عليّ أقوى من ضربة على أم رأسى . قال بيلو :

– لعل الباب كان مغلقا ، إننا لا نسمع شيئا الآن عما يدور بالخارج .

– أنت لا تسمع يا سيدى كبير المفتشين . أما أنا فأسمع ! ولكن بيلو لم يحد عن رأيه :

– كان المطر ينهمر ، ولابد أن صوته على المظلة كان مسموعا . أجاب السيد بيدا بسخاء :

– إننى اقدر موقفك تماما يا سيدى المفتش ، فلا يجوز أن يدفع الابرياء ثمن ما يفعله المجرمون ولكن لا تستهين إلى هذا الحد بسمع مثل سمعي وتحسبنى أصمّ ! وفجأ صاح السيد بيدا وكأن الالهام هبط عليه : هه ! سأبرهن لك على كذبه ! وأريك كيف خطرت كذبة الامريكى بباله ! عندما كنا ننتظر التاكسى ، كان جان مارك متوتر الأعصاب وبلغ به التوتر خوف أن يفوته القطار حدًّا جعله يشير لكل سيارة مارة ، أيا كان نوعها . حتى أنه أشار مرة إلى سيارة رولزرويس ! عندئذ قلتُ له مازحا :

« كنتَ ستُصعق لو وقفتْ لك هذه السيارة ! » . هذه هي كلماتى بعينها يا سيدى المفتش . وعندما سأله رجال الشرطة بليون تذكَّر ما قلته له وقال فى نفسه : « أوه ... بيدا ، ذلك العجوز الغبى . لم لا ؟ » . حَكَّ بيلو جرحا فى عنقه أصابه فى قضية سابقة وقال :

– إنك تُلقى بتهمة خطيرة جدا يا سيد بيدا .

– إننى لا أتهم أحدا على الاطلاق ! . قال بيدا محتجا بشدة : إننى أروى ما حدث دون تحريف ، وعندما لا يتوخّى انسان جانب الدقة أقول ذلك ولا أزيد عليه .

– هل تعتقد ان جان مارك لم يلتزم الدقة عند سرد وقائع أخرى كذلك ؟ . غمز السيد بيدا بعينيه ثم غورهما : كلا . فى رأيى انه سرد بقية الوقائع بدقة ولكنه حذف بعض التفاصيل ... لقد حدّثنا عن كل شيء الكلية : العمل ، الاسرة ، « خطيبته » . دُهشنا حين علمنا من كانت تلك الخطيبة ! إنها تكبره بأثنى عشر عاما ! خمس سنوات فقط وتكون فى عمر زوجتى ! وُلكن كثرة الأوراق المالية اقدر من شرائح اللحم على إزالة التجاعيد عن الوجه ! هناك لغز غامض فى هذه القضية ، يجعلك فى موقف لا تحسد عليه !

– كيف قضى جان مارك نهار الاحد ؟

– كيف قضى نهار الاحد ؟ لا أعرف عن ذلك شيئا ! إن فندق لا يقدّم الطعام للنزلاء ، فأنا لم أجهّزه لهذا الغرض ، ولهذا علاقتى طيبة مع أصحاب المطاعم فى الحى . ولكن الامر يختلف إذا كان من بين النزلاء مرضى يلزمون الفراش . يمكن فى هذه الحالة اعداد شرائح صغيرة من اللحم أو تقديم البابونج لهم . وكان على جان مارك أن يفعل ذلك ، أى أن يلزم سريره نهارا قبل أن يسافر فى ذلك الطقس الردىء !

– فى أى ساعة خرج ؟ . مد السيد بيدا اصبعا نحو المفتش ، ولكن سرعان ما أرجعه لئلا يوصم بالوقاحة .

– لقد وصلت يا سيدى المفتش إلى نقطة مهمة جداً : إن هذا المكتب لا يخلو عادة منى أو من زوجتى . نبقى فيه لاجراء الحسابات أو للقراءة . الباب يظل دائماً مفتوحا ، وكما ترى فإن لوحة المفاتيح قريبة منه . وعندما نسمع وقع خطوات قادم غريب أو مستأجر جديد نرفع رأسنا حالا وننظر ونسمع ونلاحظ ، بل قل نراقب ! ولكن قد لا نهتم إذا كان القادم شخصا من نزلاء الفندق ، فقدت اعتدنا على سماع حركاته وهو يدخل ويخرج . وكذلك عندما يأخذ شخصا مفتاحا من لوحة المفاتيح ، نُدرك أنه مفتاح الفرقة ٥ أو ١٤ أو ٩ . ولكن فى أحيان أخرى لا ننتبه ولا نسمع ذلك لأنه صار جزءا من حياتنا دون أن نشعر به .

– إذن فى أى ساعة رأيته يوم الأحد ؟

– ليس قبل حلول المساء ! كان باب حجرته مواربا ، الحجرة رقم ٥ التى ذكرتها لك قبل قليل . وكان يُعدّ متاعه للسفر . عرضت عليه مساعدتى ! كانت سحنته كالخارج من القبر ... ولكننى عزوت الأمر إلى نزلة برد أصيب بها ! وكانت تفوح منه رائحة الخمر .

– هل اعتاد أن يشرب الخمر فى بعض الأحيان ؟ . بدت من السيد بيدا حركة استهجان ، فمطّ شفتيه وهو يقول :

– كلا ، لم يكن يشرب الخمر مطلقا .

– هل كان يستقبل أحداً بالفندق .؟

– كلا ، على الاطلاق . ولكن الحى اللاتينى ومونبارناس يغصّان بالحانات ، إذا كان للانسان علاقات مشبوهة ، حتى ولو لم يكن يشرب الخمر . تلك هى الاماكن التى يتعين على الشرطة مراقبتها ، بدلا من التردد على مثل هذا الفندق ! إننى لا أتحدث عن مجيئك إلى هنا اليوم ، ولكن عن زيارات الشرطة الروتينية .

– تلك الأماكن مراقبة يا سيد بيدا .

– ليس كما يجب يا سيدى كبير المفتشين .إنها أماكن نتنة ! تكبره بأثنى عشر سنة ، ثم الثروة التى كانت تمتلكها ! يا للتعاسة ...

– متى قرّر جان مارك السفر إلى ليون ؟

– قبل ثمانية أيام على أقل تقدير . كان يقول انه لو لم يسافر لجاءت جدته إلى باريس ! وهو كان يخشى ذلك ، نعم ! كان يريد أن يُفهمها أنه ماضٍ فى عزمه وأن الزواج وشيك التمام . ولكن لو كان الأمر كذلك فَلِمَ لم يدعها تحضر ويستقبلها فى منزل « خطيبته » ؟

– وهل واجهته انت بهذا الاعتراض ؟

– يا سيدى كبير المفتشين ، عندما يتحدث الرئيس لا يجرؤ المرؤوسون فى العادة على بيان ما فى حججه من عيوب . وصاحب الفندق فى موقف المرؤوس ازاء العملاء ، ولكن هذا لا يمنع من معرفة ما فى الحجج من عيوب !

– هل ترك معك امانات قبل أن يغادر ؟

– لوحات من رسمه . إنها لا تسوى شيئا ! . قال بيلو : أرنى هذه اللوحات . ثم أردف وهو ينهض : وسنحدد موعدا للقاء .

نهض السيد بيدا بدوره وهو لا يخفى ارتياحه من انتهاء المقابلة ، ولكنه تسمَّر فى مكانه حين سمع قول المفتش الأخير : موعد ؟

– نعم ، فشهادتك مهمّة فيما يخصّ الحقيبتين .

– لم أفهم يا سيدى المفتش . ماذا تعنى ؟

– لقد عرضتَ على جان مارك حراسة الحقيبتين ، بينما يذهب هو إلى سان جرمان دى برى لاحضار التاكسى ...

– كان ذلك مساعدة له ! مساعدة له فقط .

– طبعا ، طبعا . إننى لا أشك فى ذلك ابدا . هل تذكر شكل الحقيبتين ؟. ابتسم السيد بيدا .

– حقيبتان ؟ ليس ذلك بالشىء العسير !

– إذن عليك الحضور إلى مقر البوليس القضائى عند المساء لترى الحقيبة .

غاصت ابتسامة السيد بيدا فور سماعه ذكر الحقيبة : الحقيبة الدامية ؟

– بعينها . فإذا كانت واحدة من حقيبتى الفتى ، فسنعرف أنه ألّف كل ما قاله عن الامريكى . أما إذا قدرت أنها أكبر أو أصغر بقليل ... لم يكمل المفتش جملته ، أما السيد بيدا فأخذ يحدق فى طرف حذائه . قال بيدا :

– وفى هذه الحالة سيختلف الأمر . حاسة سمعى قوية جداً ولكن نظرى ... كما أنه ، يا سيدى كبير المفتشين ، أنزل الحقيبتين بنفسه ووضعهما خلف المدخل . لم أرفعهما ولم أتأملهما حقا إذا توخينا الدقة . ومع حسن نيتى ...

⑧

صـوت يصمـت وجـدار ينطـق

- ١ -

الساعة تشير إلى الرابعة مساء . تناول بيلو مفكرته وكتب بعض الكلمات ، ثم مدها إلى تريفلو الذى اقترب ليقرأ ورجع ليجلس فى كرسيه ، بعد ان اشار برأسه بعلامه « كلا » . كان بيكار قد شرع فى استجواب جان مارك الذى كان يجيب فى أول الامر ثم صمت تماماً عن الاجابة . فما ان يتحرك بيلو ، حتى يصيب الذعر الفتى أو يحس بانه وحيد ضائع . كان فى جان مارك شيء يشبه تصرفات الكلاب وما يحب بيكار من الكلاب إلّا الاصيلة ، خاصة هيكتو كلب ابنته جينان ، وهو كلب خشن الشعر كثير النباح ولكنه رقيق القلب ، وهكتور لا يشبه المخلوق الجالس أمامه .

قد حدّد رأيه فى جان مارك . ضرب بيكار المنضدة بقبضة يده فأجفل جان مارك . فى تلك اللحظة وضع بيلو المفكرة فى جيبه وفيها الجملة التى أجاب عليها تريفلو بالنفى : « هل حضرت الآنسة شنلونج ؟ » .
- لا تجعلنى اكرر كل سُؤال اطرحه عليك يا سيد بيرجيه ! لا تظن ان الزمن سيكون فى صالحك .

تمالك السيد بيرجيه نفسه رغم انه ظل لاهث الانفاس ، قلق النظرات . واخذ يتحدث حديثا له معنى :
- لا افهم ما ى يا سيدى . فانت تفعل معى تماماً ما فعله رجال الشرطة بليون . لماذا ؟ لماذا تسألونى عن « سى » وتضيقون « على » بدلاً من سؤالى عما يمكن ان يهديكم إلى القاتل . اليس هذا هو الاهمّ ؟ تتهمونى باننى اخفيت عن اهلى نبأ تركى العمل بمحلات بوغان ، وان تبريرى لذلك يختلف حسب الظروف . أتعرفون شابا لم يخف البتة شيئا عن اهله ، لاسيما إذا كان بينهم جَدّة مثل جدتى ؟ أو لم يحّور الحقيقة تحويرا خفيفا فى لحظة من اللحظات لتفادى المشاكل ؟ . قال بيكار متذمراً :
- « تحويرا خفيفا » . هل حوَّرت الحقيقة تحوير خفيفا » ؟ قلتَ فى ديسمبر لبواب الكلية انك ستسافر إلى ليون . ولمخدمك انك وجدت « عملا » أكثر اغراء . ولكنك لا رجعت إلى ليون فى ديسمبر ولا اخبرتنى عن طبيعة هذا العمل حين سألتك عنه . الا تقرر على الاجابة ؟
- بلى يا سيدى المفتش . استطيع أن احييك لا فيما يخص العمل ، فلم يكن هناك عمل ، ولم اذهب إلى ليون كما زعمت . لقد قلت ما خطر بذهنى فى تلك اللحظات لبواب الكلية ، وبدا لى مقبولا

كطالب من الريف . وزعمت للسيد بوغان انني وجدت عملا أكثر إغراءً – أكان بوسعي ان اقول انني والآنسة سارازان احببنا بعضنا من اول نظرة وانها قالت لي : « اريدك ان تتوقف عن العمل . اريدك ان تكون لي متى ما احببت ذلك . اريدك ان تكون لي دائما إذا راق لي ذلك » ؟ . قال بيكار :

– أيعني ذلك انكما تغاضبتا حين قررت الذهاب إلى ليون يوم الأحد ؟ . أجاب جان مارك محتجا بعنف :

– كان الامر نقيض ذلك ، نقيضه تماماً . وقد ظللت أردّد هذا طيلة اليومين الماضيين . كنت قادما لبحث الامر مع اهلي ، لان امر زواجنا كاد يصبح حقيقة . (ثم راح يصرخ) نعم ، ذلك هو السبب . لقد أراد احدهم ان يمنع هذا الزواج . صاح بيكار بصوت اعلا منه : من ؟

– لا ادري من يكون . بلى ، أدري مِن فعل ذلك وان كنتُ لا اعرفه شخصيا . انه سائق لسيارة ، الامريكي المزعوم ذو الاصل الايطالي الزائف ، ذلك المجرم القذر .

قال بيكار هازئاً وهو يمدّ يده يختار سيجارة من علبة أمامه :

– الامريكي الشهير صاحب السيارة السوداء ، وحقائبك وحقيبته ... تربّص بك في ظلام الليل العاصف الممطر . الملاك الذي انقذك والشيطان الذي أودى بك إلى الهلاك ! صحيح انك لا تعرفه ، ولو كنت تعرفه لما استطاع أن يستدرجك إلى الفخ الذي نصبه في دهاء واحكام . ولكن ، أما دار الحديث بينك وبين الآنسة سارازان مطلقا عن معارفها ؟ انك تلومنا لاننا لم نستعن بك للاهتداء إلى القاتل . لقد حانت لحظة التعاون ، فلنتعاون . لنتعاون . إني مصغ لما تقول .

تكوّر جان مارك على مقعده . لم يفعل ذلك لانه كان ينقّب داخل نفسه وانما تعبيرا عن استسلام مفاجيء وعجز مطلق . غمز بيكار بعينه وكأنه يقول لبيلو « أرأيت ما أفعل ؟ » . أما تريفلو فانتهز فرصة الصمت ورفع رأسه مستطلعا ، بعد ان كان منهمكا في تدوين التحقيق . أجاب جان مارك بعد صمت طويل :

– بالتأكيد ، كنا نتحدث في بعض الاحيان عن معارف الآنسة سارازان . عن تجار اللوحات وعن من لهم صلة بعالم الرسم . قال بيكار متلطّفا :

– حسنا . لنبحث عن القاتل بين من ذكرت . لِمَ لا يكون المجرم احد اولئك التجار ؟

– لم تكن الآنسة سارازان تهتم باحد اهتماما خاصا .

– باستثناء جان مارك . أما كانت تتضايق من تقربهم اليها دون ان يعني هذا انها تهتم بشخص سواك ؟ لقد كانت غنية وجميلة ومثلها يتدافع نحوه العشاق . أما حدث مطلقا ان عادت الآنسة إلى البيت وقد سبقتها اليه وهي تقول : « أوه لشد ما يضايقني السيد فلان أو علان كلّما لاقيته » ؟ ألم تشر اليك بمثل ذلك وانتما تستمتعان بدفء المدفأة ؟ لقد حدثتها عن الآنسة شنلونج ...

– نا ؟ (عادت الحيوية فجأة إلى جان مارك) هذا ادعاء كاذب . أما انني قد اهديتها الخاتم المرسل

فى الاصل لاوغستا فهذا صحيح ، لكن لم يحدث البتة ان حدّثتها عنها .
– أوه ، قال بيكار وهو يعقد ذراعيه متأسفا ، ها انت تعود الى كتم اسرارك ... أدخِل الآنسة شنلونج ، يا تريفلو .

كان جان مارك يدير ظهره للباب فأخفى رأسه بين كتفيه ، كأنما اراد ألا تعرفه عينا أوغستا . نظر تريفلو متحيزا الى بيلو ثم قال :
– حالا يا سيدى .

ما كاد تريفلو يقول ذلك حتى رَنّ جرس التلفون . قال تريفلو : ألو ! . وانصت ثم قال : سأحولك إلى المفتش بيلو .

تناول بيلو السماعة وضغط بيكار على زرّ وتناول سماعة أخرى ليتابع المكالمة . كان المتحدث سيمون .
– أنا بمنزل الآنسة شنلونج . لقد اضطررت إلى دخوله عنوة . لقد سمّمت الآنسة شنلونج نفسها ، تناولت شيئا لا أدرى ما هو ، وقد أرسلت فى طلب الاسعاف . سأله بيلو : كيف حال الآنسة ؟
– أنها فى غيبوبة عميقة فيما أرى . توجد ورقة على المنضدة سأقرأ عليك ما بها . « عفوا جان مارك . أغفر لى كل شيء » .

– ٢ –

وصل بيكار وبيلو مستشفى كوشان مع سيارة الاسعاف . سبقهما الاسعاف إلى دخول المستشفى . كان سيمون يجلس جوار السائق ، فرآهما وأومأ لهما برأسه . قال بيكار لبيلو :
– ماذا يعني ذلك ؟ أيعنى انّ حالتها خطرة ؟ . أجابه بيلو :
– أرجو ألاّ يكون الامر أسوأ من ذلك ! . رمقه بيكار بطرف عينه .
– أدرك ما [illegible] اليه . ولكن لو كان الامر كا تظن ، فهذا يدل اولا أن الفتى بيرجيه ليس القاتل ، وثانيا ان القضية قد انتهت . اجاب بيلو : أرجو أن يكون الامر كذلك .

قاد أحد عمال المستشفى بيلو وبيكار إلى حجرة الانتظار واخذ بيكار يكرر النظر إلى ساعته ، بينما بقى بيلو ساكنا كتمثال . وبعد اثنتى عشرة دقيقة خرج سيمون وقال :
– لقد ماتت بعد ان تجرعت من الدواء الذى ذكرتُه لها ما يكفى لاحداث الوفاة . سيشرّح الاخصائيون الجثة . اخرج سيمون من محفظته ورقة وناولها لبيكار : ها هى الرسالة التى تركتها . هل هذا خطها ؟ . نعم ، لقد تأكدت من ذلك .

كان الحزن يبدو على ملامح سيمون . وقف بيكار وسأل المفتش بيلو الذى ظل صامتا : اظنك توافقنى انه لا داعى لبقاء سيمون هنا ، سندرس المسألة معا . نهض بيلو وسأل سيمون :

– هل أغلقتَ منزل الآنسة شنلونغ ؟
– بكل تأكيد . وفى السيارة سأله ايضا : لماذا ذهبتَ إلى هنالك ؟

هزّ سيمون كتفيه وكان يجلس فى المقعد الامامى مديرًا ظهره لركاب المقاعد الخلفية . لم يستدر وهو يجيب على السؤال : كنت منزعجا . ومنذ الامس مساء ينتابنى إحساس بأننى اخطأت حين تركت الفتاة بتلك الصورة . خشيت ان اكون قد زعزعتها بكلماتى القاسية ... قال بيكار :
– أرجوك ! تهمّنا نفسية الآخرين لا نفسياتنا نحن . إن القسوة قد تأتى احيانا بنتائج ايجابية .
– كما فى هذه المرة ، علّق بيلو دون أدنى انفعال .

تطلع بيكار إلى صفحة خد بيلو ، مثلما فعل منذ قليل . واصل سيمون حديثه : خشيت ان يمنعها الرعب من المجيء ، فرأيت ان أحثّها على ذلك . كنت سأطمئن لو لم اجدها ، ولكن ... قال بيكار :
– على تيفنيه ان يبلغ الخبر بنفسه لآل شنلونغ ، حاملا معه الورقة التى تركتها الفتاة ، حتى لا يشكّوا أنها انتحرت . ومهما يكن من أمر فستُخفى الورقة عن الصحافة فى الوقت الحاضر على الاقل .

وحين دخلوا مكتبه ، قال بيكار لتريفلو : لقد ماتت الفتاة .
– حقا ؟ ، قال تريفلو بأدب .
– بعد ان اتهمت نفسها بفعل كل ما حدث (إتّسعَتْ حدقتا تريفلو) . أطلب لى المفتش تيفنيه باسرع ما يمكن .
– حالا يا سيدى .

إلتفت تريفلو ناحية بيلو : يود المفتش بلوندل رؤيتك ، حالما كان ذلك ممكنا . حدث اكتشاف مذهل فيما يبدو . سأله بيلو : أين ؟ . هنا . الاكتشاف . لا ، بلوندل .

تهالك بيكار على مقعده واشار على بيلو وسيمون بالجلوس على الكرسيين المعدّين للزوار . ولكن بيلو ظل واقفا وقال : بلوندل فى انتظارى . أيمكننى ان اذهب لرؤيته .
تناول بيكار مسطرته وجعل يعاملها كأنما هى مقياس ، ثم قال :
– ولكن هل فعلت هى ذلك أم غيرها ؟ . جعل سيمون ينظر اليه وهو لا يفهم شيئا مما يقوله :
– « هى » مَنْ ، يا سيدى ؟
– هى ! « اغفر لى كل شيء » : ألا يعنى ذلك أنها تُقرّ بكل ما حدث ؟ . نظر بيلو إلى سيمون الذى واصل حديثه بنفس الدهشة والعجب :
– أتعنى اغتيال الآنسة سارازان ؟ . رد بيكار محتدّا :
– قل لى بربك ما يمكن ان اعنيه خلاف ذلك ؟

ورغم ان احترام سيمون لبيكار يوازن احترامه لبيلو وان كان احتراماً يشوبه مشاعر البنوة ، إلّا انه اجاب دون مجاملة : ولكن هذا مستحيل ! مستحيل !
– حسناً . ليمض سيمون فى توضيح رأيه ، وهو معقول فى نظرى . سأعود بعد قليل .

قال تريفلو لبيكار بينما كان بيلو يتأهب للخروج :
– المفتش تيفنيه على الخط يا سيدى .

– ٣ –

كان بلوندل عاكفاً على العمل بمكتب الفرقة حين دخل عليه بيلو ، فهب واقفا وصاح : آه أيها الرئيس ! لقد بدأت فى كتابة التقرير . لعلنا كشفنا عن شيء ما كنا نتوقعه .
– دعنا نجلس . ثم هات ما عندك :
– قبل ساعة نلفن توسان من نويبى –و والشرطى ماليكورن يقومان بالحراسة هناك – سألنى إن كنت استطيع الذهاب إلى نويبى ففعلت . وجدته واقفا عند أحد أركان المنزل ومن مكانه يمكن للانسان ان يرى إلى اليمين واجهة المدخل وإلى اليسار جانبا من جوانب المنزل يطل على الحديقة . قال لى مشيرا بيده : « أنظر إلى النافذة : كانت هناك ثلاث نوافذ فقط عند زيارتك للمخازن ، والثلاثة فى جهة اليمين من ناحية الواجهة . ولكن تلك النافذة الرابعة ما هى وظيفتها ؟ أين المخزن الذى تضيئه ؟ إتبعنى وسترى بنفسك » . وحين صعدنا إلى الدور الثانى ، وجدت المخازن الثلاث ملأى باكداس الحقائب والصناديق والخِزانات ، كعهدى بها . ولكن حين ازاح توسان دون عناء كومة من الصناديق الفارغة من أمام الجدار ، وجدنا خلفها بابا مغلقا بالمفتاح . بلا مفتاح .
– هل كان فتحه سهلا ؟
– مستحيلا ! لقد وجدناه مُؤَمَّنًا .

كان بلوندل مزهوًّا لما يقول ، زهوا جعله يحمرّ كعذراء رأت رجلا عاريا لاول مرة فى حياتها[1] . قال بيلو ، وقد بدا عليه الرضى قبل نهاية الحكاية : ولكن ...
– لا ادرى لماذا ، ولكن لم يكن ثمة ما يدعونى إلى التفكير فى مفاتيح الآنسة سارازان ، بعد ان علمنا من ريفيير ان المفاتيح الأربعة هى مفاتيح البوابة والمدخل والمرأب والسيارة . ورغم ذلك جرّبتُها فانفتح الباب بمفتاح السيارة !. قال بيلو : رائع !
واصل بلوندل حديثه دون ان يزول الاحمرار من وجهه . كان يتحدث كأنه طالب مجد : ولكننا لم ندخل . لماذا ؟

---

(١) لشد ما تغيرت العذارى كثيراً منذ عام ١٩٣٠ ! (ملحوظات لبيلو) .

– فتحنا الباب . ولكن لم ندخل .لا . لا يا سيدى عليك وحدك تقع مسئولية إجراء التحقيق . ومعك قسم الهوية والآخرون .
– قل لى على الاقل ما رأيته .
– لقد جئت لهذا فى الواقع . خطر لى انك قد لا تأتى إذا كنتَ مشغولا بالتحقيق ... إنه شيء رائع ، رائع .
– أحقا ما تقول ؟
– ونحن ايضا دُهشنا لذلك . لا بد أن للآنسة شيئا أو انسانا تريد إخفاءه فى تلك الغرفة الانيقة المخفية ! انها حقا غرفة استقبال صغيرة مفروشة ، بها عدد من المقاعد واريكة وبساط عتيق وأرفف على الجدران ... غاية فى الروعة !
– مثلها مثل كل الغرف بالدورين الارضى والاول ؟ . (إستنفر بلوندل كل قدراته العقلية واجاب) :
– انها مثلهن وليست مثلهن . ستلاحظ الفرق من النظرة الاولى . لقد راق لى ضوء الشمس وهو يتسلل من النافذة ذات الستائر الحريرية ... قال بيلو :
– حسنا . أرسل فى طلب سيارة لتقلنا إلى هناك وانتظر عند المدخل . وليذهب رجال الهوية ايضا ، ولكن قل لهم أن لا يلمسوا شيئا إذا سبقونا إلى هناك . سأعود انا إلى مكتب الرئيس .

دخل بيلو إلى مكتب الرئيس وقد ساد الصمت . كان سيمون فى نفس مقعده بينما انكبّ تريفلو على أوراقه . رفع بيكار حاجبيه لينظر إلى بيلو وقال فور ذلك ، وكان هادئا لا يبدو عليه الضيق ولا يتظاهر بذلك . قال :
– لم اقتنع ، فأنا لا تقنعنى البتّة الحجج العاطفية ، مثلما تقنعك أو تقنعه ، وأشار إلى سيمون ، ولكنى حائر فتيفنيه يرى رأيكما ، وهو يعرف آل شنلونج حق المعرفة ويعرف اوغتسا وهو يظنها لا تقوى على قتل ذبابة . ولكن للاسف ، بمقدور أى شخص ان يفعل ذلك . وأصحاب القلوب الرقيقة يستعملون الأوراق اللاصقة أو قطع السكر أو المبيدات الحشرية. وكما تعلم ، فإن آخر كلمتين نطقت بهما الفتاة وسيمون يذكر ذلك جيدا كانتا « وبعد ذلك ... » . ماذا حدث بين زيارتها للآنسة سارازان فى مطلع العام ويوم الاحد الماضى ؟ اريد ان ادرك مغزى كلمتى : « وبعد ذلك ... » .

قال بيكار ذلك بلهجة آمرة فنهض سيمون . قال بيلو ، موجّها اليه الحديث :
– بطبيعة الحال ستواصل التحقيق فى معنى هذه العبارة ، أنت الوحيد بيننا الذى عرف الآنسة شنلونج . إبدأ بسؤال البواب ثم حاول ان تعثرْ على المدعوّ فرانسوا الذى كانت الفتاة تنتظره حين أتيت انت . فقد يكون اتى بعد ان انصرفت . قال سيمون :
– كنت افكر فى ذلك . قال بيكار :
– اتمنى لك التوفيق . قال بيلو لبيكار ، قبل ان ينصرف سيمون :

– لحظة واحدة . اود أن يسمع سيمون ما قاله لى بلوندل . انى اتلهّف للذهاب إلى نوييى بعد ما سمعته منه .

وكان ما سمعه بيلو من بلوندل مثيرا لأبعد الحدود . وبينما كان بيلو يحكى ، علّق بيكار وكأنه يلوم سيمون : كان ينبغى تفتيش المخازن تفتيشا دقيقا ! . أقرّ سيمون بذلك . إنتهى بيلو من سرد قصته . قال بيكار مختتما اللقاء :
– كنت اريد ان نواصل التحقيق مع جان مارك على ضوء حادثة انتحار الفتاة ، ولكن إذا كنتَ تفضل إرجاء ذلك إلى ما بعد عودتك من هناك فلا بأس .
– سأذهب ايضا إلى محطة ليون لأقابل الحمّال بنفسى . ستكون لدينا معلومات تجعل التحقيق مثيرا .

– ٤ –

كان السائق ينتظر فى ساحة المبنى ، وما ان اشار له بلوندل من عند الباب حتى ادار محرك السيارة فاندفع بيلو فى جوفها وتبعه بيلو . انطلق الجميع إلى شارع لافيرم وكان توسان واقفا على عتبة الدار يترقب وصولهم . قال بيلو :
– أحسنت يا فتى . ألم يصل رجال الهوية بعد ؟
– كلا ايها الرئيس .
– والمدعوّة جيزيل ؟
– انها لا تزال بالمنزل . تقول : « لقد حَصَلْت على أجرى مُقَدّما » . وكانت جيزيل تسترق السمع من وراء الباب عندما صاح بيلو : الآنسة جيزيل ؟ . لم تكن جيزيل فطنة ، فلم تتأخر وقتا كافيا يوحى بأنها كانت فى المطبخ أو المكتب ، بل قالت فوراً : « صباح الخير يا سيدى المفتش » . بقيت جيزيل كما هى ، فلم تتغير هيئتها ولا سلوكها .
– صباح الخير يا جيزيل . لم اسعد برؤيتك منذ يوم الاثنين .
– ولا أنا .
– الا تشعرين بالملل هنا ؟
– معى مذياع بالمكتب . واحب المطالعة .
– أيقلقك وجود هؤلاء السادة ؟ . – أجابت بجدّ بالغ :
– كلا ، اذ ليس هناك ما يجمع بيننا .
– سيصل رجال الهوية بعد قليل . دعيهم ينتظروا حتى أطلبهم . سنذهب الآن إلى الدور العلوى .
– الدور العلوى ؟ أىّ دور علوى ؟ ، سألت جيزيل وقد بدا عليها انزعاج طفيف .

– الدور الثانى .
– آه ، الدور الثانى .

صعد ثلاثتهم الدرج مسرعين صامتين . كان بيلو فى المقدمة والشابان خلفه ، بدوا وكأن قوة محركة تدفعهم فى آن واحد . وحين بلغوا الدور الثانى ، تقدّم توسان فقد كان فخوراً بقيادة الركب . وحينما عبروا المخازن فسرَّ لهم توسان سرّ اكتظاظها بالركام أكثر من ذى قبل :
– بعد ان انصرف بلوندل ، حرّكتُ الصناديق والحقائب التى كانت لصق الجدران ، ولكن لم أعثر على باب آخر .
– وخاب املك . اليس كذلك ؟ . نعم .

بدت ضحكته غريبة وسط ذلك الحشد من الجلود والاخشاب والألياف . بدا الظلام يغطّى كل الاشياء ، عَدا تلك التى وقع عليها ضوء النوافذ الثلاث . اخرج توسان سلسلة المفاتيح من جيبه وعرض المفتاح الشهير قبل ان يدخله فى القفل . فتح توسان الباب وتنحّى جانبا . نظر بيلو قبل ان يدخل ، بينما كان بلوندل يتفرس فى وجهه باحثا عن أثر الغرفة الغامضة عليه . قال بيلو :
– معك حق ، انها غاية فى الروعة والجدة – خطا بيلو خطوة إلى الامام ثم قال :
حافظوا على تلطّخ البساط بالوحل والالوان . هه ، لِمَ لَمْ تُخبرنى عن حمّالة اللوحات ؟ . فرد بلوندل :
– أتظنها اثارت انتباهى ؟ . اكمل توسان السؤال :
– ألأنها لا لوحة عليها ؟ . أجاب بيلو وقد كسا ملامحه هدوءه المعهود :
– كلا ، فقد تبقى حمالة خالية ليضع عليها المرء لوحة تعجبه حين يروق له ذلك ... لوحة أو رسوماً . توجد حافظة رسوم من الورق المقوى على ركيزة الحمالة أو قاعدتها ، أيا كان اسمها ، هناك تحت النافذة ... واطاران فارغان ؟ . جذب بيلو بلوندل من ذراعه – سأوضح لك فيم تختلف هذه الغرفة عن الآخريات ، فليست الحمالة وحدها خالية من اللوحات ولكن الجدران كذلك . لم تعلق الآنسة سارازان لوحة واحدة على الجدران . أشعل المصباح يا توسان .
حين اضاء توسان انبعث ضوء بلا ظلال . ثم عكف ثلاثتهم على الورق ذى اللون الفاتح يتفحصونه ويتحسسونه بأكفّهم . قال بيلو :
– لا اثر فيه للمسامير ولا للدبابيس . والآن لنَر ما بداخل حَافظة الرسوم .

حدثت مفأجاة ثانية : لم يكن بالحافظة رسوما وانما نسخا للوحات ملونة على ورق وعلى هوامشها ملحوظات كثيرة كتبت بقلم الرصاص . كانت اللوحات المستنسخة لفان غوغ بطبيعة الحال . انحنى بيلو ثم اخذ يقرأ الملحوظات . كانت بخط الآنسة سارازان : اسماء بلدان ، اسماء مجموعات ، ملحوظات تحدد المقاسات ، تواريخ ، احالات ، ارقام وحروف أولى ، واحيانا خطوط تبدأ من بعض الملحوظات وتنطلق نحو ملاحظة صغيرة، تستدير حولها . قال بيلو وهو يتمعن :

– لقد كان تجار الفن محقين حين طلبوا منها اعداد كتالوج باعمال فان غوغ . لعلها دوّنت تلك الملحوظات لهذا الغرض . ولكن لِمَ اخفتها بتلك الصورة ؟ ... والكتب ؟ ... اخذ بلوندل يقرأ اسماء المجلدات وكان اغلبها ضخماً ، وقد جلس على وسادة قرب رف منخفض :

– رونوار ، مونيه ، مانيه ، بيكاسو ، براك ، بيكاسو مرة أخرى . آه . ها هو صديقنا فان غوغ .... فان غوغ ، فان غوغ ، فان غوغ ، حتى نهاية الرف . قال بيلو وهو يقفل حافظة الرسوم :

– والآن ما علاقة غرفة مثل هذه ببساط من طراز جوبلان . انه يشبه لوحات فان غوغ كما تشبه محلات السامارتين الشعبية قصر فيرساى !

قال توسان :

– ويبدو انه مفروش فوق اطار من الخشب .

– كلا ، ان تحته بابا . كنت تبحث عن الباب آخر وها قد وجدته الآن . انظر إلى المفصلة ناحية اليسار . قال بلوندل :

– ولكن ليس هناك مقبض : باب ثانى ، مخبأ ثان .

– إذا شئت ، ولكن ضع اصابعك ناحية اليمين على جانب الاطار واجذب ... جذب بيلو فانفتح الباب . كان الباب رقيقا رقة الحاجز الذى قسم الغرفة إلى غرفتين . ولعل البساط كان فوقه لان ذلك راق للآنسة سارازان . كان بيلو مشغولاً ، فلم يتأمل هذا التفسير المنطقى ولم يسأل نفسه على أى جهة من السقف تطل هذه النفاذة الجديدة . هذه النافذة الخامسة . أخذ ثلاثتهم ينظرون إلى آثار المذبحة التى تمت فى تلك الغرفة وطفقوا يصفون ما يرون وقد تملّكهم العجب :

– كل هذه الانابيب المليئة بالألوان مهشّمة على الارض .

– ولوحة الألوان تلك كسرتها قدم إلى نصفين ...

– يا للبشاعة ! ، قال توسان :

– يا للروعة ، قال بلوندل الذى يعشق الألوان .

– وتلك اللوحة التى مزقتها ضربة قدم !

– تعنى اللوحات . هناك عدة لوحات وضع بعضها فوق بعض . بدأ بيلو يعدّ اللوحات المثقوبة .

– من المذهل حقا ان اللوحة الاولى لا تحوى رسما ، وهى رغم ذلك قد مزقت . كيف تمزق لوحة مثل هذه اللوحة ! . قال بيلو :

– ولا رسم على اللوحتين الثانية والثالثة !

– كان عددها تسع لوحات . مزقت ضربة القدم اربع منها . كانت كل اللوحات بيضا. لا ريب انه عمل انسان استبد به الجنون فانهال على اللوحات والانابيب والفرش ركلاً وتهشيما وقصفا . وكان حذاؤه ملطخا بالوحل ، وقد حدث ذلك فى يوم الاحد ككل ما حدث هنا ، وبعد ذلك اغلق البابين . قال بلوندل :

– بل قل رفع هذا الباب بحركة آلية وجذب الثانى .
– الم تجده مغلقا بالمفتاح ؟
– لا حاجة للمفتاح . لا علاقة . فذلك يتم بصورة آلية .
– ولكن لِمَ وضع الصناديق امامه ؟
– ليس بالضرورة ان يكون ذات الشخص قد فعل ذلك . قال بلوندل :
– هذا صحيح . اذهب يا توسان وانظر ان كان رجال الهوية قد وصلوا . قال توسان :
– حسنا ، أيها الرئيس . إجتاز . الغرفة الاولى وفجأة غير اتجاهه : أوه ! (أتى بيلو وبلوندل مسرعين) . انظر إلى المدفاة ، إلى ربيه الحاجز النحاسية . لقد انزلت بضربة قدم ولطخ الوحل النحاس . أخرج بلوندل منديله وتناول به القطعة المعدنية .
– انظروا ، قال بيلو بصوت طغى عليه حب الاستطلاع ، انظروا إلى هذا ... كومة من الرماد ... لقد احرقت اشياء كثيرة ولكن بعضها لم يحترق ، فهناك بقايا بعض اللوحات . صاح توسان وقد انبطح ارضا :
– وتلك الاجزاء الملوثة . انها لوحة حقيقية حاول احدهم ان يحرقها . قال بيلو :
– لنغلق هذا الكنز . إن الأمور تسير بسرعة ! . كان رجال الهوية قد حضروا منذ عَشر دقائق بقيادة نورى وانتشروا فى الغرفتين . اندفع بيلو مخترقا الدور الارضى والمطبخ حيث كانت جيزيل تحيك وهى تستمع إلى « من رأسى إلى اخمص قدمى » لمارلين ديتريش . اوقفت جيزيل المذياع عندما دخل بيلو . لم يتلطف معها المفتش هذه المرة . واخذ يرمقها بنظراته المتشككة التى لا يحبها احد .
– لقد كنت تعلمين ما فى المخازن . اليس كذلك ؟
– حقائب وصناديق ؟ اجابته وهى تحاكى بصورة آلية تقطيبته التى خدرتها . لقد منعتنى الآنسة منعا باتا من الصعود إلى الدور الثانى بمفردى .
– حقا . اسمعى جيدا يا جيزيل . انا على استعداد ان اصدق انك فى غاية الانضباط وانك لم تعصى امراً لاحد من قبل . ولكن أتريدين ان اصدق انك مكثت شهراً أو ما يقارب ذلك بهذا المنزل دون ان تلفت نظرك الأمور الغريبة التى كانت تجرى هنا قبل ان تقع تلك الجريمة الفظيعة ، وانك كنت تجهلين وجود ثلاث غرف مجهزة بالدور العلوى ؟
– ثلاثة ؟ ، قالت جيزيل . ابتسم بيلو وكانت ابتسامته ابعث للخوف من كل ما سبقتها .
– ان ما يدهشك هو العدد . العدد وليس وجود الغرف . حاولت جيزيل ان تسيطر على نفسها فقالت :
– اوه ، ثلاث غرف ، هذا كثير .
– بل ان ذلك مفرط فى الكثرة بالنسبة اليك وانت محقة فى ذلك . توسان ! (دخل توسان) . ينبغى ان انصرف . سأترك معك بلوندل . قد تستطيعان معا ان تفسرا كيف يندهش شخص ان يكون عدد الغرف ثلاث فى الوقت الذى يدّعى فيه انه يجهل كل شىء عن وجود هذه الغرفة فى

الاساس . الآنسة جيزيل اصبحت متهمة منذ هذه اللحظة . فتّشا غرفتها وأمتعتها . ارتجفت شفة جيزيل السفلى وقالت محتجة :

– لا يحق لكم ان تفعلوا ذلك .

– آه ، انت تعرفين ذلك ايضا . ولكن رجال الشرطة يقلدون المسلك السيء . أكان يحق لك ان تكذبي علينا ؟

(٩)

كل شىء ما كانت كل شىء

— ١ —

منذ ست وثلاثين ساعة ، أى منذ ان نشرت الصحف صباح أمس نبأ لغز الحقيبة الدامية وأفردت له مكانا بارزاً فى صفحاتها الأولى ، اصبح جيروار لوسيان ، الحمَّال بمحطة ليون بباريس ، والبالغ من العمر اثنتان واربعين عاماً ، والمولود بارون بالقرب من سانس ، أصبح أشهر من علم على رأسه نار ، فقد رفع تلك الحقيبة بيده وأمسك مقبضها وجرى بها وقذفها عند مدخل عربة من عربات القطار وكأنها متاع عادى لمسافر كاد القطار يفوته . فعل ذلك بالحقيبة واليد المبتورة فى جوفها ! لقد فارقه النوم وعاف الطعام منذ أن علم حقيقة الأمر . حدث له ذلك رغم أنه خاض أهوال الحرب ورأى أشلاء بعض رفاقه تتدلى من فروع الاشجار . شتان ما بين الحرب والسلم ، ففى السلم لا تزدان الاشجار بالاشلاء وانما بالأوراق وبالعصافير . ثم ان أشلاء الحرب لم تحظ بشرف صفحات الصحف الأولى . كانت النشرة وجيزة ، لا شىء يذكر عن بقية الجبهة . لقد ادرك زملاء الحمّال بمحطة ليون ذلك تماماً . وحين اتى أول صحفى بالأمس وسأل اين الحمَّال الذى حمل الحقيبة ؟، كان جيروار بالمحطة وقتها ، رغم أنه لم يكن يوم عمل ، إذ لم يستطيع أن يبقى بالمنزل بين أهله بعد أن قرأ الخبر . راح يحادث زملاءه فتجمعوا وخاضوا فى الامر . حين أتى ذلك الصحفى ، أشار جيروار لاصحابه ليقولوا أنه ليس بينهم . عندها هبّ بيسبترو وكان أمكرهم وادهاهم وقال : « للاسف ، لقد ذهب هذا الصباح إلى بلدته لحضور حفل فى الكنيسة . لشدّ ما سيندم على سفره ! » . ظل زملاؤه يرددون تلك الكذبة على مسامع الصحفيين منذ ظهر الامس وحتى نهار اليوم . وحين يسأل صحفى : ما اسمه وأين يقيم ؟ كانوا يتخذون له اسما وعنوانا وهميين !

أخذ جيروار وبيلو يضحكان وهما يشربان نخب الكذبة الطريفة نبيذا أبيض . كانا يجلسان فى مقهى هادىء على مقربة من المحطة . وعندما قال بيلو لجيروار :

– هل لك فى كأس ؟ . أجاب جيروار :

– المهم ليس الكأس وانما مكان نجلس فيه .

واصل جيروار حديثة ونور آخر عربة من عربات قطار مارسيليا لا يبرح مخيلته ويتذكر قوله لنفسه « إذا تكرر ما أفعل الآن عند رحيل كل قطار فسيصبح اطفالى ايتاما » . عاتب جيروار نفسه على ما قال فيما بعد ، فقد يلاقى ذلك الفتى يوما ، فالمسافرون يروحون ويجيئون ، بل تنشأ بينه وبين

بعضهم علاقة تجعلهم لا يعهدون بمتاعهم لحمّال غيره وان حملوه أنفسهم . غير أن ذل الفتى كان أول مسافر يأتيه بنأه من الصحف . وكانت الحقيبة فريدة فى نوعها أيضا . وقد حدث ذات مرة أن أوقف ثلاثةُ مفتشين بفرقة مكافحة المخدرات عربة الامتعة التى كان يجرها ، وامسك اثنان منهما بالحقائب ، بينما قبض ثالثهما ذراع صاحب الامتعة الذى كان يسير بجانبه . لكن المخدّرات مثل الأوراق النقدية . لا تدهش من يراها سواء أكانت أصيلة أم زائفة . أما يد امرأة مبتورة ... اكمل الحمَّال قصته فقال انه تسكّع على الرصيف حتى انتصف الليل وخفّت حركة المرور وكان يقول لنفسه : « سيدرك سائق السيارة خطأه ويعود ادراجه وسأطلعه على ما حدث . سيمنحنى قطعة نقود قليلة القيمة . على كُلّ فالمعلومات لا تساوى كثيراً » .

كفَّ جيروار عن الحديث واعتذر . حين يكتم المرء ما بداخله يمتلىء صدره لدرجة لا يقدر معها أن يكف عن الحديث متى ما أراد . تفهم بيلو حال الحمَّال تماما . ولكن الحمال انزعج حين طلب منه بيلو الادلاء بأقواله . كان انزعاجه حقيقيا ، لا يشبه انزعاج السيد بيدا . وتذكر الحمَّال أن رجل شرطة صاح به « يا حمال ! » ، وأنه اتجه نحوه مخترقا صفوف السيارات ، مغالباً المطر ، وأن الفتى كان يقف هناك واجما ، وحبيبات المطر تتساقط من معطفه الواق . كانت احدى الحقيبتين على الارض بينما امسك الفتى بالحقيبة الثانية . كان يمسك الحقيبة الشهيرة ويردد : « الحقيبة ، الحقيبة ! » . تحدث جيروار بعد ذلك عن المارون الذى أعقب ذلك . كان جان مارك حسن الطالع حين صادف حمَّالا يعدو مثل عدوه رغم أنه بلغ سن الاربعين ، ولولاه لما لحق جان مارك القطار . ثم سرد الحمال الحوار الذى دار بينه وبين جان مارك أو قرأه فى تقرير الشرطة . اراد بيلو أن يقول الحمَّال شيئا عن السيارة ولكن ، قال جيروار فجأة :

– مهلا . كان هناك شرطى . الشرطى الذى نادانى . هل تعرفه ؟

– أظن ذلك . انه راوول . قد يكون بالمحطة فى هذه اللحظة ، فهو يعمل هذا الاسبوع ، الا إذا حدث شىء قاهر . أما زملاؤه فقد كانوا هنا بسبب العطلة فقط .

عاد الرجلان ادراجهما إلى المحطة . أنظر ذاك هو ! . ظنّ لارى راوول ، ٢٤ عاما ، رقم ٤٢٥ ، الحى الثانى عشر ، أنه رأى مؤخرة السيارة ، لكنه لم يقطع بذلك ، فقد انطلقت السيارة كقذيفة مدفع وكان المطر يحجب ضوء مصابيح الشارع . لكنه أكّد أنَّ الفتئ كان يلوح بيديه تجاه السيارة ويصيح : يا سيدى ! يا سيدى ! ، وكأن من بالسيارة سيسمع نداءه . قال بيلو محدثا نفسه وهو يتّجه ناحية سيارة الشرطة : « ما كان له أن يسمعه » . ظلّ بيلو يصدق ذلك الفاصل من القصة ولكن الاعتقاد لا قيمة له فى نظر القانون . انه ليس حجة مقنعة .

– ٢ –

تغدى بيكار وبيلو وتريفلو سندوتشات وشربا شيئا من البيرة والقهوة . ورغم ان الوقت كان

باكراً ، الا ان بيكار آثر مواصلة التحقيق مع جان مارك ، بعد ظهور نتيجة المعمل . خاصة نتيجة ما جمع من رماد وبصمات من المرسم المخبأ . ان أول وصايا رجال الشرطة هي :

« اهمل نداء بطنك لترضي عملائك » . صاحب هذه الوصية هو شيكو البدين الذى لا يكف عن الأكل . وقد اجابه زميل بوصية مضادة تقول : اهمل نداء بطنك ، شريطة أن يكون ملىء دائما » .

كان بيلو يُعدّ تقريره اثناء الأكل بمساعدة تريفلو وكان بيكار يسمع له بعد أن اعلن أن تشريح جثة اوغستا كشف عن تسمم عادى ، وأن الأب شنلونج قادم صباح الغد إلى باريس ، ويرجو مقابلته بالمحطة ، وان الرئيس مالبرانش يريد أن يعرف ما وصل اليه التحقيق أيا كان الوقت .

طرق الباب ودخل كافاجليولى ، المعروف بكافا الصامت ، كافا العابس ، أكثر رجال الهوية فطنة واحدّهم ذكاء . وضع كافا ورقة أمام بيكار اعتاد بيكار ، أن يخاطب كافا بالطريقة التى يتحدث بها كافا : بصمات ؟

الآنسة سارازان . جان مارك بيرجيه .

– بصمات اخرى لم يعرف أصحابها بعد ؟

– كـــــلا .

– مظروف الرماد .

– لوحة مرسومة واطار .

– ماذا على اللوحة ؟ فان غوغ ؟

– اصلية أم مزورة ، لسنا اخصائيين . على أية حال موقّعة صاح بيكار : « موقعة ؟ » . ضحك بيلو حين سمع تعبير أصلية أم مزورة وقال : لوحة اصلية لفان غوغ محروقة وبمنزل اخصائي !

أتى كافا بحركة يُفهم منها : لقد جاوز الامر حدود علمى ولا شأن لى بذلك . عاد بيكار يكوّن جملا كاملة وهو يخاطب بيلو : علينا الاتصال باخصائى صباح الغد حتى نكون على بيّنة . « شكراً لك يا كافا . يمكنك ان تذهب » . قال كافا عند عتبة الباب : بقية النتائج فيما بعد .

قال بيكار لتريفلو وهو مازال متأثرا بلغة كافا المختزلة : الشاهد ... ثم استدار قائلاً : يمكنك أن تدخل الشاهد .

اعتاد بيلو أن يراهن نفسه كما يفعل الآن . راهن أن جان مارك سينظر حال دخوله المكتب إلى المقاعد وهو اثق أن تكون اوغستا جالسة على مقعد منها . لم يكن بيكار يظن مراهنة النفس ممكنة . « راهنى أنا أو راهن من شئت ولكن أن تراهن نفسك ! انت رابح حتى حين تخسر ! ما أزيف مثل هذا الرهان ! » . وبيلو يحبذ دور المراهن وهو يمقت أن يفقد الرهان . لم يكن يراهن بمطلقا على المسائل المادية ، فالمجازفة فيها غير محمودة العقبات .

وما أن فتح الباب حتى كان بيلو قد كسب الرهان . فقد ظل جان مارك مرخيا بصره واتجه صوب المقعد الذى كان يجلس عليه فى الساعة الرابعة ، قال بيكار بصوت مهذب وان كان قاطعا:

– سأقول لك نبأ سيهزك . لن يعقد موقفك أكثر . بل على النقيض من ذلك . لمح وجه جان مارك . هل عثرتم على الامريكى ؟
– كلا ، ولكن الآنسة شنلونغ أنتحرت هذا المساء .
كان أول ما فعله جان مارك النظر خلسة إلى بيلو ، كما تفعل الكلاب . ولما لم يتبين شيئا على ملامح بيلو حوّل بصره إلى بيكار وقد قفز فاه دهشة . كان يريد مزيدا من التفاصيل ولكن بيكار لم يضف شيئا ، فقد كان الجميع ينتظرون التفاصيل . شعوران كانا يناسبان المقام : الحزن أو الدهشة . قال جان مارك : كيف أنتحرت ؟ . رد بيكار واصبعه على ورقة أمامه : شربت سما .

ما أكثر أشكال الدهشة ! انها قد تأتى من غور بعيد غير منظور للوهلة الأولى . شرد ذهن جان مارك فجأة إلى عالم آخر وغمغم من عالمه ذاك بصوت مرتاب غريب : أوغستا ... نقر بيكار باصبعه ثلاثا على الورقة : لقد تركت هذه الرسالة .
ما لبث جان مارك أن مط قامته ما أستطاع وكأنه يأمل أن يقرأ ما بالورقة عبر المنضدة . لم يكن بيكار بحاجة لقراءة الورقة . ردد محتواها وهو يرقب جان مارك المتوتر : « إلى جان مارك : أغفر لى كل شىء » .

ساد المكتب صمت عميق ابرز ضجيج السيارات على الرصيف بعد أن اعتادها الجميع بحكم التعود . أخذ جان مارك يردد بصوت أكثر ارتيابا وبالطريقة التى نطق بها اسم اوغستا : « كل شىء ؟ » . قرّب بيكار الورقة من جان مارك دون أن يناوله لها . أهذا خطها ؟ . قال جان مارك بصوت كالهمس : نعم .
– ماذا فعلت أوغستا إذن ؟ ما لذى فعلته فى حقك حتى تكتب مثل هذا الرجاء وتقدم على الانتحار ؟ .
لم تعتدل قامة جان مارك . كان يحدق فى بيكار ولا يراه . أخذت فكرة تتكون فى ذهنه . لمعت عيناه وانطلقت الفكرة من عقالها : كان عشيقها . انتقلت الدهشة إلى بيلو وبيكار فمالا بدورهما إلى الامام .
– من ؟ . صاح جان مارك بانفعال بالغ :
– الاميركى ، الاميركى المزعوم ، الا تدركون ! الامر بيّن . لقد انكشف الغموض . احسّت اوغستا بالحرقة والمهانة حين علمت بقصة الخاتم فقضدت الآنسة سارازان . اخبرتنى هوغت بذلك . قالت انها لم تسمح لها بدخول منزلها ، فقد كانت فى حالة هياج شديد . لجأت اوغستا للتهديد ولكن هوغت لم تنحشَ وعيدها . لم تكن اوغستا قادرة على الاذى . كلا . اما الاميركى حاله مع هوغت شبيهة بحالى مع اوغستا ، فقد اغتنم الفرصة وأغواها . انه رجل وسيم ، ولعل اوغستا استجابت له فجرفها إلى ما أراد ، واشركها فى خطته ، ولعله لم يجد صعوبة فى ذلك فالغيرة حين يكون الانسان فريستها يصعب عليه كبح جماحها . خاصة الفتيات . لا أقصد أنها وافقت على فكرة القتل . لا أعلم شيئا ، لا سيما انها ماتت وطلبت الصفح . كانت تريد الانتقام لنفسها منى ،

كانت تريد أن تراني متهما ، شائن السمعة وأن يقبض على .
– لا ينتحر الناس حين تتحقق آمال طال انتظار تحقيقها . ظلَّ جان مارك منفعلا :
– يعتمد ذلك على الطريقة التي تتحقق بها الامانى يا سيدى المفتش . لعله لم يخطرها بفعلته . اليد المبتورة والحقيبة ، فخ كهذا . قرأت ذلك فى الصحف فأصابها الذعر . لقد كان الامر مثيرا للذعر . هل استدعيتها يا سيدى المفتش ؟ لم يُمهل بيكار ليرد . ولعلها اتصلت بك تليفونيا بعد ان احست بكراهية الشيطان الذى وثقت فيه .

وكلما اقترب موعد لقائها بك زاد هلعها فتناولت مخدرا . لم تكن اوغستا تتناول المخدرات ، يا سيدى المفتش . كانت فتاة راشدة قوية . لم أكن لأتركها دون حيطة لولا قوة شخصيتها . وكنا اتفقنا على ان يكون كل منا حرا طليقا ، يا سيدى المفتش . كان كل منا يميل للآخر ولكننا لم نعرف حبا عاصفا . كلا ، كلا . وقد ادركتْ اوغستا ذلك . ادركت انها وقعت فريسة الغيرة ، دون ان تعرف الحب العاصف . فضلا عن ... اخذت الأفكار تزدحم فى عقل الفتى : الرجل . اختفى بعد ابدال الحقيبة فى المحطة . لعله ظن أننى ساورى كل شيء وأن الناس سيصدقوننى ويتفقون فيما أقول . ومع انه كان يدرك انى اجهل كل شيء ، انه آثر عدم المخاطرة ، فلم يعد إلى اوغستا . واظنها كانت تجهل مكان وجوده ولا تعلم حتى متى يدوم ذلك . لم تدرك أنه رجل نذل قذر . ولكنها أحسّت فجأة انها وحيدة مهجورة اللهم الا ... ابتلع جان مارك ريقة بصعوبة .

فى هذه المرة تعثر سيل الكلمات عند عقبة . قال بيكار .
– تريفلو . أحضر كوب ماء للسيد . لم يشرب جان مارك غير جرعة واحدة . اخذ يسعى لتنظيم انفاسه ، فيتنفس بقوة عن طريق الفم ، مثلما يفعل الناس حين يلجأون إلى الطبيب . شدجعه بيكار قائلا : اللهم إلا ... غضَّن جان مارك جفنيه ، وأغمض عينيه وهو يقول :
– اللهم إلا إذا أرغمهما على ابتلاع المخدر وعلى كتابة هذا الرجاء وعلى اتهام نفسها .

ترك بيكار الصمت يعمّ المكتب ثانية والتفت نحو بيلو قائلا : هل من اسئلة أخرى ؟ . أجاب بيلو بالنفى . كان جان مارك يشبه مريضا نجا من مرض لا ينجو منه مريض فى العادة . كانت عيناه مغمضتين وملامحه مشدودة . ولكن التفاتة مفاجئة اعادته إلى الواقع . فقد ضحك بيكار واستلقى على مقعده وأخذ يضرب يديه ويغرق فى الضحك . كانت ضحكاته قصيرة محيرة . ثم أعلن بلهجة من يقول نبأً سارًا : حسنا . لنتحدث الآن عن الرسم . سأل جان مارك بيلو بعينيه : عن الرسم ؟ . لم يبد الحبور على بيلو ولكنه ابتسم وقال : نعم عن الرسم .

– تعرف منزل الآنسة سارازان خير معرفة ؟ ، سأل بيكار وصوته ينبيء عن غبطته للانتهاء من الجانب الغامض فى القضية ولو إلى حين . أتعرف المخازن ؟ أجب . قال جان مارك : نعم . أدهشه السؤال . وكان بيكار يعرف أنه على استعداد لفعل أى شيء ليعودوا للحديث عن مأساة اوغستا ، وتحليل فرضه .

– نعم أعرف المخازن .
– الغرف العليا ؟
– نعم الغرف العليا .
– أكنت تسكن تلك الغرف فى منزل الآنسة سارازان ؟
– لا يا سيدى المفتش .
– لا أعنى مكان نومك بالطبع ، فما كنت بحاجة لذلك . قاطعه جان مارك :
– لم أقض الليل مطلقا هناك . أقسم لك .
– أتقسم أيضا أنك لم تقض نهار يوم واحد بالغرف العليا .
– كلا يا سيدى المفتش .
– هل أُعِدّت الغرف لك ؟
– كلا ، كلا . قال بيلو :
– بلى بلى . لم تمض ستة أشهر على بنائها .
– كانت الآنسة سارازان تريدنى أن أنصرف إلى الرسم . ال بيكار :
– حسنا . لقد بلغنا المرام .
– كانت تقول لى انك تهدر وقتك فى أعمال غيرك . انك تحاكى الصناع وأنت من عجينة فنان ، فنان كبير . والفن صنعة مثل غيره من الصنائع يتعلمُه الناس . سأفرد لك ركنا من المنزل . إن المنزل كان معدًّا منزلنا ، يا سيدى المفتش . كان ذلك مدعاة لأكسب قدرا أكبر من المال ، فما كنت أريد الاعتماد على زوجتى . كان أجرى قليلا عند بوغان وكان بوسعى أن أكسب أكثر إن أصبحت رسّاما . لقد كانت علاقاتها واسعة . كانت تقول لى بأن غاية كل جامعى اللوحات أن لا يكتفى الواحد منهم بجمع لوحات مشاهير الفنانين ، قدماء ومحدثين ، فذلك أمر يحققه المال ، بل يسعون إلى اكتشاف فنان واحد عظيم من معاصريهم . ذلك ما فعله الدكتور غاشيه مع فان غوغ . « سأفعل معك مثلما فعل الدكتور غاشيه مع فان غوغ ! » . قال بيكار :
– نعم ، نعم ، نعم ، فان غوغ . لا توجد فى الغرف العليا مطبوعات عن غير فان غوغ . أليس كذلك يا سيدى كبير المفتشين ؟ . قال بيلو :
– كلا . هناك كتب كثيرة عن فنانين غير فان غوغ . ولكن يوجد صندوق كبير لا يحوى سوى صور من لوحات فان غوغ وعليها تعليقات كثيرة . لعل السيد برجيه يخبرنا عن سبب ذلك ؟ .
حاكى جان مارك ضحكة بيكار القصيرة الجافة وقال :
– لم أعر الامر اهتماما مطلقا . فكون الغرف بُنيت لأجلى لا يعنى ان الآنسة سارازان لاتستعملها كما يحول لها . لعلها وضعت فيها سجلات عملها . كانت تشكو دائما من ضيق المكان . قال بيلو :
– كن بوسعها ان تبنى ست غرف مكان الاثنتين .
– كان يسرها أن تكون بجانبى يا سيدى كبير المفتشين ، فحينا ترقبنى وانا اعمل وحينا آخر تقلب كتبها وتعلق على نسخ الرسوم . سأل بيكار :

– ماذا كان عملك ؟ كيف يصبح المرء فنانا محترفا ؟

استعاد جان مارك قواه شيئا فشيئا . كان على وشك ان يلقى محاضرة ، وقد طغى عليه فجأة شباب دافق : لن أحطّ من قدر الرسم الحالى ، يا سيدى المفتش . ولكنه لم يعد يقتضى عملا دؤبا ، فقد درج الرسامون ممن هم فى عمرى على الاعتماد على مواهبهم . ولكن الجادون منهم – لقد وضّحت لى الآنسة سارازان ذلك خير ايضاح – يلزمون انفسهم باتباع الأنماط والمران . مثلما يفعل الموسيقون . يسمّون ذلك فى ميدام الرسم بالتقليد . لقد بدأ كل كبار الرسامين بتقليد مشاهير الرسامين . وحين يشتهرون تعرض لوحاتهم الاصلية مع اللوحات المقلدة . فمن المفيد أن ندرك كيف دربوا أنفسهم وكيف تخلصوا من سيطرة المشاهير وشقوا طريقهم الخاص . هذا كل ما فى الامر يا سيدى المفتش . قال بيكار :

– لا ، لا . إذن بدأت تقلّد . تقلّد ماذا ؟ . قال جان مارك ، وكأنه يعلن شيئا بديهيا :

– فان غوغ . كان يسرّها كثيراً . قال بيلو :

– أتأذن لى بابداء الرأى يا سيدى المفتش ؟ . (لم يحفل بيكار بابداء موافقته). لقد زوّدنا السيد بيرجيه بمعلومات قيّمة عن كيف يمتهن رسّام الرسم . ولكن ، قال محدثا جان مارك ، ألم يدهشك ان الآنسة سارازان دفعت بك إلى تعلم الرسم لتكون انت ناقلا مثيراً خبيراً من الدرجة الاولى ودرّة محلات بوغان ؟ ألم يكن الأجدر بها أن تحثك على اكتشاف طريقك وأن تدعك حرّا بلا قيد ؟ . رفع جان مارك رأسه متحدّيا :

– لقد فعلتّ ذلك ، يا سيدى كبير المفتشين . كنت أرسم ما يحلو لى متى شئت ، وقد اختارت فان غوغ لا لسبب غير إعجابها به . كانت تريدنى أن أقلل من ميلى المفرط إلى التقيد بالاصول الفنية ومن اهتمامى بالتفاصيل والدقة . يتعلم الرسام الحرية حين يعكف على أعمال فان غوغ . قال بيلو :

– إذن أمامك أن تتعلم الكثير ، فميلك إلى التفاصيل والدقة يجعلانك تقلّد حتى التوقيع .

– لقد كان ذلك جزءاً من المران ، يا سيدى كبير المفتشين . هزَّ بيلو رأسه وقال :

– شكرا على المعلومة . لم يدرك جان مارك ما عناه .

– أية معلومة ؟

– أكدّتَ لى قبل لحظة أن لوحاتك المقلّدة كانت تحمل توقيع فان غوغ ، التقط بيكار حبل الحديث ، وبذا لم تعد نسخا وأنما لوحات مزوّرة ! . بدأ جان مارك يفقد ما ظنّه مكسبا .

– لم يكن لذلك أهمية ، يا سيدى المفتش ، فقد كنت احرق اللوحات بعد ذلك . ألم تجدوا رمادا على المدفئة ؟ قال بيكار :

– انك تقول الحق هذه المرة .

– هل أحرقت كل اللوحات ؟

– نعم . أقسم بذلك .

– لماذا ؟ لِمَ تحتفظ بأفضل اللوحات ؟ كنت تحدثنا عن معارض تعرض فيها اللوحات الاصلية واللوحات المقلّدة فى آن واحد . ألم تفكر أن تفعل ذلك يوما ما ، حين تصبح مشهوراً ؟

– كانت الآنسة سارازان تأمرني بذلك ... وكنتَ أطيعها دائما . لم يمهله بيلو ليسترد انفاسه :
– ولوحاتك أنت ؟ أكنت تحرقها ؟

إحمرَّ وجه جان مارك . ربما كان ذلك بسبب الغضب :
– كلا . كنت آخذها إلى الفندق .
– لقد رأيت اللوحات التى تركتها للسيد بيدا .

ما أشد توقه إلى الاطراء ، قال بيكار محدثا نفسه . استجاب بيلو لرجاء جاك مارك الصامت فقال :
– لن اقول لك رأيى فيها ، فلست خبيرا بالرسم ، ولكنها تسرّ من ينظر اليها . ماذا كان رأى الآنسة سارازان عنها ؟ . حاول جان مارك أن يستعيد حماسه وقال :
– كانت مشغوفة بها يا سيدى كبير المفتشين . لم تكن لتفعل ما فعلتْ من أجلى لو لم تكن مشغوفة بها . كانت تشجعنى دائما .
– لِمَ لم تعلّق لوحة واحدة من لوحاتك فى اى مكان بمنزلها إذن ؟ . عضَّ جان مارك ظهر يده اليسرى ، غير أنه سرعان ما أجاب :
– لقد رأيتَ جدران المنزل مغطاة باشهر أعمال كبار الرسامين . فكان من الطبيعى ألاّ تُنزل لوحة من لوحات سيسلى أو رينوار لتضع مكانها لوحة من لوحاتى !
– لو فعلت لكان فى ذلك خير تشجيع وأكبر دليل على ثقتها بفنك . لِمَ لم تعلقها فى الغرف العليا حيث الجدران عارية ؟ كان بوسعها أن تعلق لوحاتها المفضلة ، وأن تضع على الحمّالة أحدثها ! .
همس جاك مارك :
– لم تفعل ذلك مطلقا .
– ولا حتى على الحمالة ! صمت جان مارك . لا على الجدران ولا على الارض أو لصق الجدران أو حتى فى ركن من أركان المخازن المهملة . أما كان بوسعك ترك بعضها ، ولو من باب التخفيف على السيد بيدا ؟ . لقد رأيت أسفل السلالم تكتظ بلوحاتك بفندق مارسيليا وقد شكى السيد بيدا من كثرتها .

رفع جان مارك إلى جبينه يده اليسرى التى كان يعضها قبل قليل . سيعود سيرته الاولى متأوّها ، خائفا . أشار بيلو لبيكار الذى ضرب المنضدة ورفع صوته :
– مما تقدم نخلص ، يا سيد جان مارك بيرجيه ، إلى انك لم تكن تصنع فى الحجرات السرية الا لوحات مزيفة . وان لوحاتك انت لم تكن الا ذريعة وحيلة . وهى لم تضرّ أن تحرقها كلها ، فأنت كذاب مقيت وماذا فعلت ؟ خير لك أن تدرك أن كبار الاخصائيين سيفحصون غدا مجموعة لوحات الآنسة سارازان على ضوء شكوكنا . وان لم يكن بينها لوحات مزورة ، فذلك يعنى أن اللوحات المزورة فى مكان آخر . أين ؟ ستخبرنا بمكانها أم لا ؟ على كل حال انت متّهم بالتزوير ،

فى انتظار اتهامك باستغلال اشياء مزورة . لن يكون الاخصائيون بمفردهم غدا بنوبيى ، ستكون معهم صحافة العالم بأسره . أيًا كان المكان الذى انتهت اليه اللوحات ، فهناك من سيعرفها !

– كنت لا أحرق بعض اللوحات ، لأن الآنسة سارازان كانت تقول لى : دعها . يمكنك أن تنصرف . سأحرقها ، سأحرقها ... امسك بيكار مسطرته التى لا تنكر وواصل صياحه :

– والمجزرة والانابيب المهشّمة ، ولوحة الألوان المحطّمة واللوحات الممزقة ؟ الم تفعل ذلك ؟

– كلا يا سيدى المفتش . كلا ، لم افعل ذلك . اقسم لك ! . نظر بيكار إلى بيلو وقال محدّثا تريفلو :

– أبق هذا الفتى فى مكان قريب . سنراه بعد قليل . ثم قال لجان مارك : « أغفر لى كل شىء » لم تكن كل شىء .

١٠

إمرأتان فريدتان

– ١ –

اقتاد الحارس جان مارك . واصل بيكار حديثه وهو ينهض حاملا أوراق القضية : تريفلو ، إتّصِلْ ببعض الصحفيين . علينا ان نبرز قضية التزوير هذه على الصفحات الاولى فى كل صحف الساعة الخامسة صباحا . سأذهب لمقابلة الرئيس .

مكتب بيكار يجاور مكتب رئيسه مالبرانش ويصل بينهم باب . أما بيلو فقد قصد مكتب الفرقة . كان عليه ان يقابل سيمون باسرع ما يمكن بشأن اوغستا وأن يقابل بلوندل أو توسان بخصوص جيزيل .وجد بيلو ثلاثتهم مجتمعين ، إذ حَلّ العريف ماليكورن محل توسان بشارع لافيرم . بدا الترقّب على سيمون وبلوندل وتوسان . ولما كانت سحنة سيمون لا تبشر بخير ، فقد أثر بيلو سؤال بلوندل وتوسان ، فضلا عن ان مساءلة سيمون أصعب من مساءلة رفيقيه .

– يبدو وكأنكما لم تعثروا على شيء ذى بال . هل اخطأت التقدير . اجاب بلوندل :

– كلا ، كلا ، ايها الرئيس . قال بيلو بلطف .

– يا لك من منافق !

– لم تخطىء ولم تخدعنا جيزيل ، رغم أن بحثنا لم يثمر ! كانت تتابع حركاتنا بعينيها الواسعتين الجاحظتين وتتظاهر بعدم الاهتمام بالامر . وحين لم يكلل بحثنا بالنجاح ، بدا عليها الارتياح لدرجة اننا خلصنا إلى نفس النتيجة . اليس كذلك يا توسان ؟ لابد انها اخفت بعض الاشياء فى مكان آخر ، ولعلها كانت تخشى ان تكون قد نسيت بعضها ، مما يدل على انها سارعت ونقلت بعض الاشياء من المنزل منذ يوم الاثنين ! سألناها ان كان لها مسكن يخصها فأجابت : « كلا ، كلا ! اقيم دائما حيث أعمل » وكأن ذلك يمنعها من اتخاذ مسكن للمرح واللهو أو الخلوة . هيا أكمل القصة يا توسان . قال توسان :

– عرّجت على وكالة لوبليك ، قلّبت الكاتبة سجلا وقالت مناقضة حديث جيزيل : « نعم ، الآنسة جيزيل شاربانتييه ، تسكن رقم ٣٧ ، بشارع فوندارى فى الحارة الخامسة عشر » ، كان الوقت قد تأخر فلم نتمكن من زيارة مسكنها ولكن ان شئت زرناه قبل فجر الغد ، بلوندل وانا ! . قال بيلو :

– بالتأكيد . هل هى تحت المراقبة بنويى ؟

– العريف ماليكورن يحبسها فى غرفتها وينام قرب التلفون .

– أعدّا أوراقكما لمهمة الغد . وحتى ذلك الحين ، خذا شيئا من الراحة وتمتعا باحلام سعيدة ! .

وحين اصبح بيلو بمفرده مع سيمون قال له : وأنت ؟ . كان سيمون يعانى من الصدمة التى اصابته بعد تسمّم اوغستا وانتحارها . حاول أن يكون لا مباليا فقال :
– بوابة صغيرة حسنة المظهر جذابة قد هزتها المأساة . كانت أول من رأى ما حدث اذ جاءت تنظف الحجرة . ولكن من المؤسف أنها لم تنظر مطلقا فى اوراق وخطابات اوغستا المبعثرة ! اعتقد انها صادقة . كانت اوغستا تدفع لها بسخاء وتحسن معاملتها وتهديها بعض الاشياء ، مرة فستانا ومرة شالا ... كانا يتجاذبان اطراف الحديث ولا يخوضان فى المسائل الشخصية . عرفت بيرجيه دون ان يتبادلا الحديث ، عرفت اسمه لان اوغستا كانت تقول : « سيسبقنى السيد بيراجيه هذا المساء » أو « سيقضى عطلة نهاية الاسبوع هنا » . كانت تقول لها ذلك دون تمهيد . كانت تخبرها بذلك ولا تسر لها بشىء غيره . لاحظت أنها تكثر البكاء قبيل اعياد الميلاد وعند اعياد رأس السنة ، عندما انقطع الفتى عن زيارتها .

يبدو ان الامور قد هدأت ، عادت اوغستا سيرتها الاولى . كان بعض الشبان يزورونها ولكن لم يقم أيهم عندها ، ولم تذكر لها اسماءهم . كان احدهم يتردد عليها كثيراً ، كان طويل القامة ، وكان يحى البوابة بأدب جم . وهى لا تجزم ان اسمه فرانسوا . سألتها ان كانت رأته بعد انصرافى بالامس . اعتذرت لكونها لم ترانى وأكّدت انها رأته حين خرجا معا عند موعد العشاء . لم تر اوغستا تعود إلى المنزل بعد ذلك . وفى صباح ذلك اليوم صعدت لتنظيف الحجرة كعادتها وكانت اوغستا غائبة كعادتها . لولا عطلة عيد القيامة لذهبت للسؤال عنها فى الكلية . لعل الاب شنلونج يعرف فرانسوا .
قال بيلو :
– لا اظن ذلك . ربما ساعدتنا الصحافة . ردّد سيمون هامسا كلاما ظلّ يلوكه منذ ساعات :
– محير ! ماذا قال بيرجيه ؟ هل علم بالامر ؟
– نعم . ولديه ما يفسر ذلك .

لخص بيلو بداية التحقيق . كتم سيمون غضبه ، فليس من المحمود فى الشرطة القضائية مقاطعة الرئيس . كانت الدلائل تشير إلى قرب انفجار غضب سيمون .
– يا له من وغد ! لقد سنحت له الفرصة لممارسة الحب مع مثل تلك الفتاة وكان بوسعه ان يعيش معها . لم يجد ما يقوله ليفسر رسالتها وانتحارها سوى ان يدعى انها كانت شريكة القاتل وعشيقته لا شك انك استدرجته بقولك « وبعد ذلك ... » ، فوقع فى الفخ !
– مهلاً ، من فضلك ! لم يكن بحاجة للاستدراج . كان تعبير « اغفر لى كل شىء » كافيا . احمد لك نيابة عن هذه الفتاة التعيسة غضبك وانفعالك ، ولكن حين تريد دحض افتراض ايا كان عليك ان تبين خطله وان تبدله افتراضا أقوى حجة . وطالما بقيت الصفحة التى تبدأ بـ « وبعد ذلك » وتنتهى بـ « اغفر لى كل شىء » ناقصة ، تكون كل الافتراضات مقبولة وان لم تعجبك أو قالها من تشكّ فى نزاهته . قال سيمون :
– أرجو المعذرة . هدأ بيلو وقال :

– لدى ما يسرّك . كان الفتى يرسم فى مخازن الآنسة سارازان لوحات مزيفة ممهورة بامضاء فان غوغ . وأثناء سرد القصة رَنّ جرس التلفون – تناول سيمون السماعة ثم ناولها بيلو وهو يقول : تريفلو .

– السيد بيلو . يطلبك السيد بيكار فورا فى مكتب السيد مالبرانش .

وحين يطلب بيكار شخصا ما (فوراً) فذلك لا يعنى فى (الحال) أو (حالما أمكن ذلك) أو (باسرع ما يمكن) وانما فى التو واللحظة .

– ٢ –

– صباح الخير يا بيلو .

– صباح الخير يا سعادة المدير .

بدا السرور على مالبرانش وبيكار وهما يتهيّآن لادهاش بيلو . دفع مالبرانش نحو بيلو بصيغة من الصيغ التى تكتب عليها ترجمات البرقيات العالمية .

– أجلس فذلك خير لقراءة شيء مثير .

« مكتب الأستخبارات الفدرالى . القسم الجنائى . واشنطون العاصمة . إلى رئاسة الشرطة القضائية ، رئاسة البوليس ، باريس ، فرنسا .

« بعد قراءة المقالات عن مقتل خبيرة لوحات فان غوغ المشهورة الآنسة هوغت سارازان بنوييى ، طلب رجل الاعمال الكبير وجامع اللوحات المبتدىء سيرنجفيليد بولاية الينوى من خبير فحص لوحة اشتراها اول السنة من رجل فرنسى منفى (؟) ادّعى فقد مجموعة ضخمة اضطر لبيع لوحة وحيدة (بالحروف الكبيرة) تم انقاذها (؟) قف رفض الخبير تأكيد اصالة اللوحة ، اكد تزييفا متقنا قف . نفس القلق عند ريشموند بولاية فيرجينيا جامع مبتدىء طبيب اذن وانف وحنجرة ، نفس الفنان نفس المصدر نفس السبب نفس النتيجة ، خبير آخر قف . اللوحتان محاكاة للوحتين شهيرتين تابعتين لمتحفى امستردام هولندا وباريس فرنسا سنرسل الصور قف الضحيتان راضيتان عن شراء اللوحات واثقان اطمئنانهما شيء حسن قف يرفعان دعوى ضد البارون ريموند دى لوزارش حسب بطاقة الزيارة فرنسية الصنع بلا عنوان بلا تلفون قف الاوصاف متطابقة طول حوالى ١٫٨٥ متر ٨٠ كيلو العمر ٤٠ – ٤٣ سنة مظهر رياضى ، شعر اسود عيون شديدة السواد انف مستقيم بشرة سمراء اناقة اوزوبية وسام جوقة الشرف رتبة كومندور قف لا توجد استمارة مطابقة قسم الهوية والجوازات الخ قف نرجو افادتنا علاقة مفترضة أو ممكنة مع مقتل سارازان قف ننتظر الرد قبل نشر المعلومات لتلقّى شكاوى أخرى محتملة » .

وضع بيلو البرقية امام مالبرانش وقال :

– تصلنا الاخبار قبل ان نرسلها . هكذا يكون العمل ! بديهى لن نجد شيئا يخص لوزارش هنا .

هذا البارون قد يكون اسمه أى اسم آخر ، دخل الولايات المتحدة وغادرها بجوازه الاصلى . هل ابرز هناك جواز سفر مزور أم اكتفى ببطاقات الزيارة ؟. قال مالبرانش :

– كان لابد له من بطاقة هوية فى الفنادق المختلفة التى أقام بها ليتّصل به ضحاياه أو يأتون لمقابلته . قال بيكار متذمرا :

– جواز حقيقى أو جواز مزيف ! حتى الجواز الحقيقى قد يكون مزيفا ايضا . إذا لم تلصق على « الجوازات الحقيقية » صورا قياسية وفق شروط مراسمنا الفنية ، فليس فى مقدور احد ان يتعرف من صورة الجواز على شخص حوَّر بعض قسماته . علينا ان نبحث عن الرجل اولاً ، ثم تأتى البصمات . ولكن قبل ذلك ... قالت مالبرانش :

– كيف نجزم ان هناك جوازا ثانيا ؟ أو ان هذا الفرنسى ليس امريكيا ؟ إذا كان عملاؤه خبيرون باللهجات خبرتهم بفن الاسم ... قال بيكار :

– ما اطيب مراسلينا . انهم يبعثون لنا تفاصيل غير مفيدة عن ملبس الرجل . لم يبق الا ان يذكروا لون جواربه فى ذلك اليوم . و « الاناقة الاوروبية » ماذا تعنى عند غير الأوروبى ؟. نظر مالبرانش إلى البرقية وقال :

– إجابة أولى على كل حال : ثمة علاقة واضحة بين القتل والتزوير . نهض بيكار وحاكاه بيلو .

– لحظة يا سيادة المدير . سنواصل التحقيق مع جان مارك . من الافضل تحديد عدد اللوحات التى بيعت فى الولايات المتحدة أو غيرها . قال مالبرانش :

– حسنا ، سأطلب من السجلات القيام بالاجراءات المعتادة دون كبير أمل . معك الحق فى ذلك يا بيلو : « لوزارش ! » . ابعثوا بالاوصاف لكل الاقسام .

– ٣ –

« كم لوحة من لوحات فان غوغ زيفت ؟ كم وقتا قضيت فى تزييف كل واحدة ؟ ماذا كانت مقاساتها ؟ أى اللوحات اتخذت نموذجا ؟ من اختارها ؟ أين توجد اللوحات الاصلية ؟ ما قيمتها ؟ من كان يختار « اللوحات » « المقلدة » ؟ بكم كنتم تبيعونها ؟ فى اى البلاد بعتم اللوحات غير اللوحتين اللتين ضبطناهما فى الولايات المتحدة عند سيونجفيلد و رشموند ؟ فى اى المدن ؟ . ما تاريخ بيعها ؟ اسم وعنوان المشترين ؟ كم شريك لكم غير الفرنسى الذى نجح فى بيع اللوحتين بامريكا ؟ ما هى جنسياتهم ؟ اسماؤهم واوصافهم ؟ اين تلتقون ؟ كيف كانت تقسم « الارباح » ؟ من كان يحدد الانصبة ؟ اين اخفيت اموالك ؟ ما سبب انهيار مخططكم ؟ كيف وقع الخلاف وحدثت الفرقة ؟ هل كان القتل نتيجة مباشرة أو غير مباشرة لذلك ؟ أكانت اوغستا تعلم انك مزور ؟ هل بدأت التزوير حين كنت عشيقها ؟ هل هددت بافشاء سركم ؟ هل حدث الذعر بسبب تهديدها ؟ ...

كانت الاسئلة يدفع بعضها برقاب بعض ، كانت تتزاحم ويناقض بعضها بعضا . كان بيكار يسأل وكان بيلو يسأل ايضا . اكتسب صوتاهما نبرة واحدة . صارا صوتا واحداً عجلا ، مثيرا ، حادا ، لا يترك لحظة صمت واحدة ، ولا يمكّن جان مارك ان يفكر أو ان يملك امره .

كان يحس وكأنه سَفينة ورق على مجرى ماء ينحدر من مرتفعات كرواروس بسرعة تفوق سرعته حين كان عمره خمس سنوات . ستنقلب رأسا على عقب فى اللحظة التالية وتغرق . اقسم انه قال كل ما يعلم . اقسم انه لا يخفى شيئا . يود ان يتوّسل ، ان يّبكى ، ان يتضرع ، ولكنه لا يكاد يمسك عن الاجابة حتى ينهمر سيل الأسئلة : « لا يهم ان نمضى الليل كله يا فتى سنرتاح حين نشاء ، سيأخذ غيرنا محلنا أما انت فلا . ستبقى مكانك دون ان ترتاح أو تأكل أو تشرب أو تنام . نحن كثار وعددنا يكفى لاستجوابك أياما بل اسابيع إن دعى الحال . اتظنّ ان بوسع صبى سوء مثلك ان يقف فى وجه العدالة ؟ » .

كان بيكار يدفع بمثل هذه الجمل الاعتراضية العاصفة اثناء التحقيق . أما جمل بيلو فكانت كالمطر ، كمطر يوم الاحد ينزل على مظلة فندق السيد بيدا .

كم عددها . – رسمت منها حوالى عشر لوحات ربما تسع. كنت اقضى اسبوعا تقريبا لأرسم كل منها . المقاسات ؟. – لوحات كبيرة . كانت الآنسة سارازان تختار نماذج كبيرة الحجم قياسية ، كل مسافة تباع بكذا الف فرنك ؟ النماذج ؟ ذكرها جان مارك وأحصى بيكار عددها على اصابع يديه : « هذه ست لوحات رسمت عشر لوحات . هيّا اذكر السابعة . السابعة هيّاً ! » . اللوحات المقلدة ؟ كانت الآنسة سارازان تحددها بنفسها ، كانت تخطر له فكرة احيانا وكانت تروق لها لانها كانت فكرة رسام حسب قولها . أما بقية العملية : بكم كانت تباع اللوحات ؟ فى أى بلد ؟ لمن ؟ من كان يبيعها ؟ فى تاريخ ؟ العلاقة مع القاتل ؟ كيف لى أن أعرف ذلك وأنا لم أقابل أو أرى أحدا ! اقسم لكم . اوغستا ؟ لا علاقة لها بالامر البتة ، لم يفض اليها بشيء من ذلك . الارباح ؟ ضحك جان مارك هازئا عند ذكر هذا « اللفظ » . لم تدفع لى هوغت مليما واحدا ! طبعا كانت تعيننى على دفع نفقات الفندق وكانت تمنحنى مصروفا ، ولكن أنىّ لى أن أقتصد من ذلك المبلغ ! – ولكنك كنت تنال اجرا حسنا . – فى حلات بوغان . انفقت كل ما لى . أقسم لكم انى انفقت كل مالى . قاطعه بيلو فجأة :

– لم تدفع لك مليما واحدا ! تدفع مليما واحداً ! تلك لغة التواطؤ . فى هذه المرة تغيرَّ موقف جان مارك كما حدث عدة مرات اثناء التحقيق . احتج بعد أن ظلّ يقر بكل شيء فى استكانة :

– لا أعرف أى لغة تعنى يا سيدى المفتش . الحق أنّ الآنسة سارازان لم تقبل مطلقا أن تدفع لى اجرا مقابل عملى . أقسم لك أنى كنت أجهل مصير لوحاتى المزيّفة ولم اسمع بالويالات المتحدة غير هذا المساء . كنت أظن أن لوحاتى ترسل إلى مكان ما وكنت اقول لها : أنت تجنين منها مالا ، لماذا ؟ وكانت تجيبنى : « حتى لا اجبر على بيع لوحاتى » . كانت تبيع اللوحات المزورة لتحفظ اللوحات الاصلية . كنت أفهم موقفها ولكن دورى فى كل ذلك ؟ . قال بيكار وكأنه يلقمه حجراً .

– زوجها ! . لم يهز قوله جان مارك الذى قال :
– نعم يا سيدى المفتش . كانت تقول لى ان ذلك سيبدل حياتنا . قالت : « الحق معك . سأدع ذلك . ما أقبح ان يجرّ فتى موهوب مثلك إلى فعل ذلك . اغفر لى . لا تزييف بعد اليوم . سنبدل نمط حياتنا وسنبدأ بالزواج . سنسافر إلى هولندا مثلا ، سأريك معالم هولندا » . قال بيكار .
– كل النساء يطلبن منك العفو والمغفرة . متى قالت لك ذلك ؟
– قبل ثمان ايام . قبل ثمان ايام ، يوم الاحد الفائت . حين ارسلت برقية لوالديّ .
– الم يحدث شيء خلال الثمانية أيام ؟ الم تغير رأيها ؟ . قال جان مارك مسرعا : لا شيء . لا شيء البتة . أقسم لك .
– ما أكثر ما تقسم . تلك شيمة الكذابين . كيف نصدّق أو لا نصدّق ما تقول ؟
– يا سيدى المفتش انا لا اكذب . اقسم ... كفَّ جان مارك عن الحديث ثم همهم : الخوف يملكني . هناك من يريد هلاكى . التفت بيلو نحو بيكار وقال :
– ألا تظن من المفيد يا سيدى كبير المفتشين ان نخبر بيرجيه باوصاف بائع لوحاتهم بالولايات المتحدة ؟ ورغم انه لا يعرف احدا ... تناول بيكار البرقية وقرأ : « الطول ١ر٨٥ متر ، ٨٠ كيلو » ، وحين قرأ « عيون شديدة السواد ، انف مستقيم ، بشرة سمراء » هب جان مارك واقفا وصاح كما توقّع بيلو : انه الامريكى !

– ٤ –

ما أن اجتاز الحارس مرة أخرى الباب الواقع خلف جان مارك حتى قال بيلو ، وكان مغضبا على غير عادته :
– غدا اقلب منزل الآنسة سارازان رأسا على عقب محال ألاّ يكون لمثل هذه العصابة اوراق أو دفاتر أو قوائم اخفيت بمكان ما . قال بيكار : حسنا .
كفّ كلاهما عن التفكير فيما اصابه من نتائج أوّلية ، حين جاء الحاجب وبيده ورقة . قال الحاجب :
– لم اشأ الدخول عليكم اثناء التحقيق . لقد قال لى صاحب الرسالة انها غير عاجلة . « الاسم : فرانسو بوشنى . سبب الزيارة : مقتل الآنسة شنلونج » . فرك بيكار كفّيه بهمة وقال : انه فرانسوا ماذا ؟ . دعه يدخل .
دخل فرانسوا . كان شاحب الوجه ، على شفتيه ابتسامة أميل إلى إثارة النفور . ابتسامة احدثتها ندبة بين ركن القسم الايسر ووسط الخد . كان فرانسوا خلا ذلك فتى وسيما لا يُسرف فى اناقة ملبسه . عمره وقامته كجان مرك ، وكان يتحدث بعناية وبصوت طغت عليه العاطفة :
– لست ادرى ان كنت احسن الصنع بمجيئى اليك يا سيدى . قيل لى فى الطابق الارضى اننى احسنت الصنيع . الوقت جد متأخر . قد اعود متى شئتم .

– لا يهم الوقت يا سيد بوشني . وحيث انك اتيت بشأن مقتل الآنسة شنلونج ، فالاجدر بك مقابلة كبير المفتشين بيلو ، فهو المسئول عن القضية .

حيا فرانسوا بيلو بايماءة من رأسه ، وغالب بيلو نفسه حتى لا يجيبه بابتسامة تشبه ابتسامته المائلة .

– لعلى الوم نفسي على مقتل الآنسة شنلونج . اعد نفسي مسئولا عما حدث لها . غير انه لم يدر بخلدى لحظة واحدة انه كان من الحق ان اعرض عليها دواء وهى فى تلك الحال . وأيا كان الامر ، كان خليقا بى ألا اعهد اليها بالعلبة كلها ، وقد كانت ملأى تقريبا . لو فعلت ذلك ما قتلت نفسها . قال بيكار مهدئا روعه :

– لربما كانت القت بنفسها من النافذة . لا يعنينا شعورك بالذنب ولا حتى انتحار الآنسة شنلونج وان كنا نأسف للذى وقع . يعنينا ما حدث قبل ذلك . حدّثنا كيف بلغك النبأ . لم يفلح بيكار فى تهدئة روع فرانسوا ، بقى حزنه على حاله لا يتغير تماما كابتسامته .

– قصدت منزلها قبل قليل . لا اعرف كيف وقع التحقيق عليها . كنت اريد دعوتها للعشاء ، كما فعلت مساء أمس . رأيت أمام دارها ولم افهم معنى وجوده هناك إلا بعد ان وجدت باب منزلها مغلقا ومختوما عليه بالشمع الاحمر . قصدت حارسة البناية فاخبرتنى عن نقلها إلى مستشفى كوشان ، وكانت قد علمت اسم المستشفى من احد الممرضين . وقد رجعت من المستشفى . عمى البروفسور بوشني جراح به . اعرف طبيب امتياز كان بالمستشفى وقتها فذهب يستخبر عنها . انتحرت بالدواء الذى اعطيته لها . رأيت من الخير ان اسارع فأبين ما حدث ، وان القى بالتهمة على نفسى .

– اذن لم ترها اليوم ؟

– كلا . كان ذلك خطأ منى . انا المسئول عن كل ما وقع . قال بيكار :

– الاجدر بك ان ترتب الامور كما وقعت .

– ارجو المعذرة . شد ما انا حزين . – « مثل سيمون » قال بيلو مخاطبا نفسه – . كنت احب الآنسة شنلونج حبا جما . وكانت تعدنى صديقا ولا تبادلنى عاطفتى . لم افقد الامل فى ان يميل قلبها شيئا فشيئا . ظننت حتى الامس ان هذه الندبة التى اصابتنى وانا طفل تحول دون حبها لى . كان امرا طبيعيا ان افكر مثل ذلك التفكير . ادركت بالامس ان السبب غير ذلك . لم اكن مستاء من مسار علاقتنا . كانت تحسن معاملة الناس وتعرف كيف تزن الافكار والامور . كانت تتمتع بقدر كبير من روح الدعابة . تعارفنا فى الكلية منذ وقت ليس ببعيد ، منذ شهرين . حادثتنى بعد حديث القيته . ذهبنا إلى المقهى وتناقشنا نقاشا غلب عليه الحماس . رأيت عيونها تلمع . منذ تلك اللحظة ادركت ... ادركت اننى ... (قطع فرانسوا حديثه واخذ بعض خدّه المجروح من الداخل . ما كان ذلك ليزيده حسنا ولكنه يجعله يملك امر نفسه) . طالعت بالامس صحفية من الصحف كعادتى دون ان الحظ حادث القتل الذى وقع بنيى الجرائم لا تشدنى . قال ذلك وكأنه يعتذر . لم اسمع

الآنسة شنلونج تذكر جان مارك . اهو الشخص الذى خرج حين دخلت ؟ أهو من قيّد الحارس يديه عند الباب ؟ . أجاب بيكار بالايجاب .

– ولم فعلتم به ذلك ؟ فهو برىء . عندى ما يثبت براءته .

– كان يرسم لوحات مزيفة ، لهذا ألقى القبض عليه . فاجأ قول بيكار فرانسوا ، فنسى برهة ما سأله .

– قصدت انه برىء من تهمة القتل .

– فهمنا ما اردت . تابع حديثك .

– كنت على موعد معها بعد ظهر الامس . تأخرت بعض الشيء ، كان مفتش الشرطة قد ذهب لتوه . كدت لا اعرفها . كانت شاحبة اشد الشحوب ، ذابلة كميت ، كانت ذاهلة عما حولها . حين دخلت كانت منزوية على طرف الاريكة . قالت : « أهذا أنت يا فرانسوا ؟ » . قالتها كما يلحظ الانسان أمرا طبيعيا ، مألوفا ، لا طائل من ورائه فى مثل تلك الاحوال . نهضت واخذت تذرع الغرفة جيئة وذهابا وقد لفّت ذراعيها حول جسدها . ثم اخذت تتحدث بلا انقطاع .

عجبت لو أن المرء يموت من حديث لا ينقطع كالنزيف . لم افهم اول الامر قصدها حين قالت « اجترأ وزعم انه مُرْسَل من جان مارك بيرجيه ، من جان مارك » ، كانت تعنى مفتش الشرطة . كانت تردد ما دار بينهما كاملا . انك تعرف ذلك دون شك . قال بيكار :

– لا أهمية لذلك . الاجدر بنا ان نسمع رواية الآنسة شنلونج ايضا .

لا تقلّ ذاكرة فرانسوا بوشنى قوة عن ذاكرة سيمون ريفيير . مضى بيكار وبيلو يتحققان من صحة التقرير وقد حفظاه عن ظهر قلب ، ومن صدق قول الفتاة رغم شدة ثورتها . لم يزد فرانسو على ما قيل شيئا من عنده سوى قوله : « علمت بالامر كله فى آن واحد : الجريمة ، اليد المبتورة ، الحقيبة وعلاقة اوغستا بجان مارك ، وكانت ما زالت تحبه . لم تقل ذلك ولكن امر مؤكد ...

عاد فرانسوا يسرد القصة . تلقت اوغستا رسالة الجدة واخذت تراقب جان مارك . اتصلت تلفونيا بهوغت سارازان . ذهبت إلى منزلها وتشاجرتا . حين بلغ الراوى ذلك الجزء من روايته ، تحفز بيكار وبيلو وشحذا انتباههما وتهيا للانقضاض على الكلمات مثلما يفعل من نصب كمينا . حذرت هوغت اوغستا تحذيرا نهائيا : « اغربى عن وجهى ، اغربى عن وجهى ! لو اصاب جان مارك مكروه لعرفت صانعه » . جاهد بيكار وبيلو حتى لا يقولا معا : « وبعد ذلك ... » . ليت فرانسوا يقول ذلك ، لكنه لم يفع !

– وقفت اوغستا قبالتى وقد فردت يديها المعقودتين . امسكت بكتفى وثبتت نظرها على نظرى دون ان ترانى . صمت برهة لتؤكد اهمية ما ستقول . قالت : « لم اكن اظن ان سوء سيصيب جان مارك . كانت غاضبة وهائجة ويا له من هياج ! وبعد ذلك ... » . أحس بيكار وبيلو بلذة غامرة . سيعلمان ما حدث . لم يفطن فرانسوا لحالهما فمضى يكمل حديثه :

« ادركتُ كم كانت تحبه وانها كانت على استعداد لان تفعل من اجله ما لاتستطيع فتاة ريفية

بسيطة ان تفعل لقلة حيلتها ومعارفها . لم اعد اتبين إن كنت احتقر جان مارك ذلك القدر من الاحتقار . غير انى ادركت ساعتها انه ما عاد لى مكان فى حياته » .

هذا كل ما هناك ؟ تحاشى بيكار وبيلو أن ينظر احدهما إلى الآخر وتعلقا بآخر الحكاية وقد اصبحت واضحة كل الوضوح . لقد فاضت اوغستا حسرة . « كان على ان اخبرهما انهما لن يسمعا شيئا عني وأن بوسعهما ان ينعما بحياتهما كما يحلو لهما . لكنهما تحدّثا عن الموضوع وحدّثا دبّر شخصاً آخر يعرف تلك المرأة ، التى خُدعت مثلما خدعتُ ولكنها لم تذعن كما اذعنت . دبّر ذلك الشخص كل شيء . حتى اليد ، حتى تلك اليد ... لابد أن جان مارك يظن انى فعلت ذلك » . قال فرانسوا :

– أنّى لى ان أهدىء روعها ! حاولت ان اجعلها تجلس . وضعت سترتها على كتفيها . لم يفتح على بكلمة تطيب خاطرها كانت تردد واسنانها تصطك : « سنكون وجها لوجه ؟ غدا ؟ انه سيتهمنى ، سيتهمنى ! ولو فعل لكان محقا » كانت وكأن بها مس من الجنون . فعلتُ ما سأظل نادما عليه إلى الابد اخرجت علبة الدواء كنت اريدها ان تأخذ قرصا فوراً . لكنها هدأت فجأة وقالت لى : « اعطنى الاقراص ، سابلعها لانام » . عرضت عليها ان تتعشى فقبلت ، بل قالت انها ستتزين وتغير لباسها . وفى المطعم بدت عادية رغم انها لم تأكل الا قليلا . لكنها كانت تحادثنى فى أمور كثيرة . ارادت ان ترجع إلى المنزل فى اسرع وقت ممكن وعلى عتبة بابها قالت لى : « شكرا يا فرانسوا . اشكرك » . عرضتُ عليها ان ارفقها إلى مركز الشرطة اليوم لكنها اجابتنى : « لا داعى لذلك » . تركتها فخوراً . ظننت اننى حققت معجزة ... يا لفظاعة الامر . قال بيكار :

– لقد خانت ثقتك بها .

– كلا يا سيدى . فالمرء لا يخون الا من يحب . لب المسألة غير ذلك . اكانت محقة فى اتهام نفسها ؟

– كلا دون شك . التفت بيكار ناحية بيلو وسأله :

– هل من اسئلة اخرى ؟

– كـــلا .

نهض فرانسو وهو لا يحس بما يفعل ، وقد ملكته الحيرة أكثر مما ملكته عند وصوله مركز الشرطة .

– هلا رافقت السيد وذكرت له ما يريد من تفاصيل بشأن هويتك ؟ . قد نحتاج لشهادتك مرة اخرى . شكرا على حضورك دون استدعاء . وحين خلا بيكار ببيلو عَقد اصابع يديه وطرقعهما .

– كثيراً ما قابلت فى اجتماعاتنا الدولية زميلا ايطاليا كان يقول كلما اتى ذكر شخص غريب الاطوار ، أكان مجرما أم ضحية أم رجل شرطة : « يهلك الانسان إذا فاق غباؤه ذلك » . فعلت اوغستا ما لا طاقة لها به . لقد كدت ان اقيم الدنيا لأفهم مغزى قولها : « وبعد ذلك ... » . كنت

قد حكمت ببراءة جان مارك بسبب قولها : « اغفر لى كل شيء » . لقد أضعنا الوقت طيلة هذا اليوم بدون نتيجة !

– اخالفلك الرأى . أعجب كيف جعل الفتى المرأتين تتعلقان به إلى هذا الحد . انه كاذب ، خداع ، انانى ، لكنى اظنه صادقا . لقد كانتا امرأتين فريدتين .

– ماذا تقول ؟ وحتى الآنسة سارازان صاحبة فكرة التزييف ، النصابة التى لا مثيل لها ؟ . كدت انسى ان الصحفيين قادمون عما قريب .

– اقول لك ما قاله فرانسوا : كنت اتحدث عن الاغتيال واضفت اليه الانتحار ، وايا كان سبب علاقة هوغت سارازان بجان مارك فأنا على يقين انه صادق حين يقول انها كانت تريده ان يكف عن التزييف . لقد قُتلت بسبب ذلك . أمال بيكار رأسه علامة احترام مبالغ فيه :

– تعجبنا فيك قوة حدسك . غير ان هناك قضايا من الأفضل فيها ان يكون لدينا فيها دليلا ماديا بسيطا !

قال بيلو محدثا نفسه : امرأتان فريدتين ... واضاف : فضلا عن الجدة .

(١١)

ليون تقصد باريس وباريس تقصد مونمارتر

– ١ –

... هذا خلا السيدة (ب) التي كانت محور تفكير الجدة وهى فى القطار القاصد باريس ، ذات القطار الذى ركبه جان مارك ليلة أمس يحرسه حارسان . كانت الجدة تتظاهر بالنوم ، حتى لا ترى عينى السيد شنلونج الجالس قبالتها . كانت عيناه تحدقان وكانتا واسعتين تثيران الشفقة إلى ابعد حدود الاثارة ، تحت ضوء مصباح عربة القطار الازرق الكئيب . تخيّلت نفسها مكان السيد شنلونج حين هرع إلى شارع ريمون قبيل ساعات ، وقد نسى أن يلبس قبعته أو يرتدى معطفه ، كان يصيح كحيوان مفترس : « السيدة بيرجيه ! السيدة برجيه ! إنها أوغستا ! هى التى قتلت قتيلة نويبى ! ثم انتحرت ! » . كان المفتش تيفنيه يقف بلا حراك وراء الرجل ، على عتبة الباب . ذلك المفتش الذى حال دون أن ترى حفيدها ، والذى اضطر لاصطحاب والد اوغستا المسكين حيث كانت . كان تيفنيه يردد « لا تقل ذلك يا سيد شنلونج . الكلمة التى تركتها الفتاة المسكينة لا تعنى ذلك . قولى له ذلك يا سيدتى ! قولى له ذلك ! » .

كانت الجدة تفكر فى ذلك ، وقد اغمضت عينيها . كانت تراهما وكأنهما ماثلين أمامها ، وتستعيد ما قيل فى جلاء ووضوح حتى ليخيل اليها أنها تردّده بصوت مسموع :

« لا شك فى أن اوغستا ليست مجرمة ! لعلها ارتكبت بضع حماقات انصبت عليها نتائجها الوخيمة . ما كان المفتش يريدنى أن اقول ذلك ؟ أى شيء كان يود أن اقول ؟ إن المجرم لا يمكن أن يكون اوغستا ! لأن ... ؟ ما اقبح قسوة رجال الشرطة الاشرار على جان مارك ، وما أقبح تظاهر زميلهم الباريسى بيلو ، فرد ريك بيلو ، بالاهتمام ! انهم يحتالون بكل السبل للوصول الى مقاصدهم ، ولا يحجمون عن الاغراء حتى مع امرأة فى مثل سنى ! ما أتعس السيد شنلونج ، حاله تدعو للرثاء . كيف تدنّى حاله إلى ذلك الدرك وقد عرف علو المكان ورفعة المنزلة ! كان يعض يديه وقد غفل عن الناس وعما حوله . « ستموت زوجتى من جراء ذلك ! » . أخوها طبيب لحسن الحظ . كانت الفكرة بشعة ولكنها خفّفت حزن اميلى . قلّ حزنها رغم أنه لم يخطر على بالها ما ذهب اليه رجال الشرطة من اتهام جان مارك بجرم فظيع كذلك الجرم . قلّما يسرّ المرء حتى تنهال عليه المصائب دون سواه . كانت تبكى اوغستا ما وسعها ذلك وتأسى فى ذات الوقت لما أصاب عائلة أخرى من شر أكبر . كانت تقول لنفسها : « لم تمت لنا زوجة ابن ، لقد قتلت اوغستا قبل أن يتم الزواج » .

فتحت الجدة عينيها فتحاً خفيفا لترى سكون رفيقها المحزن ، ثم أطبقتهما وعادت إلى ما كانت عليه . صاح السيد شنلونغ : « السيدة بيرجيه ! السيدة بيرجيه ! لا تتركيني أذهب لباريس وحدى ! لقد طلبت اوغستا عفو جان مارك فلنقصده سويا ! » . ترى هل ينتظرنا جان مارك بالمحطة ! لا شيء يمنعه من ذلك . ولكن قد يكون فردريك مصيبا فى رأيه ؟ قد يسعى القاتل أو القتلة إلى القضاء عليه ؟ ماذا فعل جان مارك بنفسه ؟ ما معنى الحسابات ولأى غرض كان هذا الدفتر ؟ لعلهم أرغموه على افراغ جيوبه . لابد أنه فطن إلى أن الدفتر لم يكن فى مكانه . لعله ظن أنه أضاعه أو أن أحدنا فتّش جيوب سترته حين اغمى عليه . لعله ظن أن جدته فعلت ذلك . أكنت آتى إلى باريس لو لم أعثر على الدفتر ؟ . ينبغى أن اعرضه على فردريك ، ينبغى أن افعل ذلك . « لعناية السيدة (ب) » . من تكون السيدة (ب) ؟ لماذا لا تكون الآنسة (س) ؟ أتكون أعطته ذلك المال ؟ أكانت تعوله ؟ . فتى وسيم فى عمر جان مارك وباريسية فى الخامسة والثلاثين من عمرها تملك الملايين ، لابد أنها رأت من الطبيعي اغراءه بشيء من مالها ! ولعل السيدة « ب » كانت حافظة السر ، أو الوسيطة ، أو الغاوية ؟ لا أظن ذلك ، بعد ما ذكره لنا من قرب موعد زواجهما . السيدة « ب » قد تكون اسم مصرف ! انه يكذب ولكنه ليس محتالا . انه يكذب حيطة . لا شيء يدعوه ليحتاط منا ، فهو لا يخشانا .

أمضى القطار السير ، وبدا السيد شنلونغ وكأنه ميت . ترى ماذا سيفعل لو أنها نهضت من مكانها وأغمضت عينيه . عادت الجدة إلى عالمها ، لفها وسواس سيطر عليها منذ ساعات . كانت تفلت من قبضته أحيانا ، مثلما فعلت قبل دقائق ، ولكنها كانت عاجزة عن الخلاص منه ، اللهم الا إذا أكّد لها شخص عليم ببواطن الأمور نقيضَ ما كانت تظن (ربما فعل فردريك ذلك) . خطابها . خطابها إلى اوغستا . كان شنلونغ يجهل ذلكَ ، لو علم لما رجاها أن ترافقه ! خطابها بشأن عين الهر : « أرجو أن يكون خاتم جان مارك قد أعجبك .... » . ولعل علاقة جان مارك والآنسة سارازان كانت وقتها نزوة عابرة ، أو مغامرة لا تحول دون عودته إلى اوغستا . لعلّه لم يكن قد هجر اوغستا : شباب هذا الزمان لا يتورعون عن ذلك شأنهم فى ذلك شأن من سبقوهم . شباب الأمس كان يتظاهر بذلك . هل قلب الخطاب كل شيء رأسا على عقب ، أم عجّل بما وقع ؟ لا تريد أن تصدق ذلك . لا تريد أن تصدقه ! انها تتساءل : « جان مارك يحتقرنا جميعا ، حتى أنا . ولكنى أخيفه لانى آخذه بالشدة ، كما آخذ بها الآخرين . انه ثائر جبان ، أما الآخرين فجبناء خاضعون راضون عن أنفسهم . يبدون الشجاعة أمام عدو محدد ، رسمى ، كما فعلوا إبان الحرب ، لا أمام والدة أو رئيس أو شركة ! مثل السيد كوزون ومحلات سان بوليكارب للمنسوجات والحرير ! يسعدهم أن يكونوا عبيدا ، يذلون أنفسهم أيما اذلال طلبا للرضا . جان مارك يحتقرنى لظنه أنى لم أفعل شيئا لأغير حالهم تلك . يخطيء حين يظن ذلك ، فقد فعلت ما كنت اطيق . لم أربهم بمفردى . تفاءلت حين وُلد احفادى . ستكون مارى لويز عند حسن ظنى . انها ملعونة . تربية الفتيات اسهل من تربية الفتيان . أما جان مارك فقد كان دائما لا يشبه الآخرين . يحب الاطراء

كثيراً ، ويظنه حقا . أخذه بالشدة ولكن ليس كالآخرين . أفعل ذلك حتى يحمى نفسه ويثور . انه خليق بذلك فهو موهوب . لعله كسب ذلك المال ، فاللوحات تباع بثمن غال حين يشتهر أمر صاحبها . -كانت الآنسة سارازان خير من يعينه على ذلك . يعجبنى رسمه . لولاى لما قصد باريس » .

وعند الساعة الثانية صباحا سألت الجدة شنلونج فى صوت رحيم خفيض : هل لك فى شىء من الطعام ؟ جانبون أو ساردين ؟ هدَّ السكون السيد شنلونج كما يهد السباق مسابقا ، فشرع يستعيد أنفاسه ، متأنياً ، ويبحث عنها فى جوفه دون أن يبدو على عينيه ما يدل على عودته إلى عالم الواقع . ثم قال : أفضل شيئا حلوا .

« هو أيضا ، ياله من رجل مسكين » ، قالت الجدة محدثة نفسها . وضعت على ركبتها حقيبة جديدة حلَّت محل حقيبتها الأخرى ، وأخرجت منها شرائح من الخبز اعدَّتها اميلى أمس لجان مارك .

— ٢ —

عند بزوغ فجر اليوم التالى ، وكان يوم خميس ، هرع بلوندل وتوسان وتسلما جيزيل من شارع لافيرم وتركا بعض التعليمات للعريف ماليكورم ، سيكون نهار اليوم حافلا بالعمل : فى الساعة التاسعة سيقابل مالبرانش بنفسه الاخصائيين يرافقه بيلو . فى التاسعة والنصف سيرسل ماليكورم فريق « الهادمين » الذين لا يتركون شيئا فى مكانه إلَّا الجدران ، على نقيض ما يفعل رصفاؤه من عمال المبانى . كانت جيزيل ترقب وصولهم بعد أن اخطرت بذلك ، وكانت عابسة . قالت وهى بالسيارة :

— كان الاجدر بكم أن تتركونى أنام قليلا . أجاب بلوندل :

— وأنت ايضا !

— أين تذهبون بى ؟

— إلى دارِكِ ، يا عزيزتى .

— إلى دارى . فى كولومبييه ؟

— إلى دارك فى فوندارى . إن لم يكن المفتاح معك دبَّرنا الأمر .

— المتفاح معى لحسن الحظ . لا تخفى عليكم خافية .

— حيلتنا لا تنضب .

— ما كنت مختفية . لا يعنى ذلك غيرى . لن تجدوا شيئا بالدار ! الاجدر بكم أن تقبضوا على قاتل الآنسة ، بدل أن تضايقوا فتاة بريئة طيِّبة مثلى .

— ربما كان القاتل فى دارك ! . إحمرَّ وجه الفتاة احمرارا شديدا .

— ما أبشع ما تقول .

انزوت فى ركن السيارة والتزمت . لم يكن ثمة من يرغب فى حديثها . تبادل بلوندل وتوسان وزميلهما لاكروا الذى كان يسوق السيارة بعض المعلومات عن سباق الخيل بأوتى يوم الاحد القادم الموافق يوم عيد القيامة . شارع أوتى ، البناية قديمة ، ستارة نافذة الحارسة مازالت مسدلة ، الدرج نظيف ، مسكن جيزيل بالطابق الثالث . أضى النور . غرفتان ومطبخ يطل على فناء . كان المكان نظيفا ، الاثاث ضخم كصاحبة الدار ، اشترته بالاقساط ، مؤمن لوقت طويل ، تنبعث من المكان رائحة دهان طيب ومن دورة المياه رائحة مزيل للروائح . يدرك المرء أنَّ جيزيل عملت فى أماكن ممتازة وأنها حصلت على شهادات تقدير . بعض الكتب وضعت على رف ، وعلى فوط مثقبة وضعت بعض أدوات الزينة البسيطة . كان المكان يبدو وكأن لا أحد يسكنه . قال بلوندل :

– هيا بنا نبدأ العمل . قالت جيزيل :

– ماذا ستفعلون ؟ فالقاتل ليس هنا .

فتح بلوندل باب الدولاب الكبير . رأى عينا جيزيل تجحظان كما فعلتا حين أخذوا يفتشون حجرتها فى نوييى . سرعان ما رأى بلوندل على يساره وأمام وجهه صندوق مجوهرات صغير وقفازات سويديه رماديه تبدو عليها الجدة ، وآلة موسيقية صغيرة من النوع الذى يهدى للاطفال ، محلاة بالفضة ، تشبه دلو شمبانيا مصغرً ، قد وضعت بين منشفتين لا تخفيان منها شيئا . تهالكت جيزيل على معقد وقالت : آه .... قال بلوندل وهو يأخذ ما وجد : من الطريف أن هذه الاشياء أتت لوحدها هنا .

وضع بلوندل القفازات وآلة الموسيقى على المائدة وحاول فتح الصندوق الصغير . كان واضحا من حجم الصندوق أن به خاتما . قد يكون الخاتم بسيطا ، ولكن الخاتم الذى بداخل الصندوق كان غير ذلك . ومع أن الضوء المنبعث كان ضعيفا ، الا أن بريق الجوهرة لمع لمعاناً شديداً . قال توسان :

– جوهرة بهذا الحجم ! الا يكون أسمها ماسة مفردة ؟ . رفعت جيزيل حاجبيها وتهدّلت عضلات فمها الجانبية :

– انه جد صغير ، قياساً إلى الخاتم الذى كانت تلبسه الآنسة سارازان . لم أسرق شيئاً فى حياتى قبل ذلك . قال بلوندل وهو يقفل الصندوق الصغير ويضعه فى جيبه :

– بوسع الانسان أن يسرق متى شاء ، تُقرّين أن هذه ، أن هذه الثلاث ... (لم يجد بلوندل اللفظ المناسب لتسمية هذه الأشياء المختلفة) كانت فى بيت الآنسة سارازان ؟ . قالت جزيل :

– إنها كانت هناك دون شك . لقد هزّتنى الصدمة هزاً عنيفاً ولعلى أخذتها دون أن أعى ذلك . تأمّل هذه القفازات ! انها مقاس ٦ ونصف على أكثر تقدير ومقاسى ٨ تقريبا . انها لا تناسبنى اطلاقا . قال بلوندل :

– قد لا تناسبك القفازات ، أمّا الخاتم فسيكفل لك إقامة طيبة فى السجن بما فى ذلك تكاليف الرحلة . كاد بلوندل أن يمسك بالآلة الموسيقية . قال توسان :

– قد تكون عليها بصمات .
– نعم بصمات كثيرة . لا ضير أن نضيف اليها بصماتنا أيضا . قال توسان .
– المح عليها : Le Seau Grenu ، مكتوبًا فى كلمتين . انها كلمة واحدة !

أخذ توسان يدير المقبض فى بطء . انسل من الآلة لحن خافت من ثلاث نغمات ، ثم أصبح أكثر عذوبة . ثم خفت وأصبح حزينا . انهارت جيزيل وانفجرت باكية :

– كانت هذه الحلى مبعثرة على الأرض مع بقية الاشياء . صعدت بعد هنيهة من وصول السيد بيلو ومعاونيه يوم الاثنين الماضى ، بينما التقوا حول القتيلة . كنت اريد أن اعرف لو أنّ عراكا وقع بالطابق الأول ، بل أننى نزلت بعدها لأقول لهم فى أى حال وجدت الغرفة . لعلى أخذته والقفازات حينذاك . قال بلوندل .
– أخذت ماذا ؟ الآلة الموسيقية ؟
– لا ، الصندوق . لم أحسن صنعا ، فالموتى لهم حرمتهم . لعلّى كنت افتش عن تذكار ؟ – نظرت إلى المفتش نظرة توسل – ربما كنت أنوى اعادته إلى مكانه .
– اسالى هذه الاسئلة لرؤسائنا . اظنك تملكين كثيراً من الذكريات أُخِذَت من منزل الآنسة سارازان أو من منازل غيرها من مخدميك . أراك مولعة بالتفتيش . سنرى ذلك فيما بعد ... قاطعته جيزيل قائلة :
– أقسم لك برأس أمى . لم آخذ الا بضع مناشف . جلس بلوندل وأخذ آلة الموسيقى بدوره .
– قلت : فيما بعد . يهمنى أن اعرف المزيد عن هذه الآلة . هل كانت ضمن الاشياء التى أخرجت من الادراج ؟

انحنى توسان فوق كتف بلوندل وتفحّص الآلة . كانت المادة التى صنعت منها تشبه الفضة المنقوشة ، نقشات على صفحة المعدن ، وعلى وسطها شارة كتب عليها : Le Seau Grenu . قال توسان :

– ذلك من باب الاشهار . تابع بلوندل التحقيق .
– هل كانت الآنسة سارازان تحفظ هذه الآلة كتذكار ؟ ، تذكار غاية فى الجدة ! . أجابت جيزل وقد تهيأت لمساعدة العدالة ما وسعها ذلك .
– كلّا ، يا سيدى المفتش . لم آخذها من الادراج ولا فى ذلك اليوم ، بل يوم الاحد ، عندما أتيتُ الآنسة سارازان بطعام الافطار . كانت تستيقظ فى وقت محدد وتنظر إلى ساعتها . لم أر فى حياتى من هو بتلك الدقة . أمّا يوم الاحد ذاك ، فلم يكن بوسعها أن تستيقظ ...
– هل كانت مريضة ؟
– كلّا . لعلها عادت إلى المنزل فى وقت متأخر من الليل . لم اسمعها حين عادت ، فقد كنت نائمة . كانت قد خرجت يوم السبت بعد العشاء وقد ارتدت أكثر فساتينها كشفا للرقبة والعنق ، وأظنها خلعت ثيابها حين عادت كيفما اتفق ، والقتها دون ترتيب : الفستان ، الجوارب ، القميص

الداخلى ، بل كان حذاؤها تحت الصوان . غريب أن تفعل ذلك وهى المعروفة بحبها للنظام ! كانت هناك أشياء خاصة برقصة الكوتيون وكيسا ملىء بالكرات الملونة وملف حلزونى . أدوات لهو ولعب !

– أقالت لك اين كانت ذاهبة ؟

– كلاً ، كعادتها دائما .

– أخرجت بمفردها ؟

– نعم يا سيادة المفتش ، وركبت سيارتها الصغيرة .

– وعادت إلى المنزل بمفردها ؟

– أؤكّد أنها كانت وحدها صباح اليوم التالى ، كصباح كل يوم !

– أين اختفت معدات رقصة الكوتيون ؟

– طلبت منى أن أحرقها .

– أيـــــن ؟

– فى موقد الطبخ !

– هل قمت بذلك ؟

– طبعا . عدا آلة الموسيقى هذه . وجدتها فيما بعد حين نهضت الآنسة من فراشها . وجدتها تحت الصوان أيضا . ما كان يمكن إحراقها ، فضلا عن أنها جميلة . قال توسان :

– انها دعاية لنادى ليلى . عزف بلوندل على آلة الموسيقى نغمات عذبة .

– ذوقك الموسيقى جد رفيع ، يا سيدة جيزيل ! (لم تفهم جيزل قصده فأرخت رأسها) . لعلك جديرة بالتقريط .

– ٣ –

حين بلغ ثلاثتهم مقر البوليس الجنائى ، لم يعاودوا التحقيق مع جيزيل ، رغم أن بيلو وبيكار ومالبرانش كانوا هناك . لم تثر جيزيل انتباه بيلو ، مع أن الشابين بلوندل وتوسان اكدا أنها اعتادت السرقة وإن لم تسرق قبل ذلك احجارا كريمة . اثارت آلة الموسيقى عظيم اهتمامه وكذلك ليلة السبت . اتصل بيلو بفرقة مكافحة المخدرات . بعد ربع ساعة أتى فافاسير . كان العريف فافاسير يعمل بفرقة مكافحة المخدرات منذ وقت طويل ، كان يشبه الدبلوماسيين وقد اطلقوا عليه لفظ « الانيق » .

– تريد معلومات عن « Le Seau Grenu » ، يا كبير المفتشين ؟ ما تريده سهل . لقد حضرت حفل افتتاحه . ليس من أجل العمل . لقد بعث صاحب المكان ، وهو اقرب ما يكون مطعما ليلياً ممتازا من الدرجة الأولى ، بطاقتى دعوة إلى فرقة مكافحة المخدرات . كانت بادرة باهظة الثمن منه ، قياسا إلى ارتفاع ثمن العشاء ! أجرينا القرعة ففزت وذهبت مع صديقة تحب مثل هذه الاماكن حين

تكون أنيقة . شكرتنى كثيراً على دعوتها . يقع المكان فى آخر شارع مارتير ، ند زاوية شارع كوندورسيه .
— أى شي « شاذ » فى هذا الملهى ؟ . أهو للرجال أم للنساء أم لمن يتعاطون المخدرات ؟ — ماذا شاهدت ؟
— شاهدت عرضا رائعا . جينا هيرمان على رأس القائمة ، وهى مشهورة ! زوجتى تقتنى كل اسطواناتها .
— « ولكنها لا تملك ثوب سهرة واحد مناسب » ، قال بيلو محدثا نفسه .
— وعند الساعة الواحدة صباحا قدموا لنا ازهارا وهدايا واشياء تخص رقصة الكوتيون . ورقصنا على انغام جاز لندن . كان الجو يسوده المرح والحبور .
— صاحب الملهى ؟
— شركة احسنت اختيار مدير الملهى واسمه ميرسييه . مشهود له فى تلك الأوساط . أدار ملاهى اخرى قبل ذلك ، كانت كلها فاخرة ، غالية الثمن ، لا شيء « شاذ » فيها على الاطلاق . دعا يوم السبت صفوة اهل باريس : نجوم ووجهاء وفنانين وعضوين من اعضاء الاكاديمية .
— أى فنانين ؟ رسَّامين ؟
— كتّاب . أليسوا فنانين ؟ لقد عرفت احدهم .

قال بلوندل وهو يعرض عليه صورة هوغت سارازان لابسة ملابس السباحة : وهذه السيدة ، هل رأيتها ؟ . تفحَّص فافاسير الصورة وقال :
— من الفطنة أن تعرض علىّ صورة امرأة بملابس السباحة لتعرف إن كنت رأيتها ... عفواً يا سيدى كبير المفتشين . نعم رأيتها . رأيتها لكنى لا أعرفها . من هى ؟
— هوغت سارازان ، قُتلت يوم الأحد التالى فى منزلها الخاص بنويبى . قال فافاسير وقد اذهلته المفاجأة :
السيد المبتورة داخل الحقيبة ؟ . صور الصحافة كانت سيئة . وصلت بعد أن وصلنا وكانت وحدها . جلست إلى مائدة حجزت لها . لوحدها . كان ذلك ملفتا للنظر . اعجبت بها صديقتى . حيّاها بعض الناس . نهضت فيما بعد وجلست إلى مائدة بها بعض المدعوين . قابلها السيد ميرسييه بأدب ، كان يتأدب مع كل المدعوين . كانت تميل إلى الافراط فى الشرب ، ثم بدا عليها الانتشاء والتوتر . غادرنا الملهى قبلها .
— هل للمدعو ميرسييه علاقة بالشرطة ؟
— كلّا . انه يتعامل مع الكبراء ، مع الدائرة الديمقراطية فى شارع فافار .
—حَجْز مائدة كاملة لفرد واحد طوال الليلة فى مطعم ليلى ، حتى وان كان ممتازا ، يقتضى أن يكون الشخص على معرفة بصاحب المحل . (قال بيلو ذلك ثم نظر إلى ساعته وأكمل حديثه) . ولكن علىَّ أن استقبل بمحطة ليون والد الفتاة التى انتحرت أمس . قال فافاسير :
— قرأت هذا قبل لحظة .

– سيأخذ سيمون والد الفتاة إلى مستشفى كوشان ، أما أنا ... فى أى ساعة يغلق ملهى **Le Seau Grenu** ؟

– عندما ينصرف آخر الزبائن . حوالى الساعة السابعة صباحا . ميرسييه يبقى بعض الوقت بعد ذلك ليراجع حساباته ويطلب ما يحتاجه . ولعله هيأ لنفسه مسكنا فى الطابق الاول من الملهى .

– هل هو أعزب .

– نعـــم ...

– سأذهب لزيارة الملهى زيارة خاطفة . قبل أن يجتمع الخبراء بشارع لافيرم ... قال فافاسير :

– لا أفهم ما تعنى . رد بيلو :

– هنيئا لك ، فأنا أبحر على غير هدى فى بحر غامض .

– ٤ –

أخذ بيلو يترقب وصول شنلونج المسكين قرب قاطرة القطار التى توقفت لتوها بعد جهد أخير ، وكأن هذه الوقفة لم تكن ضرورة ، وكأنها تلفظ انفاسها الأخيرة . كانت المحطة مزدحمة بالناس ، ولم يكن شنلونج طويل القامة . قال بيلو لسيمون :

– ها هو . لقد ارتدى ملابس سوداء . تقدم بيلو خطوة . صاح شنلونج ، وهو يمد يديه لمصافحته ، وكأنه يلاقى صديقا طال فراقه .

– السيد بيلو . جئت بنفسك . طمئنى أن عائلتى ليس بها قاتل ! إن ابنتى لم تقتل أحدا . وأنها قتلت نفسها طيشا !

أبطأ بعض المارة السير واخذوا ينظرون اليهما . قال بيلو بلهجة اقتناع جعلته يضغط على فكيه : بالتأكيد ، بالتأكيد . انها فاجعة ، فاجعة لا غير . خطا شخص أقصر من شنلونج خطوة جانبية من خلفه .

– صباح الخير يا سيدى كبير المفتشين .

– السيدة بيرجية الأم ! . كانت دهشة بيلو حقيقية . بعد رسالتها إلى اوغستا . ماذا يحدث لو عثر السيد شنلونج على الرسالة ضمن اوراق ابنته ؟ ولكن لن يحدث ذلك فقد أحرقت الرسالة . لعل ذات الشعور انتاب سيمون فى تلك اللحظة . أراد بيلو أن يقدم سيمون ولكن الجدة استطردت ، لا لتشرح سبب مجيئها بل لتسأل :

– ألم يأت جان مارك ؟ أما زلتم تحبسونه وكأنه كنز ثمين ؟ . (يالها من أمرأة حادة ! ذلك من سوء حظها) .

– انه فى السجن يا سيدتى ، متّهم بالتزوير . لم ينتظر بيلو أثر كلماته تلك على الجدة ، فمضى يحدث شنلونج :

– سيقوم المفتش ريفيير بمساعدتك ... شعر بيلو فجأة بالحاجة إلى تخطى الاطار الرسمى لوظيفته . كانت تلك أول مرة يفعل فيها ذلك . قال : سيمون ريفيير ابنى بالعمودية ، انه فى مكان إبنى . كان يعرف ابنتك بعض الشيء ويكنّ لها اعجابا كبيراً .

تأوه السيد شنلونج ولم يجرأ على رفع بصره ، وهو يمسك بذراع بيلو ليواصل سيره . تبعتهم الجدة خلف سيمون . ابتلعت الجدة صدمة ذكر التزوير وأدركت أن الوقت لم يكن مناسبا للاحتجاج . « بعد خمس دقائق ، حين ينصرف الآخرون ، لن يفلت منى هذا الوحش » . اخذت تمعن النظر إلى مرافقها دون موارية ثم سألته بصوت خفيض جعله يميل نحوها .

– هل رأيت اوغستا بشأن القضية ؟

– لقد فعلت ذلك يا سيدتى .

– أمتأكد أنت أنك لم تدفعها بصورة أو أخرى إلى الانتحار ؟ . انكم رجال الشرطة تحسنون معاملة الناس ! .

قال سيمون محدثا نفسه : « على أن أحول دون احمرار وجهى ، فقد تظن ذلك بسبب الندم » . ولكن وجه سيمون احمرَّ وظنّت الجدة انه فعل ذلك غضباً ، فرضيت عن ذلك . ولكن احمرار وجه سيمون كان سببه الندم . وحين بلغوا السيارة التى كانت تنتظرهم ، التفت بيلو وقال :

– أترافقين السيد شنلونج أيضا يا سيدتى ؟

– لا يا سيدى ، فهو ليس بمفرده . قال بيلو لشنلونج :

– معذرة ، فلن أصحبكما . أنا جد مشغول هذا الصباح . (« انه يعنينى بذلك . ولكنه يخطىء التقدير ») . يمكن أن نلتقى بعد ظهر اليوم أو متى ما شئت . قال السيد شنلونج :

– بل متى ما شئت وأين شئت أنت . لا ينبغى أن تضيع ثانية من وقتك وأنت تبحث عن قاتل قتل ابنتى أيضا ، إن لم تكن ابنتى قد قتلت احد . يؤسفنى أن اكون عاجزا عن مساعدتك .

ركب شنلونج السيارة وجلس بجانب سيمون . انطلقت السيارة فى حين وقف بيلو والجدة جنبا إلى جنب بلا حراك . قال بيلو : « سأذهب إلى شأنى » . قالت الجدة :

هـل ... اضطر بيلو إلى النظر اليها وقال :

– ماذا يا سيدتى ؟

– لدىّ ما أقوله لك . أتيت باريس لأجل ذلك . نظرت اليه ذات نظرته الباردة وقالت : فردريك . لم يرد بيلو ، وكان يصغى اليها فى اهتمام شديد وقال :

– سأبقى معك خمس دقائق .

– خمس دقائق فقط .

– دعينا نذهب عند مفتش شرطة المحطة .

تم استقبالهما وتُركا لوحدهما . اخرجت الجدة الدفتر من حقيبة يدها وفتحت الصفحة المطلوبة : حسابات حفيـدى . قال بيلو ، حين رأى جملة المبالغ :

– يا للعجب ! من تكون السيدة « ب » ؟

– كنت سأسالك عن ذلك .

– لابد أن تكون شخصا يقطن باريس ، كان بوسعه أن يعهد اليه بالمبالغ كل مرة بلا وسيط أو دليل . الا تعرفين احدًا يبدأ اسمه بحرف الباء ؟

– لا أحد سواك يا سيدى . ابتسم بيلو فابتسمت الجدة أيضا .

– سنسأله عن ذلك . انه يحجم عن ذكر الحقيقة ويكذب كثيراً ، ولكنه يذعن حين يدرك اننا نعلم شيئا . قالت الجدة :

– سيُدهش حين يرى هذا الدفتر بين يديك . قل له أنى أتيت به .

– سيظن انك وشيت به ؟

– هلاّ حدثتنى أولا عن قضية الدفتر ؟

– لم تؤثر عليك هذه المسألة كثيراً .

لم ترد الجدة ، بل ظلت تنتظر رد بيلو فى هدوء تام . كانت فى غاية النشاط ، بعد أن قضت الليل على مقعد القطار . كانت وكأنها خرجت لتوها من الحمام . قال بيلو :

– أظن أن المبالغ الاولى وهى متطابقة كانت أجره الشهرى فى محلات بوغان ، أماَّ المبالغ الأخيرة فكانت حصته الضخمة نظير « اللوحات المزوَّرة » والتوقيع . قالت الجدة :

– انه جد موهوب . انقل اليه ذلك ، يا سيدى كبير المفتشين ، تلك حقيقة شعورى نحوه . كنت أفضل لو كسب كل هذا المال من لوحات رسمها هو وعليها اسمه . لعلَّه اتيح لقلة من الشبان ما أتيح له من حظ . ولكننى فرحة لأنه لم يتلق ذلك المال لقاء ... أظنك تفهم ما أعنى . قال بيلو متأدبا :

– تماما يا سيدتى . نظرت اليه الجدة بامعان يقارب الازدراء .

– أكره الرجال حين يستغلون جاذبيتهم . انحنى بيلو وقال :

– ثقى أننى سأقول له ذلك .

(١٢)

مفاجـــأة ملهـــى « SEAU GRENU »

– ١ –

ذهب سيمون . قد يكون من حسن حظه أن يصحبه السيد شنلونج إلى شارع أسّاس ، فرغم أن الآنسة شنلونج بريئة الا أنها ربما كانت تعلم أكثر مما ذكرت ، ولعلها تركت من الآثار ما يدل على ذلك . بعد ذلك ذهب بيلو ليقابل بلوندل فى شارع مارتير على مقربة من ملهى « Le Seau Grenu » . لمح بيلو من مقعده فى التاكسى بلوندل ، فأوقف التاكسى قبل أن يحاذيه ودفع للسائق اجره ولحق ببلوندل . قال بلوندل :

– واجهة الملهى رائعة وكذلك داخله . القيت نظرة من الباب المفتوح وابصرت عاملا ينظف المكان . قال بيلو : هيا بنا .

كان الضوء الخافت يضفى على صالة واسعة ، غطت جدرانها بالخشب ، ملامح صالة عرض الاسلحة فى قلعة من القلاع الاسكتلندية . كانت كل الموائد قد وضعت فى أركان الصالة ، وفى وسط الصالة كانت حلبة الرقص تتوهج وكأنها صنعت من مادة سحرية . قال بلوندل : تلك جوهرة أخرى .

كان عامل النظافة عجوزًا ، نحيل الجسم ، يدير فى مهارة مكنسة كهربائية حال ضجيجها دون أن يسمع ما يقول بلوندل وبيلو وهما قادمان نحوه . قال العامل : دقيقة . سأوقف المكنسة . ماذا تريدان ؟ . سأل بيلو :

– هل السيد ميرسيه موجود ؟

– لأى غرض تريدانه ؟

– لغرض شخصى .

مط العامل شفتيه ، شأن من اعتاد مثل هذه المواقف .

– كل الزوار يقولون ذلك ، ثم يقع اللوم علىّ أنا . استقبال الوكلاء كل يوم ابتداء من الساعة الرابعة . الرابعة بعد الظهر .

– لسنا وكلاء . أؤكّد لك أنك لن تُلام هذه المرة . أما إذا منعتنا من الدخول فسندخل عنوة . قال العامل العجوز :

– قد لا تكونون منهم . ولو كنتم لاطلقتم علىّ الرصاص ! هلا تبعتمانى . مكتب السيد ميرسية فى

الرواق خلف مكان الفرقة الموسيقية . وحين لا يكون موجودا بمكتبه ، يكون فى مسكنه بالطابق الاعلى .

سأل بلوندل وهم يدورون حول مصطبة الجوقة الموسيقية وعليها آلات الموسيقى :

– ما حال العمل بالملهى ؟ . قال العجوز فخوْراً :

– نرفض من الزبائن عدداً يفوق من نسمح لهم بالدخول ! . طرق العجوز أول باب فى الرواق . ردّ صوت كصوت الباريتون : أدخـل .

– سيدان يريدان مقابلتك لأمر خاص ، يا سيد ميرسيه .

– حقـــا ؟ . ظهر ميرسية عند عتبة الباب . نظر اليه بيلو وبلوندل . ردّد بيلو بصورة ميكانيكية :

– السيد ميرسيه ؟

– نعم ، من أنتما ... ؟ . نظر بيلو تجاه العامل العجوز وقال :

– شكرا لك يا جان ، بوسعك أن تنصرف .

انصرف جان بعد أن اطمأن قلبه . قال بيلو :

– المعذرة على مجيئنا فى هذه الساعة . أنا بيلو ، كبير المفتشين بالفرقة الجنائية . المفتش بلوندل مساعدى .

– ادخلا وأجلسا . لقد اعتدت على الزيارة فى مثل هذه الساعة . سيكون بوسعى أن أنام حالما أفرغ من مراجعة الحسابات !

جلس ميرسيه خلف مكتبه الملىء بأوراق أحسن تنظيمها .

– لم نعتد على زيارة مفتشين من فرقتكم لحسن الحظ ! كيف يمكن أن اساعدكم ؟

– طبعا قرأت فى صحف الثلاثاء نبأ الجريمة التى وقعت فى نوبى يوم الاحد الماضى .

ارتسم على وجه ميرسيه تعبير يناسب الموقف .

– أظنها واحدة من زبائن الملهى ، الآنسة سارازان . جريمة فظيعة !

عرض عليه بيلو حقيبة صغيرة .

– وجدنا عند خادمتها هذا الشيء – أخرج بيلو الآلة الموسيقية من الحقيبة – وكانت الآنسة سارازان قد اخذتها من هذا المكان ليل السبت .

تعرّف ميرسية على الآلة الموسيقية . أعاد بيلو الآلة إلى مكانها بالحقيبة الصغيرة ، واعاد الحقيبة إلى جيبه .

– شاركت الآنسة سارازان فى حفل الافتتاح يوم السبت .

– أكنت تعرفها جيداً ؟

– ليس إلى ذلك الحد . لم تكن تتردد على المحل كثيراً ، فكانت تأتى من وقت لآخر . مهنتنا تحتاج إلى ذاكرة جيدة لا تنسى الاسماء والاشكال ! بالنسبة للاسماء الامر سهل ، لأن الزبون يذكر اسمه حين يحجز مائدة وتحفظ تحت اسم الزبون ! . خفت صوت ميرسيه بعد ان أصابه جذل يسير . أما بالنسبة للشكل فحين تكون امرأة فى جمال المسكينة الآنسة سارازان ... لقد رأيتَها ميتة ، يا سيدى كبير المفتشين ، فلم تعرف رقتها وجاذبيتها وسحر ذكائها ! يقال ان النساء لسن بحاجة للذكاء ، كانت هى تؤكد نقيض ذلك . بدا على بيلو وكأن الاطراء راقه :

– لقد سحرتك كثيراً .

– ادركت ذلك حين علمت بالمأساة . أن لا اراها بعد ذلك ابداً ، ولو كل ستة أشهر ... !

– هل ذهبت إلى دارها ابدا ؟

– كلا . عنوانها مدوَّن فى سجلاتى . ليس غير .

– ولكنك تعرف من كانوا بصحبتها حين كانت تأتى إلى الملهى ؟ . جاء الرد حاسما :

– كانت تأتى وحدها دائما .

– ألم يكن الامر غريبا ؟

– يا سيدى كبير المفتشين . إدارة محلاتى ... لم ير ميرسيه جدوى لأن يضيف شيئا . قال بيلو :

– كنت أظنها مساهمة فى هذه المحلات ، وأنها كانت جزءا من المحل .

– كلا . دعنى أبين الامر . أنا صاحب الشركة ، شركائى ممولون سابقون يملكون اسهما ضئيلة . رد بيلو بأدب :

– فى اطار القانون ، أنت حر فى استثمار أموالك كما تشاء . لنعد إلى الآنسة سارازان . كانت وحيدة حتى فى الاماكن التى لا تناسب الوحدة . كان لها خطيب ، خطيب شاب ... لمعت عينا ميرسيه :

– يقال ذلك .

– ألم تراهما ابدا معا ؟

– لم يراهما أحد معا ! بعض زبائنى ممن كانوا يعرفونها لا يتحدثون فى غير ذلك منذ يومين . يدهشهم ذلك الامر كما يدهشهم قتلها ! قد يكون « الخطيب » مولعا بالكذب على أحسن فرض . لقد تحدثت عن وحدة الآنسة سارازان يا سيدى كبير المفتشين . ولكن الآنسة سارازان كانت يسرّها لقاء معارفها !

– وقد فعلت ذلك يوم السبت . فتركت مائدتها إلى مائدة أخرى ، حيث يقال أنها جادلت من كانوا بها جدلا شديداً . قال ميرسيه :

– من بين رواد محلى زملاء لكم .

– لكننا لا نعلم من كان يجالس الآنسة سارازان .

– ولا أنا للاسف . ان عملى يحتم على أن أكون فى ناحية الادارة أو اماكن النجوم أكثر من ناحية الصالة . سأسأل المسئول عن الخدمة . سنعرف على الاقل من حجز المائدة . علينا أن ننتظر حتى

الثامنة من مساء اليوم ، فالمسئول عن الخدمة واسمه ارنست يسكن فوكرسون ولا يملك هاتفا . سأتصل بكما وابلغكما الخبر .

قال بيلو وهو ينهض . فعل بلوندل مثله .

- لا تزعج نفسك . سأعود فى الثامنة . لعل المسئول عن الخدمة سمع جملة أو كلاما يفيدنا . هلاّ اعطيتنا منذ الآن قائمة رواد المحل مساء السبت ؟ . بالتأكيد .

كانت القوائم على المكتب . أخذها بيلو شاكرا وقال :

- سؤال أخير . هل لاحظت أن الآنسة سارازان ليلة السبت كانت قلقة بعض الشىء ؟

- كلا ، يا سيدى كبير المفتشين .

صحبهما ميرسيه حتى عتبة المطعم . فرغ جان من وضع الموائد فى مكانها بسهولة لا يوحى بها عمره وهزاله . تصافح بيلو وميرسيه بحرارة حتى قال ميرسيه :

- إننى رهن اشارتكم . سيسرّنى كثيراً أن يدفع فاعل هذه الجريمة حياته ثمنا لفعلته .

- ٢ -

قال بيلو لبلوندل دون أن يحرك رأسه :

- لا تلتفت . لعله ما زال عند عتبة الباب ينظر الينا خارجين . قال بلوندل :

- لشد ما أدهشنى الامر ... الا إذا كانت صدفة عجيبة .

- طبعا . قد يكون للمسيح توأم ! دعنى امشى على مهل فستعود إلى المحل ... انه يشبه **البارون دى سبرنقفيلد** و **دى ريشموند** وأماكن أخرى شبها تاما ، ولا ينقصه سوى الشارب .

- إنه الامريكى ! . قال بيلو :

- يزعم جان مارك ذلك . أخذت الدهشة بلوندل مرة أخرى .

- كيف ذلك أيها الرئيس وأنت منذ البداية توحى بأنك تصدق ما يقول .

- يساورنى الشك الآن . اعتقد بوجود شخص بدَّل الحقيبة بأخرى ، ولكن أن تكون لهذا الشخص لهجة أمريكية ، وميرسيه قد زار امريكا ، وأن يكون طوله طول ميرسيه وملامحه ذات ملامح ميرسيه ، قد يعنى ذلك أيضا أن المزور الشاب اراد أن ينتقم من شريك يتهمه بما وقع له قبل ذلك ، وأنه جعله مكان الشخص الغامض الذى اراد أن ينتقم منه . جان مارك لا يكذب حين يؤكد أنه لا يعرف الشخص الغامض ولكنه يكذب حين يزعم أنه لا يعرف ميرسيه اطلاقا . قال بلوندل حائرا :

- الثلاثى الذى زوَّر لوحات فان غوغ ، أى سارازان وجان مارك وميرسيه ، قد يكون رباعيا ؟

- لعل الامريكى لا يعلم بمثل هذه النشاطات ، ولعله كان على صلة بالآنسة سارازان وبجان مارك وليس بمرسيه .

– أتظن ذلك حقا ... ؟ . ابتسم بيلو :
– إلا إذا كنت أريد أن أعلّمك مهنتك وأحاول فى ذات الوقت الا أتحجّر فى مهنتى . عد الآن حيث كنا وراقب المبنى ما أمكنك ذلك . المدخل ومدخل المطعم ومدخل العاملين بشارع كوندورسيه . سأتصل هاتفيا من أقرب مقهى ، حتى يأتى من يحل محلك فى أسرع وقت . إذا خرج اتبعه . عندما يأتى بديلك ، فتّش قليلا فيما حول المكان . ابحث عن سيارته ، ذلك مهم . سأخبر سلطات الترخيص والجوازات وسأنطلق إلى نويى . أظن أن رئيسنا قد ذهب اليها .
– ألن نعتقله فوراً ؟ الرسام فى السجن وينبغى أن يلحق به البائع !
– أريد معرفة المزيد عن المحرّضة على ذلك .

يخيل إلى الداخل إلى غرفتى الاستقبال بشارع لافيرم أن من اجتمعوا بهما تربطهم صلة قرابة بالقتيلة . جلسوا بمعاطفهم السوداء . كانت سحناتهم داكنة وكان كل منهم يتجاهل نظرات رفقائه . كانوا يشبهون الورثة قبل قراءة الوصية . ورغم أن مالبرانش وقف أمامهم ، إلا انه كان يشبه موثق العقود . لم يكن الامر أقلّ خطرا من ذلك . كان كل خبير من اولئك الخبراء يخشى أن يسمع ما يؤدى إلى انهيار سمعته . لقد قرأوا صحف الصباح وعلموا امر لوحات فان غوغ المزورة التى رسمها خطيب الآنسة سارازان . انه امر لا يصدّق وقد انتشرت تلك اللوحات فى أرجاء العالم !

هل شهد بعضهم بأصالتها ؟ ومن شهد بذلك منهم ؟ وحين تُقْدِم جامعة لوحات مشهورة على مثل تلك التجارة وتقترف مثل تلك الفعلة فما الذى يمنعها من اشانة سمعة الابرياء مثلهم ؟ أخذ كل منهم يقلب ذاكرته ويطمئن نفسه قبل أن يأخذ الشك من جديد حين يذكر أن من زوّر فان غوغ قادر على أن يزّور مونيه وسيزان ورونوار أو أى رسام آخر مشهور إذا كان يحصا على ثمن يطابق ثمن اللوحات الاصلية . كان ذلك عين السؤال الذى سأله مالبرانش عند دخول بيلو : « ما هو ثمن لوحة مطابقة للوحة من لوحات فان غوغ بهذا الحجم أو قريبا منه ، حسب مقاييس الخبراء ؟ » .
أجمع المجتمعون على أن ثمنها مليونين . قال بيلو محدثا نفسه : « عشرون مليون ، أو أكثر إن كان جان مارك قد رسم من اللوحات عددا يفوق ما أقرَّ به . إلى أىّ جيب أو جيوب ذهب الثمن ؟ » .
قال مالبرانش :
– لقد دعوناكم أيها السادة لتؤكدوا لنا أن كل هذه اللوحات أصلية . ورجال البوليس يقومون فى بلاد مختلفة منذ الامس بجمع الشكاوى ، كتلك التى نشرتها الصحف هذا الصباح . علينا أن نستوثق أن هذه المجموعة الشهيرة من اللوحات لا تضمّ لوحات صُنعت هنا . هذا كل ما أريده منكم اليوم .

سرعان ما دبّ النشاط وسط الجمع وسادت الحركة ثم هدأ الجمع وكأنه صدَّق أنه كان فى حلم مخيف . ثم عكف الجمع يفحصون اللوحات فحصا دقيقا كانت نتيجته قاطعة فكل اللوحات التى جمعتها الآنسة سارازان كانت معروفة حتى لدى أقلّ الخبراء معرفة .

تذكر بيلو قول جان مارك مساء أحد الايام : « كانت تبيع اللوحات المزوَّرة لتحتفظ باللوحات الاصلية » . أكان ميرسيه يحب الآنسة سارازان لدرجة عرَّض نفسه معها للخطر حتي تتمكن من الاحتفاظ بلوحاتها ، دون أن يكون له نصيب فى ذلك ، وهو الذى يقامر ويقامر كثيراً ؟ . لم تكن الدائرة الديمقراطية قد ادخلت ماكينات القمار بعد !

وبعد كتابة المحضر الرسمى للاجتماع اندفع الخبراء إلى باب الخروج دون أن يرفعوا بصرهم إلى الفريق المتخصص الذى كان ينتظر انصرافهم لينهى المسألة بعناية بقيادة العميد ماليكورن . قال مالبرانش لبيلو :

– هل أوصلك ؟

– حتى سان جرمان دى برى ، ان شئت يا سيدى الرئيس . سابدأ بحثى عن السيدة « ب » من هناك .

– ٣ –

صاح السيد بيدا وقد تحوَّل لونه قرمزيا بفعل الاثارة :

– كبير المفتشين ! يا للانباء الجديدة ! ما من شك أن كل يوم يزف الينا نصيبه من المفاجآت . ارجو الا تكون مستاءً منى اذ لم أدل بشىء بشأن الحقيبة أمس . أظننى الآن – كوَّر بيدا ذراعيه ليطوِّق « حقيقة » كانت تخفى على الانظار . ولكنه حين نظر إلى زائره كفَّ عن الحديث . قال بيلو :

– أريد أن اقابل السيدة بيدا مقابلة قصيرة ، إن كان ذلك ممكنا . قال بيدا هازئًا :

– إن كان ذلك ممكنا ؟ . أمّا لى فلا . وقد لا يكون ذلك ممكنا بالنسبة لك ! أقول لك بكل صراحة ووضوح : لم تعد زوجتى امرأة طبيعية ، انها أمرأة منتحبة باكية ، دموعها تنهمر كنافورة ، انها شلال ! كانت تذمنى بلا انقطاع حتى صباح هذا اليوم ، زاعمة أننى لا أعالج موضوع الفتى صراحة . هذا الصبى الممتاز ... هذا الفتى البرىء ... يعيش كابوساً كهذا ... أما كان يكفيه أنه ترمَّل قبل أن يتزوج حتى تُقص عليه حياة خطيبته وتُعرض عليه أوصالها . وتأتى أنت لتحط من قدره يا حقير ! . ولو كنا تزوجنا زواجا يشيع الملكية بين الزوجين استسلمت . رضيت أن افرض على نفسى الصمت . ولكنها حين قرأت الصحف هذا الصباح وفيها خبر اعتراف المزور .

– المزور انت . اغرب عنى يا بيدا ! . (قال تلك العبارة صوت صدر من وراء بيلو . صوت ملكته لهجة أهل جنوب فرنسا وغلبت عليه النداوة . كان كصوت طفل ، وكان عنفه يثير العجب) . انت اسوأ من فى الدنيا والاخرة .

التفت بيلو وقد امسك بقلمه . كان ذلك الصوت الشبيه بصوت طفلة آتيا من شخص كبير السن ، ضخم الجثة ، يمشى بصعوبة ، وقد غطى صدره باغطية صوفية جيدة ، كانت تفوح منها

رائحة ماء الخزامى الذى يشبه لونه لون عينيها . كان واضحا أنها انتحبت ولم تكن تخفى ذلك . كانت تعصر فى يديها منديلا كما لو كانت تعرك عنق زوجها . اعتاد بيلو أن يسمى هذا النوع من الناس « مجرمون عاجزون عن الاجرام » وكان يفضّلهم على غيرهم . مضت صاحبة الصوت تقول :

– وأنت ؟ لا بدّ انك من رجال الشرطة ! لِمَ أتيت إلى هذا المكان ؟ سأقول لك ما ستجده هنا . ستجد أمًّا ! أمًّا حقّة . لم أرزق اطفالا . كان ذلك لطفا من السماء بى فليس لى زوج أفخر به . لو كنت رُزقت طفلا لتمّنيت أن يشبه ذلك الفتى ، رغم أنه من أهل ليون ! تقولون أنه مزوِّر ! لم لا تتهمونه بالقتل أيضا ! نعرف كيف تحصلون على الاعترافات التى تروق لكم ! ما من أحد يزعم أنى أبكى « لأنّ خستّه تبيّنت لى » ، إلاّ من كان نذلا مثل بيدا . أبكى لما تذيقونه له فى السجن . إنكم شلة من محترفى التعذيب !

اختفى بيدا عن الانظار . خُيِّل لبيلو أنه يرى شبح الجدة مكان السيدة بيدا : ان جان مارك لا يسحر بعض النساء بل المرأة من حيث هى . وانه سحر فريد . حرَّك بيلو أحد كرسى المكتب الصغير إلى الامام وقال :

– لن اهدر وقتك يا سيدتى . رغم سوء ظنك بى – تنهد وهو يهز رأسه متألما ويقول لنفسه . لِم نترك فن الايماء للأشرار وحدهم ؟ – اننا لا نحمل على احد . اتيت لسماع شهادتك . كان الفتى بيرجيه لا يثق فى غيرك . وبوسعك وحدك أن تدافعى عنه بفعالية .

ظلّت السيدة بيدا تنصت دون أن تقول شيئا ، ثم ألقت بجسدها الثقيل على احد المقعدين ، ولم تأت بحركة حين رأت بيلو يجلس على المقعد الآخر . قالت :

– كيف عرفت أنه كان يثق بى ، هل حدّثك بذلك ؟ ليس من السهل الحديث اليك ، إنك تثير الخوف . إنه شديد الخوف ، لانه حسّاس وانطوائى . وإذا عنّفه أحد قال أى شيء ، أى شيء ، حتى لقد يعترف بجرم لم يرتكبه ! . استنشق بيلو ماء الخزامى وغمغم :

– هل ائتمنك على ماله ؟ . ردت :

– نعم يا سيدى .

– نعرف قيمة ما له .

– انكم اقدر منى إذن . لا اعرف الا عدد الاكياس . ثلاثة . كتب على كل منها بخط يده الجميل ، الذى يشبه الرسم : « ملك جان مارك بيرجيه » .

– هل يمكن أن أرى الاكياس ؟ . ردت بنفس الصوت الحازم :

– كلا ، يا سيدى . ولن يجبرنى أحد على ذلك . اننى اعانى فقد الذاكرة ولا ادرى أين وضعتها . هل تصدقنى ؟

– لا ، يا سيدتى . وبما أن الاكياس فى حوزتك فأنا مطمئن عليها . ستمنعين عنها غيرى مثلما فعلت معى .

بدت الدهشة المشوبة بالحيرة على عينيها الزرقاوتين اللتين تناسبان صوتها .

– تتحدث كما يتحدث محام . هذا لا يناسب رجل شرطة .
– وأنت تتحدثين كملاك حارس وهو أمر نادر عند صاحبة فندق . هل يجهل السيد بيدا أن جان مارك قد أودعك ثروته ؟ .
– إننى احذر كل « اللصوص » !
– إنها ثروة ضخمة كما تعلمين .
– يستحق الفتى المسكين ذلك . سيبقى له ذلك على الأقلّ ، عندما تنتهى هذه القضية الفظيعة . لشدَّ ما كان سعيداً ! كان يحدّثنى فى ذلك كلّما خلونا إلى بعضناً . كان يحدثنى عن المنزل الخاص فى نوييى ، عن مجموعة اللوحات ، عن الآنسة ...
– قبل أن يذهب مساء الأحد ؟
– نعم ، لينهى ترتيبات الزواج !
– ... هل زارها ؟ . أومأت السيدة بيدا بالايجاب .
– كانت قد اتصلت هاتفيا أثناء النهار . رددتُ عليها ، لأن بيدا يمضى نهار الاحد طائفا على الحانات مع امثاله الخائبين من كبار السن . ذكرتْ اسمها لاول مرة . كنت اعرف صوتها كلّما اتصلت . كانت تقول كل مرة (حاكت السيدة بيدا اللهجة الباريسية) « أريد محادثة السيد جان مارك بيرجيه . انى صديقة له » . أما يوم الاحد ، فقالت دفعة واحدة : « الآنسة سارازان . اريد أن احادث جان مارك بيرجيه . أرجو أن يكون موجوداً » . أجبتها « نعم يا آنسة ، إنه موجود ، لكن ربما كان يستحم كعادته ايام الاحد ، خاصة وأنه مسافر هذا المساء ! » . قالت : « نعم ، لأجل ذلك يجب أن يزورنى قبل المساء . اريده أن يأتى قبل ذلك . فى العصر مثلا » . قلت : « انتظرى إذن » . ثم ناديت الخادمة . لم يستحم جان مارك ، فقد كان مصابا بالبرد . هبط فوراً وتحادثا . كان يجيبها : « حسنا ، هو كذلك » .
– هل عاد عند المغرب ليعد حقائبه ؟ ألم يقل لك شيئا ؟
– كلاً . كنت طريحة الفراش بسبب الامطار الغزيرة التى هطلت يوم الاحد . مد رأسه من الباب وقال لى : « إلى اللقاء . إلى اللقاء ، امنياتى لك بتمام العافية » . قلت له : « ولك ايضا . يبدو عليك التعب يا جان مارك . اعتنى بنفسك وأرجع الينا سريعا ! » .
اغمضت السيدة بيدا عينيها وسالت دمعتان على خديها المشدودتين . استأذن بيلو وانصرف .

– ٤ –

عند حلول المساء كانت نتائج التحقيق على النحو التالى : تطابق أوصاف سيارة ميرسيه أوصاف السيارة التى أقلّت جان مارك يوم الاحد (والتى قال الامريكى المزعوم أنه أجّرها) وذلك حسب الاوصاف التى ذكرها جان مارك والحمّال جيروار لوسيان والشرطى لاروى راوول .

أما فى سجلات الشرطة وقنصلية الولايات المتحدة فلم يكن هناك جواز سفر باسم لوزارش وكان آخر جواز استخرجه ميرسيه قبل عشر سنوات . وهذا يؤكد فرض تبناه بيكار فحواه أنه لو كان لوزارش وميرسيه شخصاً واحداً فهذا يعنى وجود جوازين مزيفين أصدرا خلال الشتاء ، احدهما استعمله لوزارش فى الفنادق وآخر لدخول الولايات المتحدة ومغادرتها .

لم يعثر شنلونج وسيمون ريفيير على ما يفيد فى اوراق اوغستا . أصبح السيد شنلونج شيخا خلال بضع ساعات . انتهى من التحضير لسفره إلى ليون صبيحة اليوم التالى وبقى فى الفندق ينتظر ذلك . قررت الجدة أن تكون رفيقته . قالت موضحة لبيلو فى لقائها مرة ثانية له بمبنى الشرطة القضائية .

– يقال أن مقاعد عربات القطار مريحة جداً . كنت دائما أفضل السفر بالسيارات . ولكن لم يشأ أن يكون لنا سيارة بالبيت ولى من الاولاد من تعلم .

لم يكشف لها بيلو عن هوية السيدة « ب » ولم تسأل هى إلا سؤالاً واحداً :

– أتظن أن الامور ستتضح عما قريب ؟ . كادت أن تقول : « فردريك » ، ولكن وجود سيمون منعها من ذلك . أجاب بيلو :

– أظن ذلك يا سيدتى . عضَّت الجدة شفتيها وقالت :

– على كل حال ، من الافضل أن يحدث ذلك . أرسلت واشنطون بلاغين آخرين ووصل بلاغ آخر من منتريال ورابع من ميلان .

ظلَّ بيلو منذ الصباح يحاول أن يبقى ذهنه صافيا ويترقَّب اشارة عما يحدث فى نوبى . قلَّ صبره حين حلَّ المساء . الساعة السابعة . الساعة الثامنة .

وعند الساعة الثامنة والثلث ظهر ماليكورن . كان متعبا ولكن يبدو عليه الرضا . أبرز ظرفا أبيض من الحجم العادى ، ممتلئا بعض الشىء ، وحرَّكه قرب اذنيه .

– ليست هذه نقوداً بل اوراقا . ما فى ذلك شك . وجدناها فى نسخة قديمة لروايات فولتير ، بين صفحتى ٢٧٦ و ٢٧٧ على واحد من الرفوف العليا للمكتبة . أخذ بيلو الظرف وقلَّبه بين يديه ثم أعاده إلى ماليكورن . قال ماليكورن :

– لا . لا شىء هناك .

(١٣)

لا داعـــى للتعـــارف

- ١ -

وقف بيلو وسيمون عند منتصف الليل فى مكتب بيكار وقد وضع كل منهما قبعته على رأسه . قال بيلو : هيّا بنا . لقد سبقنا بلوندل وتوسان . غمغم بيكار متذمرا من وراء مكتبه :

– كنتُ أفضّل أن تُلقى القبض عليه فى مكان آخر ، ولكن لا أهمية لذلك ! . لماذا ؟ ما أجمل الاعتقال على أنغام الموسيقى ! . قال بيكار :

– ان شاء الله ! سنأكل شيئا فى صحتكم وفى انتظار أخباركم . تريفلو ؟

– نعم يا سيدى : مَن أكل نام .

كانت تلك احدى حكم شيكامبو . لذا لم يكن شيكامبو ينام الا إذا أكل .

طلب بيلو وسيمون من لاكروا قيادة السيارة . قال سيمون لبيلو فى الطريق :

– هل تؤمن بالتشاؤم ؟

– مثلى مثل كل الناس . لم سألتنى ؟

– قلت لنفسى « لا مطر اليوم . ستسير الامور على ما يرام » .

– لو نزل المطر أكنت تقول « ستسوء الأحوال » . فكّر سيسمون برهة وقال :

– لا أظن ذلك . كنت سأتشبّث بشيء آخر . قال لاكروا :

– ذلك أمر سهل ... ولكن ... قال بيلو :

– سيمون محقّ . خلقنا التطيّر لنبعث فى نفوسنا الاطمئنان . قال لاكروا :

– أنا بروتستانى .

أعقب قوله ذلك صمت . وحين بلغوا الشوارع الكبيرة ، قال بيلو :

– حين نبلغ شارع مارتير ، أنزلنا قبل شارع لاتور دوفيرن بقليل . ثم سر حتى شارع كوندورسيه . تقدم قليلا فى ذلك الشارع : الباب الاول على اليسار هو باب العاملين . اوقف السيارة قريبا منه ما امكن . سنخرج من ذلك الباب . ستجد بلوندل أو بوشا أو كليهما هناك .

حين نزلا من السيارة ابصرا من بعيد صف العربات أمام الملهى ، مما يدل على اقبال كثير من الناس عليه . ابصرا شحاذين على الرصيف . كان أحدهما توسان أما الآخر فكان شحاذا فعلا . كانا

على مقربة من بواب المطعم وهو عملاق يرتدى ملابس تزينها الأوسمة . جاوز بيلو وسيمون توسان . لم يأت توسان بحركة . حسنا . كل شيء على ما يرام . لم يكن الموقف سيسمح بأقل خطأ . لابد أن للبواب جرسا ينذر به من الداخل . همس سيمون :

– كثرة أوسمته توحي بأنه لا يهاب العراك . أجاب بيلو :

– ولا البقشيش الذى يناسب الأوسمة .

قال البواب وهو يرخى أحد حاجبيه مستنكراً ، لأنَّ سيمون وبيلو لم يلبسا سترة السهرة وكانا راجلين :

– مساء الخير . هل حجزتما مائدة ؟ لا مكان بالمطعم . قال بيلو :

– ينتظرنا أصدقاء لنا بالداخل .

عاد حاجب البواب إلى مكانه الطبيعى ، بعد أن اطمأن صاحبه . غير أن البواب العملاق تبع بيلو وسيمون دون أن يدرى لذلك سببا . وحين بلغوا حجرة حفظ الثياب الصغيرة الواقعة بين الباب الضخم والبوابة السميكة مدت فتاة حسناء ذراعين عاريتين جميلتين . قال بيلو : كلا ... شكراً .

قالت الفتاة وقد عقدت الدهشة لسانها : ولكن ... قال البواب العملاق وهو يجاهد ليمنع حاجبه من أن يعود إلى الارتخاء :

– سيخلع السيدان معطفيهما عند المائدة . قالت الفتاة :

– حسنا ، سأرافقكما .

فتح العملاق الباب . بلغتهما أنغام موسيقى الجاز الصاخب وضجيج المتحدثين ، وبهرتهما أنوار ، ولاحظا حركة الراقصين وقد تجمهروا فى وسط المكان . خيل لبيلو أنها سهرة من سهرات الماضى بعثت كما تبعث بعض المنازل القديمة فى الافلام . لعل هذه السهرة هى سهرة السبت ولا ينقصها سوى وجود هوغيت . ولكن بيلو أتى إلى المطعم لغرض آخر غير اعادة احداث الجريمة . سنرى ذلك فيما بعد إذا دعى الامر . سمع وقع أقدام تسرع بين الموائد (كانت الفتاة الحسناء قد تبعتهم بينما بقى البواب العملاق مكانه) . كانت الخطوات خطوات شخص ارتدى بذلة سموكن . كان بقية الخدم يلبسون ثياباً أو بذلات بيضاء على أكتافها شرائط مذهبة . كانت ملامح الشخص وهيئته تدلان على شيء يميزه عن بقية الناس : لطف متلهف واعتزاز بالنفس . قال بيلو :

– أنت السيد ارنست ؟ . كانت الملامح تدل أيضا على الفطنة والتفهم . لم يخف ارنست ضيقه :

– لقد أتيتم هذا الصباح ، أليس كذلك ؟ كنت أنتظر وصولكم الساعة الثامنة . أنا الآن ...

قطع صوت طبل عنيف حبل الجملة وتوقفت الموسيقى وخفت ضجيج الصالة . عاد الراقصون إلى مجالسهم على أطراف أصابعهم . فجأة ظهر شخص على المنصة تحت ضوء المصابيح الباهرة . أخذ الشخص مكبر صوت صغير وقال :

– سيداتى سادتى ، أقطع عليكم رقصاتكم واحاديثكم ولكن لا أظننى سأغضبكم أو أخيب ظنكم ...

قال بيلو هامسا : حسنا . أنت مشغول للغاية ولكن ... قال صوت من المائدة المجاورة : صه ! . عاود مكبر الصوت الارسال :

– سيبدأ الجزء الثانى من برنامجنا من القمة . لقد راقت لكم من قبل العروض المدهشة (ضربة طبل) من شتى أنحاء العالم (ضربة طبل) بل من قلب العالم باريس ! (ضربة طبل) . هذه العروض تسعى لنيل رضاكم ، فانتم الذين تخلدون العروض التى تقدمها لكم باريس ومونمارتر ، انتم رواد الـ Seau Grenu (ضربتا طبل) . حاول بيلو أن يكمل حديثه فقال :

– لا أهمية لذلك . نريد مقابلة السيد ...

– التزموا الصمت ! . جاءت الاصوات هذه المرة من عدة موائد .

لمح ارنست على شفتى بيلو بقية الجملة التى لم يكملها « ميرسيه » . أجاب باشارة تنم عن الضيق :

– علينا أن نعبر كل هذه الصالة ! . واصل مكبر الصوت :

– لقد عبرت عن اعجابكم عدة مرات بمن ستشاهدونها الآن . انها الحسناء الساحرة ، الفريدة جينا . هيرمان !

علت الصفقات وقرع الطبل ودوى الصنج . أىّ تناقل خواطر بين ارنست ومعلن الحفل جعل جينا هيرمان تتمهل فى الظهور ، وقد كان من عادتها أن تظهر فى رونقها الأخّاذ حالما ينادى المعلن اسمها ! مكثت تلك البرهة الوجيزة التى لم تثر ضيق الرواد ومكنت رئيس الخدم وزواره من عبور الصالة والدوران حول المنصة والاختفاء خلف باب الرواق . وعندها أعلن المعلن للمرة الثانية : « جينا هيرمان ! » . وحينذاك ظهرت جينا هيرمان وعلا التصفيق وارتفع صوت الموسيقى . قالت ارنست :

– بوسعى أن أمدّكما بالمعلومات ان شئتما ... قال بيلو :

– فيما بعد . فيما بعد . كنت تنتظرنا فى الساعة الثامنة . وبما أننا نعرف مكان مكتب السيد ميرسيه ، فيمكنك الانصراف الآن .

أحسَّ أرنست بيد سيمون على ذراعه فاضطر إلى العودة ادراجه . وقف بيلو أمام الباب وطرقه ثم دخل دون أن ينتظر الرد . قال ميرسيه محتجًا وهو يتأهب للخروج : ما معنى ذلك ؟ . كان يلبس بذلة سموكن متوسطة الأناقة . قال بيلو وهو يلقى بقبعته على أحد المقاعد : لا شىء يا سيد ميرسيه .

دخل سيمون بدوره وأغلق الباب ووقف أمامه . نظر إليه ميرسيه نظرة ملؤها الغضب وقال :

الجمهور ينتظرني بالصالة ! . قال بيلو وقد لاحظ أن أحداً لن يسمعهما : لم تبدأ جينا هيرمان الغناء بعد . ملك ميرسيه نفسه وقال :

– ماذا تريدون ؟ لقد قلت لكم هذا الصباح كل ما أعلم .

– أريد معرفة ما لم تبح به . الأمر يتعلق بمسألة أخرى . هل سبق لك أن سافرت إلى الولايات المتحدة ؟

– إلى الولايات المتحدة ؟ لقد ذهبت اليها مراراً .

– متى كانت آخر مرة ؟

– قبل زمن طويل ، عشر سنوات على الاقل ، قبل افتتاح أول ملهى لى كان اسمه **Le Trèfle à Quatre** . قابلت أكبر وكلاء العروض الفنية فى أمريكا مثلما فعلت فى بلاد أخرى .

– حسنا . أمتأكد أنك لم تعد إلى الولايات المتحدة منذ عشر سنوات ؟

– سجلات مكاتبكم تدوّن ذلك . صمت بيلو . واصل ميرسيه :

– ياسيدى كبير المفتشين . أعلم واجبى كمواطن تجاه الشرطة وأعرف أيضا أن للشرطة واجبات تجاه المواطنين . ولا يجوز أن تكون علامة النادى الذى أملكه ذريعة تتخذها الشرطة لتسألنى مثل هذه الاسئلة الغريبة ! . قال بيلو بنفس اللهجة :

– أنت تعمل ليلا والليل نهار بالنسبة لك . الحال غير ذلك بالنسبة لى ولزميلى . هل تحب الرسم ؟ غضَّن ميرسيه جفنيه ولاح على شفتيه ظل ابتسامة وهو يترقب بقية الحديث . قال بيلو :

– لوحات فان غوغ على وجه الخصوص .

غاصت ابتسامة ميرسيه ولكنه ظل ثابتاً .

– فان غوغ ؟ لماذا فان غوغ . يذكرنى ذلك شيئا ما ... ولكنها نفس القضية ! مقتل الآنسة سارازان ؟ نعم لقد أفاضت الصحف فى ذكر مجموعة لوحاتها الكثيرة !

– هناك ما يحملنا على الظن انها كوَّنت مجموعة اخرى من لوحات فان غوغ ، لوحات مزيفة ، وانك تطوّعت وروَّجت تلك اللوحات فى الولايات المتحدة وانتحلت شخصية لا تقل زيفا عن اللوحات .

أبدى ميرسيه اهتماما صادقا بما قيل وسأل :

– أيمكن أن أسأل أى شخصية انتحلت ، أم لعلك تفضل أن تفتش أولاً ؟ هنا أو فى الطابق الاعلى فى مسكني ، فقد تجد وثائق أو أوراق تؤيد التهمة . قال بيلو :

– بعد مأساة الأحد ، يدهشنى ألَّا تكون قد تخلصت من الوثائق والأوراق . لدينا أفضل من ذلك .

ضحك ميرسيه ضحكة طويلة وظلت عيناه نافذتين :

– شهود ! لقد أحضرتم من أمريكا شهوداً يفحموننى ! دعهم يدخلون يا سيدى كبير المفتشين ، وسأقدم لهم الشمبانيا لأعوّضهم عن رحلة خاسرة ولأعوّضك عن خيبة أملك . قال بيلو وهو

يلتقط قبعته :

- احتفظ بالشمبانيا باردة . سيتم اللقاء فى غير هذا المكان .

كف ميرسيه عن الضحك . اصبح أشبه بممثل من ممثلى السينما - سواء أكان مخبرا مشهورا أو رئيس عصابة - يحاول الهروب من مكان أحسن اغلاقه وهو يصرع وحدهُ عشرة خصوم . قال بيلو لنفسه ، بلا انفعال ، فهو يعلم ان المشهد حقيقى : « نحن اثنان فقط » .

- أتريدون اثارة فضيحة ترغمنى على اغلاق المحل وتقضى على سمعتى ؟

- الامر متروك لك . سنخرج من شارع كوندورسيه . هناك عربة تنتظرنا .

أخذ ميرسيه نفسا عميقا وقال :

- إسمحوا لى على الاقل أن أخبر كبير الخدم .

- سيفعل أحد زملائنا ذلك .

- لقد اعددتم قوة كاملة فيما يبدو ! كم من الزمن يستغرق اللقاء ؟

- أقلّ وقت ممكن . أتمنّى ذلك .

فتح سيمون الباب . أتت من القاعة عاصفة من التصفيق ملأت الرواق ، مشيعة الحسناء جينا هيرمان التى ظلت تتألق رغم أنَّ الأضواء لم تعد مركزة عليها . ظهرت جينا هيرمان من ناحية اليمين وهم يميلون إلى ناحية اليسار . قالت بصوت دُرِّب على الحديث بحرارة :

- يا عزيزى ميرسيه - توقف ثلاثتهم - لم تشاهد عرضى ؟ ألم أعد أروق لك ؟ أراك خارجا فى الوقت الذى أستعد فيه للظهور مرة أخرى !

- إشتكى لهذين السيدين يا جينا : إنهما يختطفانى ! . ضحكت جينا . قال بيلو فى سره « يا لها من ضحكة مثيرة . على رابطة الزوجات أن تفعل المستحيل لمنعها من الضحك » . أدارت جينا عينيها لتنظر إلى سيمون . نظرت إلى بيلو وكأنها سمعت اطراءه . قالت جينا وهى تبالغ فى تحريك حاجبيها :

- ماذا ؟ مجرمون ؟

- أسوأ من ذلك يا جينا . قال بيلو بصوت أبوى :

- يا سيدتى ، السيد ميرسيه يمزح : نحن أصدقاء . هيا بنا .

- ٣ -

الامريكى . منذ أربع وعشرون ساعة كان جان مارك جالسا على حافة سريره . لم يرقد طوال الليلة الماضية . كان يترقب من يأتى ليأخذه . كان الكشف الذى وقع يشد رأسه شدا . الامريكى الزائف ، الوحشى الذى بتر يد هوغيت ، الذى قتلها وسعى بكل السبل والوسائل إلى ايقاع اللوم

عليه هو ، هو ذات الشخص الذى كان يروِّج فى أمريكا لوحات فان غوغ التى زيَّفها ! حين قرأ المفتش الاوصاف وحين تعرّف عليه وحين صاح : « الامريكى ! » . لِمَ لم يواصلوا التحقيق ؟ لِمَ اعتبروا ما قاله مسألة ثانوية ؟ لقد ارهقوه بالكلام العنيف .

كانت لهم أسبابهم بالطبع . كان أجدر به أن يعترف قبلّ ذلك بالتزوير ولكن قضية القتل كانت أهم من ذلك ! وحين أفضى اليهم بالصلة الاساسية بين القضيتين ، لماذا أهملوا ما حدث بعد ذلك وأكتفوا بقوله « الامريكى » ودفعوا به إلى الحراس ! كانوا حتى ذلك الحين ، سواء فى ليون أو فى باريس ، يخرجونه كلما راق لهم ذلك . ولكنهم كفّوا عن ذلك منذ ذلك الوقت ، وهو يعيش فى صمت مطبق ، وحيدا لا يتحرك أبدا ، لم يذق غير القهوة هذا الصباح وطبق الطعام فى الغذاء والعشاء . اصبحوا لا يسمحون له باستنشاق الهواء فى البهو ، ولو أرادوا قتله قتلا بطيئا لما فعلوا غير ذلك .

« ماذا فعلت ؟ أى جرم ارتكبت ؟ » . هوغيت . انه يراها ساعة هربه ، حين نظرت اليه دون أن تفوه بكلمة وهى واقفة وقد بدت الدهشة عليها . ما كان عليه أن يمضى كما فعل . أما كان على القدر أن يأتى بما ينذرهما انهما لن يلتقيا بعد ذلك وأن مأساة فظيعة على وشك الحدوث ؟ لشدَّ ما رغب فى أن يرسل لها برقية حين وصل ليون ! كانت اليد المبتورة داخل الحقيبة منذ مساء اليوم السابق ... لكنها لم تكن تحبه . كلّا . كانت تريد تعديل خطبتها ، وكانت تريد أن تملكه بصورة أكثر دهاء وخبثا .

حين قابلها ظنَّ أنه سيفلت من مصير آل بيرجيه . بيرجيه . يا له من اسم ملىء بالرمز والايحاء ، يثير الاشمئزاز من أول حرف فيه . بيرجيه ، انه اسم فصيلة من الكلاب ، اصبح آل بيرجيه كلابا ، قطيعا من الكلاب الحقيرة : الجد والاب والام والعم ! لقد نالوا ما يستحق ، لم يكونوا شيئاً يذكر . أما هو ، أنه فنان ! كان خليقا أن يصيب الشهرة وان يذيع صيته، ، ان يُدلَّل وان تعرض لوحاته فى المعارض الشهيرة حيث تعجب الحسناوات أمثال هوغيت بلوحاته المختلفة ، الحافلة بالتفاصيل المشحونة بالخيال ، وكانت جدته وحدها ، تلك المعتوهة ، تهتم بأعماله . ولكن ما جدوى ذلك ؟ أكانت نهاية المطاف أن يزوِّر اللوحات : لوحات مزوَّرة ومسموح بها فى محلات بوغان ولوحات مزوَّرة يعاقب عليها القانون عند هوغيت ! هناك أمر لا يدركه : لِمَ لم يعرض عليه المفتش أن يختار محاميا يدافع عنه حين قرر اتهامه ؟ كان يتطلَّع إلى الباب يرقب أن يحدث ذلك ، أن يأتى محامى يقول له : « كلفت بالدفاع عنك » . انه يرفض ذلك ، فالمكلفون بعمل ما ، فى أى مهنة ، لا يحملون ذلك محمل الجد . ذلك أمر طبيعى . لكل شىّء ثمن . لا سبيل إلى التصرف فى المال الذى عهد به إلى السيدة بيدا . لا أحد يعلم ذلك . والسيدة بيدا ستستميت فى الحفاظ عليه ، ستفضل أن تقطع اربا اربا على أن تخون سره ... القطع ... اليد المبتورة ، يد هوغيت التى بترها الامريكى . ماذا كان بينهما ؟ كل شىء ، بالطبع . لم تكن اوغستا عشيقته بل هوغيت ! لقد وجدته الشرطة ولعله اعتقل ولكن لِمَ لا يزيلون خوفه ؟ لِمَ لا يشيدون بشهادته الحاسمة ، لِمَ لا يفعلون ذلك وقد نطق للمرة

الاولى بالحقيقة وهو الذى أجبر دائما منذ ولادته على الكذب ؟ تملكه الخوف ، كان يضغط على اسنانه حتى ليكاد يحطمها ، يريد أن يمنع تلك الضحكة التى تشبه ضحك الاشباح ان تخرج من ظلام حلقه .

وقع أقدام . وقفة . قفل الباب . الباب . حارس يحمل قيدا ، عليه آثار النعاس . نهض جان مارك . لم يجد ما يقوله فسأل : كم الساعة ؟ . ظنّ الحارس انه يلومه ، فقد كانت الساعة تشير إلى الواحدة حين رنّ جرس التلفون . أمر غير عادى .

مدّ جان مارك رسغه الايمن فالتف حولها القيد . حتى صوت القيد يكون جميلا بعد تلك المدة من الوحدة والصمت . القيد الآخر به سلسلة كتلك التى تُربط بها الكلاب . كلب من فصيلة بيرجيه . أصاب الحارس الحرج . قال وهو يمضى فى الرواق الخالى : مثل هذه الاماكن الموحشة تدعو إلى الهرب .

لم يصغ جان مارك لما قال . كان يردد « أمر غير عادى » ، وتذكر « اغفر لى كل شىء » . كان قد نسى ذلك منذ مساء الامس . شدَّ ما كانت فرحته حين سمع تلك الكلمات . لقد ذهب فرحهُ : انهم لا يستدعون مزوّرا عند منتصف الليل . لقد حدث شىء . سال العرق حتى بلغ وسطه .

حين بلغوا مكتب الرؤساء ، سأل الحارس الحاجب : أين أذهب به ؟ . أشار الحاجب إلى باب مكتب بيكار المبطَّن . « لقد حدث شىء ، ردد جان مارك ذلك فى سره ، سأعرف ما حدث فوراً لانى أعرف المكان » . طرق الحارس الباب الثانى طرقا خفيفا . جاءه صوت ، صوت المفتش دون شك ، مزمجر . هذا يعنى أن المكتب غير مزدحم . ليس ثمة شىء غير عادى اذن . فتح الحارس الباب فى احتراس اللصوص .

— ٤ —

أخطأ جان مارك التقدير . كان المكتب مزدحما . كان به المفتش ، والاصلع الذى يدوِّن دائما ، وبيلو مرتديا معطفه وقد جلس محاذيا بيكار ، وشخصان آخران اصغر سنا فى ركن المكتب . كانا يرتديان معطفيهما ايضا . لم يرهما جان مارك من قبل ولكنه ادرك انتماءهما للشرطة . انهما سيمون وبلوندل . ساد الصمت المكتب . رائحة التبغ تطغى على المكتب وتزكم الانوف والعيون . فتح الحارس القيد وحيّا ثم انصرف . قال بيكار بغلظة : إجلس . أشار إلى مقعد من المقعدين اللذين وضعا قبالته . كان كل مقعد يبعد عن الآخر كثيراً . وقف سيمون وبلوندل خلفه . أحس جان مارك بوجودهما وكأنهما كان يضغطان على كتفيه . ظلَّ المقعد الآخر خاليا . قال بيكار آمراً :

— تريفلو !

— نعم يا سيدى ! . فتح تريفلوا بابا غير باب الدخول . كان جان مارك قد اجتازه مساء الأمس بعد أن ظل حبيسا ساعات طويلة فى القاعة الصغيرة التى يفضى الباب اليها . ظهر ثلاث رجال

آخرون . لم ير جان مارك الا اطولهم . اضطر سيمون لابقائه على مقعده . صاح جان مارك : انه هو ! انه القاتل .

صاح ميرسيه فى ذات الوقت تقريبا بعنف أكثر . أصبح صوته العريض ضخما : القذر . ها هو ! . تعلّق توسان وبوشا بزراعى ميرسه . طغت ثورة ميرسيه على القيود التى كبل بها قبل أن يدخل . قال بيكار :

– حسنا . اجلس هنا يا ميرسيه . إذا لم تهدأ فوراً تولينا ذلك .

كان على توسان وبوشا أن يدخلا الوحش إلى الحلبة وأن يحولا دون اندفاعه فى ذات الوقت . علت أنفاس ميرسيه وزمجر ، كان صدره يعلو ويهبط بشدة تحت قميص البذلة الابيض . كانت البذلة بفعل القيود أشبه بسترة مجنون مترف . صاح ميرسيه مخاطبا بيكار : لقد قبضتم على هذا النذل وانتم تحمونه منى ! انه أخسّ الجبناء . انه قذر ، قذر ! . قال جان مارك بصوت خفيض : انه القاتل ، انه القاتل .

كان ميرسيه أشبه بمجنون ، أحسّ جان مارك أنه يفقد عقله . فى هذا المكتب المزدحم الملىء بالدخان ، الذى يغمره النور ، أمام هذا الوحش الهائج . كان يسترجع فى ذاكرته نوتردام والمطر والليل ، ويسع اللكنة والضحكة واللطف . لفّه ذعر لا حد له . لا حاجة ان يمسكوا به : ظلّ سيمون وحده خلفه ولحق بلوندل بتوسان وبوشا . أمسكوا بتلابيب ميرسيه واجلسوه على مقعده . استطرد بيكار حديثه :

– لقد صدق ظنى . لا حاجة للتعارف ، بل انكما تفعلان أكثر مما كنا نتوقع ، فكل منكما يتهم الآخر بارتكاب الجريمة التى نحن بصددها . على الاقل بيرجيه ، فأنت يا ميرسيه تطلق شتائم كثيرة ولكنها غير محددة .

حقق بيكار ما كان يريد ، فقد هاج ميرسيه بعد أن كانت انفاسه قد هدأت بعض الشىء .

– لقد طفح الكيل . غير محددة ، شتائم ؟ ليتنى أجد شتائم أسوأ منها وأقبح . ما فعله لا يوصف . قاتل ؟ بالطبع انه قاتل ! ولكن بالنسبة لى أنا الذى عشقت تلك المرأة كما لم يعشق احد من قبل ، عشقتها منذ أن كانت صبية ، عشقتها فى الخفاء ، نعم فى الخفاء ، لقد ارتضيت أن تعاملنى كصديق وأن تطلب مساعدتى من حين لآخر ! لقد وجدتها ميتة ، كان الامر أكثر من جريمة قتل . اتدرك ما أعنى ؟ فعل ذلك هذا المنحرف ، هذا المنحرف القذر الذى استنفذ عواطفها ، واستغلّ تفانيها وانتفع بجمائلها بكل الوسائل ، بكل الوسائل ... كان على وشك أن يتفجر باكيا .

همس جان مارك واسنانه لا تنفك تصطك : – هذا كذب ... هذا كذب ... قال بيكار : تحدث حين اسألك ! . إذن ، خلافا لما اكّدته هذا الصباح فى مكتبك ، تعترف بعلاقتك بالآنسة سارازان . ستتحدث عن هذه العلاقة فيما بعد . ماذا عن وجودك فى مكان الجريمة ؟ . استعاد ميرسيه هدوءه . كان يشبه كبار المغنّين النابوليّين حقا . تجنّب ميرسيه الرد على السؤال وقال :

– كنت أريد قبل كل شىء ... ما خطر لى حين اكتشفت جثة انسان طالما احببته ورأيت كيف

عومل بتلك القسوة ، ما خطر لى هو أن أصيب القاتل ، أن أجعله فى موقف لا يستطيع معه الافلات من عدالة الارض قبل أن يجىء قصاص السماء ! . قال بيكار متشككا : هل أنت مؤمن يا ميرسيه ؟

أكسب ميرسيه صوته نبرة اقناع ، لأن القيود منعته التعبير عن ذلك بحركة من يديه : ادركت ذلك فى تلك اللحظة التى تجلّت فيها الحقيقة . لقد دفعنى دافع إلى أن أقصد منزلها . كانت الرغبة فى الانتقام قد ملكت على نفسى .

اشار بيكار إلى الحارس ليفكّ قيد ميرسيه . اغتنم بيلو الفرصة وخلع معطفه وطواه بعناية ثم وضعه تحت مقعده . ما أن تحرك بيلو حتى علّق جان مارك نظره عليه كما اعتاد أن يفعل . تعمّد بيلو ألاّ ينظر اليه . واصل ميرسيه حديثه وهو يفرك قبضته :

– انتابنى احساس دفعنى إلى بيتها . كانت الآنسة سارازان قد صعدت إلى مسكنى اثناء الليل خلال افتتاح الملهى . قالت لى إنها عزمت على الكف عن تزوير لوحات فان غوغ . كنت ألحّ عليها أن تفعل ذلك منذ زمن طويل . لقد شاركتُ فيما فعلَت ، للأسف كنت لا أرفض لها طلبا . لقد دفعها ذلك الفتى الخليع إلى التزوير وكانت لا تردّ له طلبا ...

وخلال تدفق تلك الكلمات التى أثارت فضول المحققين ، كان جان مارك يردد كلماته البائسة : هذا غير صحيح ... كذاب ، كذاب ، كذاب حقير ... هذا غير صحيح .

– أخبرَتْه بقرارها فثارت ثائرته . اغضبته فكرة الا يقبض ثمن لوحاته المزوَّرة . لقد قالت لى مرارا انه يحب المال حب البخلاء والاشحاء . أنا وهى لم نكن نرغب فى الحصول على المال الا لننفقه ، هى على جمع اللوحات وأنا على النساء ! أما هو فكان يكنز المال ... بصق ميرسيه فى وجه جان مارك وقال : « نقودك » ، كنت تقول لها : « اريد ان اكوِّم النقود » . لقد اخفيت نقودك ولكن سيكشف عن مخبئها . قال بيلو :

– لقد تمّ ذلك فعلا . أفلتت من جان مارك : ماذا ؟ . لم يأبه أحد لما قال . قال ميرسيه :

– عظيم جدا . ذلك أكبر عقاب له . ثارت ثائرته ، هدّدها بالطريقة الوحيدة التى تناسب الجبناء : هددها بفضح امرها ! هددها بأن يكشف أمرها إن لم تعدل عن رأيها قبل سفره يوم الاحد وإن لم تعطه قدراً كبيراً من المال كضمان .

أغمض جان مارك عينيه . كانت شفتاه تقولان « هذا غير صحيح ... هذا غير صحيح » . ولكن صوته ظل حبيسا . تابع ميرسيه حديثه :

– طمأنتُها . كنت اعرف خسّة هذا النذل ، لذا نصحتها أن تهدّده بدورها . قلت لها : « صوّرى له اننا كثيرون وانك لو قصصت علينا كل ما حدث فتسكون تلك نهايته » . لم اتصور أن يكون رد فعله بتلك الفظاعة !

ولعل عقلى الباطن كان يخشى ذلك ، إذ قررت فجأة يوم الاحد حوالى الساعة الخامسة (تحول الصوت إلى شهيق) كان كل شىء قد انتهى . سأل بيكار :

– من فتح لك الباب ؟

– كان باب المنزل مواربا .
– والبوابة ؟
– كان عندى مفتاحها .
– ألم يكن معك مفتاح الباب الآخر ؟
– بلى ... قال بيكار « آه » ومضى يسأله : أين وجدت القتيلة ؟
– على الاريكة الصفراء فى قاعة الاستقبال الكبيرة . كانت ممددة ، عيونها مفتوحة يفيض منهما الذهول . لم أر جرحًا ولكن نقطة الدم فى أعلى الرقبة كانت كافية لأدرك ما حدث .
– لم تفعل شيئا لانقاذها . أدركت منذ اللحظة الاولى عدم جدوى ذلك ؟
– بالتأكيد . لقد خضت الحرب . علمتنى الحرب ذلك على الاقل .
– أكان من الطبيعى ألا تخبر أحدا بما حدث ؟
– قلت لك لم أفكر إلّا فى القاتل . كانت الزراع اليسرى تتدلى حتى البساط حيث استقرت الكف . كانت تشير إلى القاتل !
– ماذا تعنى ؟
– الخاتم الرخيص الذى أهداه لها فى أعياد رأس السنة والذى تتباهى بلبسه كما تفعل امرأة ثرية : هذا الخاتم ، عين الهر ، لم يكن على اصبعها . قلت لنفسى : لا يعقل ذلك . انه ليس من السذاجة بحيث يظن أن نزع الخاتم سينفى عنه الشبهات ! لابد ان الخاتم فى مكان ما ... غمرنى احساس اكيد : تلك اليد كانت تطلب القصاص لا تسألونى عن التفاصيل ، أرجوكم ليس الآن ! كان علىَّ ان اعثر على الخاتم وأن أضعه فى تلك اليد . بقية الفكرة تداعت إلى خاطرى بصورة طبيعية ، كنت أتصرف بلا وعى . صعدت إلى الطابق الاول ...
فتح جان مارك عينيه ، كان يسمع بهما وهو أشبه بحيوان مأخوذ . كان بيلو يعرف حالته تلك خير المعرفة . ظلت شفتاه بلا حراك . استطرد ميرسيه :
– قلَّبت كل ادراج الغرفة . وجدت الخاتم . لم يكن مع بقية المجوهرات فى علبة المجوهرات ، كان قد تدحرج وسط الاقمشة ، بين طيات قماش صينى ... عندها خطرت لى فكرة ! كان لابد من فضح القاتل ومنعه من أن يروى ما شاء لعائلته ، أن يجعلها تتستر عليه : فعائلته لا بد أن تكون من نفس طينته ! صعدت إلى المخزن واخترت حقيبة من حقائبْ الضحية . كان باب مرسم اللوحات المزيَّفة مفتوحا فدخلت . رأيت فى نهاية المرسم الاشياء التى كُسرت وسحقت . كان كل ما هناك يدل على الجريمة ! اغلقت المرسم ووضعت الحقائب مكانها حتى لا ينصرف انتباه الشرطة إلى مسائل جانبية . قال بيكار :
– كان ذلك لطفا منك .
– عند نزولى أخذت الفستان الصينى من الغرفة ومنشفتين من الحمام ولوازم العملية ... وفى قاعة الاستقبال جلست على ركبتى وادخلت الخاتم فى الاصبع بعد لأى . تناولت فأسا صغيرا من المطبخ ... و ... نعم ... بضربة واحدة ... بضربة واحدة .

– ولم تترك بصماتك فى أى مكان ؟

– لعلى احتفظت بقفازات قيادة السيارة . لَمْ أعد اذكر . وانصرفت بعد ذلك !

– إلى أين ؟

– أبحث عن القاتل . كانت فكرة جنونية ، ولكن كُتب لى النجاح . حمت حول الفندق الذى كان يقيم به بشارع بونابرت . رأيته عائدا حوالى الساعة السادسة . اتمنى أن تكون ملامح وجهه فى تلك اللحظة نفس الملامح حين يقطع رأسه . كانت ملامحه وقتها دليلاً على ارتكابه الجريمة . قال جان مارك : لا ، لا ، انه يكذب ! انه يكذب ! . قال بيكار لميرسيه :

– تعرَّفت عليه . إذن كنت تعرفه وهو لا يعرفك ؟

– أرتْنى له الآنسة سارازان يوماً من خلال نافذة وكان قد خرج من عندها .

– ثم ماذا ؟

– اخذت ارقبه من طرف الشارع حتى الساعة العاشرة والربع . كان يوم أحد شديد المطر . لم يلحظ وجودى احد . وحين رأيته يخرج ويقف تحت سقيفة الفندق ، ومعه شخص آخر انصرف وتركه وحده ، عندها اصابتنى النشوة سألهو به كما يلهو الانسان بحية قبل أن يدق رأسها . تظاهرت أنى أمريكى ... قال بيكار :

– لقد عرفت طبائع الامريكيين فى بلادهم ! . استرسل ميرسيه .

– ادعيت أن عطلا اصاب السيارة لوقت معلوم . وفى محطة ليون وضعت الحقائب عند قدميه ، وضعت الحقيبة . تمالكت نفسى حتى لا أخنقه واكتم انفاسه . كان يستحق نهاية أقسى من ذلك .

– ولو كان غادر باريس قبل ان تلقاه ؟

– لا ادرى ماذا كنت سأفعل . كنت سأجد حلا آخر ! كان المهم ان اضطره إلى فتح الحقيبة على مرأى من الآخرين ! كان يمكن أن يحدث ذلك فى القطار أو فى ليون أو فى المحطة أو التاكسى أمام احد افراد عائلته . كان لابد ان تصيبه أمام آخرين صدمة لايفيق منها .

لم ينظر بيكار إلى جان مارك البتة اثناء حديث ميرسيه . حوَّل بيكار كرسيه قليلاً وواجه جان مارك وكأنهما كانا لوحدهما . لم يقل شيئا ، ولكن اشارته كانت كافية . كان جان مارك يتلهف لذلك من أعماق الكابوس الذى كان يعيشه وهو يردد نفس الكلمات :

– كذب . كذب . هو الذى قتلها . قتلها قبل ان يبتر يدها . لقد تشاجرنا وتخاصمنا ، أوشكنا أن نتعارك . انصرفت فجأة ، غاظنى أن اعامل مثل تلك المعاملة . لا شىء غير ذلك ، لا شىء غير ذلك . أقسم لك يا سيدى المفتش ، اقسم بحياة اختى الصغيرة . وحين انصرفت كانت الآنسة سارازان ، هوغيت واقفة ! لم تكن على الارض بل كانت واقفة ! قرب الاريكة ، كانت قد وقفت ، أرادت أن تصفعنى كما يصفع الاطفال ! لذا انصرفت مسرعا ! دهشت حين رأتنى اسرع بالانصراف دون كلمة . وحين التفتّ لحظة نحوها عند عتبة الباب ، كانت تنتظر الىّ ، تنظر الىّ ....

(١٤)

مســـألة اختيـــــار

- ١ -

قال بيكار باهتمام : أوشكتما أن تتعاركا ؟ . حاول جان مارك ان يبتسم ليطمئن بيكار أو لعله أراد أن يطمئن نفسه . ولكن ما جدوى الابتسام فى مثل ذلك المكان وتلك الحال !

– كلا ، يا سيدى المفوض . لا ادرى . لم قلت ذلك ! لقد انصرفت حتى لا يحدث ذلك ، هربت ! تسوء الأمور تماماً أحيانا بين المحبين ! حدث ذلك منذ البداية ... منذ ان تبادلنا الكلمات الاولى ... فضلا عن اننى كنت مريضا !

علا تنفس ميرسيه من جديد وعجز عن كبح جماح ثائرته .

– « أوشكتما ان تتعاركا » ، ردد بيكار وقد استحوذ قول جان مارك على اهتمامه . ماذا تعنى ؟ لقد زعمت دائما فى ليون وهنا ان آخر لقاء لكما كان صافيا ، وانك اتيت لوداعها قبل ان تنقل إلى اهلك عزمكما على الزواج .

– كنت اتمنى ذلك ، يا سيدى المفوض ! كان ينبغى ان تسير الامور على تلك الطريقة ! لقد ساءت الامور بسببى ، إذ لم افهم قصدها . عجزت عن ذلك . وحتى قبل قليل فى الزنزانة ! لم ادرك ذلك الا الآن ! بعد ذلك السيل من الاتهامات والاكاذيب !

وضع بلوندل وسيمون ايديهما على كتف ميرسيه . قال بيكار :

– ماذا فهمت ؟ انها حين صممت على منعك من تزوير اللوحات فعلت ذلك من أجلك ، حبا لك ؟ . قال ميرسيه محتجا :

– ولكن يا سيدى المفوض !

– صح يا ميرسيه ، والا ارسلتك إلى السجن فوراً . اخذ جان مارك يبكى .

– نعم ، نعم . هو كذلك . وضع بيلو اصبعين على طرف المكتب . أومأ اليه بيكار .

– تفضل ، يا سيدى كبير المفتشين . سأل بيلو جان مارك :

– والكلمات التى حدثتنا عنها بالامس ، وطلبت منك فيها ان تغفر لها وقالت « لا تزوير بعد اليوم » ، وحدثتك فيها عن زواجكما فوراً وعن سفركما إلى هولندا فى شهر العسل ، ألم تقل ذلك قبل ثمانية أيام وليس يوم الاحد ذاك اثناء آخر لقاء لكما ، أليس كذلك؟

نظر اليه جان مارك وقد اخذه الذهول وكأنه ينظر إلى عراف :

– نعم . هذا صحيح . أكنت تعرف ذلك ؟ . لم يجيبه بيلو بل قال لبيكار :
– هذا كل ما أريد . سأل بيكار :
– ولكن لماذا كذبت مرة اخرى وغيرّت التاريخ بتلك الطريقة الساذجة ؟
– هذا ما خطر لى ... لقد كان لقاؤنا ذاك الاحد رقيقا ... يوم الاحد حين ارسلت البرقية إلى ليون ... أظن اننى اردت ان لا اخلط بينه وبين ذلك اليوم المشئوم ... ذلك اليوم ...
– « حين اوشكتما ان تتعاركا » ، قال بيكار ذلك وقد ملكه الضيق ... إن تلكأت لحظة مرة واحدة ...
– كلا ، يا سيدى المفوض ، كلا ! إتصّلتْ بى هاتفيا صباح ذلك اليوم وطلبت منى ان اذهب اليها فى العصر قبل حلول المساء . كانت البوابة مفتوحة . اغلقتها . فتحتْ لى الباب . كانت تلبس روب دى شامبر غاية فى الروعة . امسكتنى وقالت لى « تعال » . وعند اسفل السلم ، على الدرجة الثانية ، التفتت نحوى . كانت تفعل ذلك كثيراً . كانت قامتها توازى قامتى حين تفعل ذلك ، وعيناها تواجه عيناى . عندها قالتْ لى ما رويته لكم ، وهى تمسك بطرف سترتى . لم تنتظر جوابى بل قالت آمرة « لنصعد فوراً » . تبعتها وأنا لا أصدق ، كنت اسأل نفسى : « ماذا تريد » . وفى الطابق الاول قالت لى « لنصعد إلى الطابق الثانى ! » . هناك اشارت فرحة إلى آخر لوحاتى المزوَّرة تحترق فى المدفئة ! اردت ان انقذ اللوحة ولكن هوغيت كادت تسحق اصابعى حين اغلقت منفذ المدفأة . اثار ذلك غضبى وقلت لها « حسنا ! ليكن ما تريدين ! » . اسرعت إلى طرف المرسم وطرحت لوحة الألوان أرضا والقيت بالألوان ومزقت لوحاتى . بكيت من شدة الغضب وصحت فيها « لا تريدين ان نعمل سويا ، تريدين عشيقا فقط ، تريدين قواداً ! » . كانت تقول : هل جننت ؟ ألا تفهم ما اريد ؟ لا احد لى سواك ، لا احد لى سواك ! اذا فقدتك فقدت كل شئ !

تغيرّت الأدوار ، جاء دور ميرسيه ليصيح :
– كذاب ، كذاب . أسكتوه !

أصبح اسكات جان مارك محالاً ، حتى وإن أراد بيكار ذلك وما كان بيكار يريده أن يسكت . لا بأس إذا كان ما يقوله يكشف كذب أقواله السابقة . على بيكار أن يتقبّل ذلك .
– ما كنت أصدق ما تقول . ما كنت أصدق ذلك . خرجتُ فتبعتنى . دخلت حجرتها . قالت لى « تعالَ ، تعالَ إلى حضنى » . لم استجب لها . لم أكن أدرك ما أفعل . أخذتُ من حافظة نقودى صورتها بملابس السباحة ، الصقتها على المدفئة وقلت لها : « لا تحبين سوى نفسك ! » . عندها نزعت من اصبعها خاتمنا عين الهرّ وقذفت به فى درج من ادراج دولابها وصاحت : « أخرج من هنا ! أخرج من هنا ! » . نزلنا إلى قاعة الاستقبال . قالت لى : « لن تذهب . امنعك من ذلك ! » أجبتها : « لن أتردد بعد ان فعلت معى ما فعلت ! » تغيرّت ملامحها ، طفى عليها البرود ، كانت تتنمر أحياناً وقالت من بين أسنانها : « يا غبى ... » . خُيِّل إلىَّ أنها ستنقض علىّ . قلت لها « لا تلمسينى ! والا ... » . أردت أن أخيفها فأمسكت قطاعة ورق كانت على المنضدة الصغيرة ...

انفجر ميرسيه :

– قطاعة الورق تلك ، يا نذل ، فتاحة الخطابات تلك . كانت هدية صنعتها لها بنفسى من حديد قنبلة المانية من الحرب العالمية الأولى . ارسلتها لها من الجبهة . كانت وقتها أعزّ مراسلاتى أثناء الحرب !

قال جان مارك دون أن يجيب ميرسيه مباشرة :

– لعل ذلك كان صحيحاً . لعل ذلك كان صحيحاً . ولكن لا أهمية له . لا يمكن أن يكون مهمّاً بطبيعة الحال . حين أرادت أن تصفعنى ، حاولت أن ادفع يدها عنى . أدارت رأسها . أنا واثق أننى لم أمسّها بسوء ! لقد اصابتها الدهشة فقط . نظرت إلىّ . عندها لفّنى الخجل فهربت ، هربت خارج المنزل ... هربت إلى الشارع !

تأوّه جان مارك . ظلّ بيكار صامتاً بضع ثوان . كان الجميع يتوقّعون انفجار ميرسيه مرة أخرى ولكن السكون فاجأه . نظر إلى بيكار وقال : كانت قد ماتت !

صاح جان مارك بهلجة الواثق من صدق ما يقوله :

– كلا . فى طريقى ... فى طريقى إلى الفندق ، دخلت مقهى لا أذكره لأتّصل بها هاتفياً ، لأطلب منها المعذرة ان غادرتها على تلك الصورة ، لأقول لها اننى سأذهب إلى ليون على كل حال ، واننا سنتزوج ... نعم سنتزوج ! رفعت السماعة ... قال بيكار :

– لا اكاد اصدق ذلك .

– نعم يا سيدى المفتش ، لقد فعلت ذلك . ولكنها أبت ان تجيبنى بكلمة واحدة ، رغم توسّلى لها . ابت أن تردّ على !

نظر بيكار إلى ميرسيه . رفع ميرسيه اكتافه اشارة إلى انه هو الذى رفع السماعة . لاحظ جان مارك النظرة والحركة .

– لقد منعها من ذلك . الا ترون ؟ . قال بيكار وهو يفتح سجلاً :

– لم يفعل ذلك . كانت قد ماتت .

– إذن هو الذى قتلها ؟

– كلا . أنت قتلتها .

– ولكن كيف ذلك ؟ حتى إذا فرضنا ان سن فتاحة الخطابات لمستها ، نعم لنفترض ذلك ، لنفترض ذلك ، لما اصابها ذلك باذى . لو حدث ذلك لاحسست به ! من يضرب ضربة يحس وقعها . أليس كذلك ؟ لو اصابها أذى لصرخت أو لاستغاثت ...

– كانت قد ماتت . أمامى تقرير الطبيب الشرعى . إنه قاطع . لقد اصابتها الآلة فى موضع معيّن يؤدى إلى الموت فوراً . قال جان مارك مجادلاً :

– لو حدث ذلك لسال الدم . لسال الدم غزيراً !

– ليس بالضرورة . كما أنها لم تسقط حالاً . كانت تبدو حيّة حين انصرافك .

عقد جان مارك كفّيه . لن تتحمل الجدة رؤية حزنه العميق الممزوج بشيء يفوق الخوف . بكى جان مارك وهو يقول :

– يا سيدى المفوض . لو كنت جرحتها ، لو كنت جرحتها . قد يكون هو الذى أجهز عليها . لقد تجاسر وبتر يدها !

ظلَّ ميرسيه صامتاً . هزَّ بيكار رأسه وقال : أنت قتلتها . تململ جان مارك على مقعده . أتاه صوت يسأل :

– ماذا فعلت بفتاحة الخطابات ؟ . استجمع قواه ليقول : ... أول مجرى ... سقط جان مارك بلا حراك على الأرض كما فعل بشارع ديمون حين فتحت الحقيقة . قال بيكار :

– توسان ، بوشا ، خذاه إلى غرفة التمريض . اذهبا به بعد ذلك إلى زنزانته . لا حاجة لى به .

– ٢ –

أخرجْ جان مارك فى صمت . بدا المكتب خاليا وان كان لا يزال به ستة اشخاص ويغمره الضوء ودخان التبغ والحر . كان الهدوء قد عاد إلى المكان . كان ذلك على الأقل احساس ميرسيه كما ارتسم على مظهره . إتكأ ميرسيه على مسند مقعده ، وخلف رجليه . كان شاحباً ، ولم يظهر على ملابس السهرة التى كان يرتديها أثر لهياجه وثورته . قال ميرسيه فى هدوء :

– اشكرك جزيل الشكر يا سيدى المفوض ، إذ جعلتنى اسمع هذا الاعتراف الفظيع . لقد بيَّن لى ذلك كثيراً من الأمور . لزم بيكار الصمت . وأغلق ملف تشريح جثة القتيلة . ظلَّ جامداً بلا حراك وكأنه غائب عمَّا حوله . كان بيلو فى مثال حال بيكار . أما بلوندل وريفيير فقد بقيا فى ركن المكتب على مقربة من تريفلو الذى وضع قلمه وأسند يده إلى خده . كان المنظر شبيهاً بمتحف شمع كمتحف كريفان . اعتدل ميرسيه فى جلسته وأعاد رجليه إلى وضعهما الطبيعى وشحذ ذهنه :

– من السذاجة ان أظن أنكم ستطلقون سراحى بعد أن اتهمتونى بالاشتراك فى جريمة التزييف . رفع بيكار أصبعين ثم انزلهما . كان ذلك يعنى « طبعا لن نفعل » .

– وإذا برهنت لكم على حسن قصدى ؟ . ابتسم بيكار رغما عنه وقال بغلظة :

– هناك أيضاً اليد المبتورة . القانون لا يبيح الاعتداء على جثث الموتى . عادت إلى ميرسيه ثورته ، فصاح :

– لكنى فعلت ذلك بدافع الحب ! . تنفس ميرسيه بعمق ليهدأ وتهيأ للقيام . قال بيكار :

– ابق جالساً . لم نفرغ بعد من التحقيق معك . يريد كبير المفتشين بيلو أن ينقل إليك خبراً .

لم يتحرك بيلو واخرج من حافظة نقوده الظرف السميك الذى سلمه له ماليكورن مساء

الأمس . » رغم أن اسم المرسل إليه لم يكتب على الظرف إلا ان هذه الرسالة كانت لك ، إن صح ان نسميها رسالة . علاقتك بالراسل كانت قوية بحيث يمكنك التعرف على خطه حتى من بعيد » .

عاد بلوندل وريفيير إلى موقعهما خلف ميرسيه . أخذ ميرسيه ينظر إلى بلوندل وهو يخرج الأوراق من الظرف ويبسطها ويقدمها إليه . ظل صامتاً . قال بيلو يكمل حديثه :

– التاريخ محدد : يوم الشعانين ١٩٣٠ . يوم الأحد الماضى تاريخ وقوع الجريمة .

أخذ يقرأ الخطاب بعناية ودون تكلف :

« طغى عليَّ منذ أن استيقظت من النوم شعور يدفعنى إلى أن اكتب هذا الصباح ما يلى . إذا تبيَّنت الأيام صدق هذه المشاعر ، فلا اظن أحداً غير الشرطة سيفتش المنزل وخاصة المكتبة . وعليه يمكن اخفاء هذه المذكرة فى صفحات أى كتاب .

« ذهبت مساء أمس إلى افتتاح محل بول الجديد LE SEAU GRENU بشارع مارتير . ظننت واجباً علىّ أن أفعل ذلك . لقد كنت دائماً صريحة معه اشد الصراحة . كان يصرّ على ذلك وكنت أراه شيئاً طبيعياً . أكان يمكن أن تكون الأمور بيننا على غير ذلك ؟ العلاقة الخفية بين شخصين تستدعى الصراحة التامة بينهما . الحياة تتغير ولكن تلك الحقيقة تظل ثابتة . ولكن يتبيَّن لى اليوم أن ما كان أساس علاقتنا ، ذلك الأساس الذى أقامه هو منذ لقائنا الأول منذ عشرين عاماً ، اكتشفت اننى وحدى التزمته التزاماً تاماً . ربما لأن ذلك يوافق طبعى كما يوافقه التفكُّر .

« أحب جان مارك . أقول ذلك اليوم . إنها بداهة وحقيقة مطلقة قلبتها على وجوهها منذ أيام وأسابيع ، واحسستها منذ شهور وان لم أسلّم حينذاك بصحتها . أحبه حبًا تاماً . لقد كان بلا شك نقيض مَن عرفت قبله . قلتُ له أنى أريد أن اتزوجه . لم يصدقنى . لكنه سيصدقنى هذا المساء حين أخبره عن عزمى على الكف عن تزوير اللوحات . ألوم نفسى لأننى دفعته إلى مثل تلك الفعلة . وألومها لأنى لم اشركه فى حياتى العادية . سأطلب منه الصفح والمغفرة . سنتزوج حالاً وسنذهب إلى مكان آخ . سنقصد هولندا لتظللنا السماء التى ظللت فان غوغ . سأدعه يرسم ما يحلو له : قد يكون ذلك ميلاده كفنان . انه ما زال شاباً ! سأعوّض من اشتروا اللوحات المزيَّفة فى اقرب فرصة . لن يكشف زيفها احد فقد اتقن صنعها . لكن اخشى أن يشى به أحد ، ان يشى به بول مثلاً . لا أحد يعلم ذلك غير ثلاثتنا .

« قلت ذلك لبول تلك الليلة (لم أقل له شكّى فيه أن يشى بجان مارك) . كنا فى مسكنه بالطابق الأول . تركت القاعة وتظاهرت بالانصراف ، طلبت منه أن يصعد لبضع دقائق . أحسُّ بالحقيقة . كانت علاقتنا قد ساءت منذ بداية العام . لم يعرف عنى أنى أحب أحداً غيره . ما عدت أحبه منذ وقت طويل . كان لا يهمنى أن يعشق كل النساء . كان يعرف ذلك ولكنه كان لا يأبه له ما دمت لا أحب غيره . فى البداية رأى فى جان مارك رسول العناية الإلهية لأجله هو . هو الذى أتى بفكرة التزوير . اعتاد أن يأخذ جزءاً من مالى ، كنت أقبل ذلك ولكنه لم يحتمل نقصان دخلى . أراد أن يعوض ذلك . وجد فى جان مارك وسيلة لذلك . أكّد لى فى البداية أن جان مارك لن يصيبه أذى

ولا أنا ، فهو سيؤمّن الاتصال مع الخارج . قبلت ذلك كما اعتدت أن أقبل غيره . أراحني ذلك بعض الشيء . منذ أن ساءت الأمور بيننا كنت أخشى أن يجبرني على بيع لوحاتي . كنت سأفعل ذلك . ما كنت لابيع لوحات فناني المفضل ! ولكن كنت أملك لوحات غيرها ولا أريد التخلي عنها . راقت لى فكرته . ما كنت أرى عيباً استغلال عقلية جامعي اللوحات الافجاج الذين لا يهمهم شيء غير غرورهم وكسب المال . منذ الوهلة الأولى بدا لى الأمر لعبة مثيرة جرفتني كما جرفت المقامرة بول . رأيت لوحات فان غوغ تولد من جديد !

« كان جان مارك موهوباً للحد الذى كان يرسم فيه ما أشير عليه به وكأنه يخلق ذلك خلقاً . لا أكتب هذه المذكرة لتحليل مشاعرى . كان رد فعل بول مخيفاً . عرفت فوران ثورته عدة مرات من قبل خلال سنوات علاقتنا الأولى . خشيت أن يحدث ما لا تحمد عقباه . كنت وقتها أحبه واستجيب لما يريد . كان الحال بالأمس غيره اليوم . لم يدهشه ما قلت فى حقيقة الأمر . كان قد ادرك شعورى نحو جان مارك قبل أن اعترف بحبى له . انه يعرفنى حق المعرفة . ولكن مثل ذلك القرار كان صدمة له ! خشيت أن يقتلني . كان ذلك سذاجة منى ، فالمقامرة ليست كالمخدرات تفقد صاحبها السيطرة على نفسه . ما كان بول ليقتلني فى مسكنه . ولكن فى هذا المنزل الذى لم أعط مفتاحه لغيره .

« منذ أن صحوت يراودنى خاطر أنه يُعدّ خطة مزدوجة بحيث يتهم جان مارك بقتلى . اشار إلى ذلك مساء اليوم حين غادرته . قال لى بالحرف الواحد : « حذارى ! إذا اصررت وخنتنى وقطعت المال عنى عاقبتكما أنتِ وهو ! » . أتلهف للحديث مع جان مارك ، لرؤيته . لا أريد أن أبقى وحيدة رغم حبى للوحدة . ولكن هل انتهى كل شيء ؟ تبعت نصيحة بول واخذت حذرى . وهبت منذ وقت طويل مجموعة لوحاتى وممتلكاتى للمتاحف الوطنية . لا أملك الا حياتى . أقول لمن يعثر على هذه الصفحات إذا قتلت أن القاتل بول ميرسيه ، أيا كانت الظروف التى وقع فيها الحادث . »

— ٣ —

وضع بيلو الورقة الأخيرة تحت الأخريات وطبقها ثم أدخل كل الأوراق فى الظرف . انصرف اهتمام بيلو كله إلى ما كان يفعل . أخذ بيكار يتفحص ميرسيه ، كان لون وجه ميرسيه قد أصبح قرمزيا وغرس أسنانه العليا فى شفته السفلى . كان بيكار يتوقع أن يقول ميرسيه شيئاً ولكنه ظل جامداً . قال بيكار : أننا مصغون لما تقول يا سيدْ ميرسية !

افرجت اسنان ميرسيه عن شفته ، واختلجت أجفانه . تساءل بيكار ان كانت الاجفان قد تحركت حين قراءة المذكرة . بدا له ان ذلك لم يحدث . ولكنه متأكد أن عينا ميرسيه تعلقتا بالمذكرة . ضحك ميرسيه وقال :

– يا سيدى المفوض . لو لم تنتزع تحت سمعى وبصرى اعترافاً لا يساوره الشك ، لكنت فى شر مأزق ! . قبض بيكار على مسطرته وقال :
– لم يتم ذلك تحت سمعك وبصرك صدفة يا سيد ميرسيه . يمكننا الآن أن نبحث عما فى دخيلتك . انك فى مأزق لا تحسد عليه !

وضع بيلو الظرف على طرف المكتب وغمغم بصوت هادى :
– أتيتَ لتقتلها ، أليس كذلك ؟ دعنا من احتجاجاتك . لم يعد بيننا من تخيفه . وإذا لم تهدأ ، فعلنا ما يعيد إليك صوابك . لم تفقد صوابك أبداً الا مساء السبت حين قالت لك الآنسة سارازان انها ستقابل جان مارك يوم الأحد . أتيت ليتحقق ما تنبأتْ به . كانت امرأة شديدة الذكاء . كنت تريد قتلها ثم الانتظار بشارع لافيرم حتى يأتى جان مارك ، تماما كما انتظرت ذهابه بشارع بونابرت لتدخل وراءه وتجده « متلبساً بالجريمة » ثم تدعونا إلى مكان الحادث .
قال ميرسيه وقد فضَّل الحوار على الاحتجاج :
– أما كنتم ستجدون هذا الخطاب ؟ أما كان الفتى المجرم سيرفض الاعتراف ؟ لو فعلت ذلك لكنت مجنوناً . قال بيلو :
– لقد فقدت صوابك . لم تفكر فى وجود مثل هذا الخطاب ، إلَّا إذا كنت قد قلَّبت الحجرة رأساً على عقب بحثاً عنه لا عن الخاتم . كنت قد فقدت صوابك . لقد أفقدك ما حدث صوابك . الجريمة التى كنت تنوى ارتكابها واتهام غيرك بها ، ارتكبها غيرك وألصقها بك حين استعمل آلة ارسلتها أنت !
– تتهمنى دون دليل غير شهادة امرأة مضللة صمّمت على التخلص منى ! ما من قاضى يقبل مثل هذا الاتهام ! ولكنك محق حين تقول أننى سعيت لابطل مكيدة فظيعة حيكت ضدى ! أتمنع الأبرياء من حماية أنفسهم من المجرمين ، خاصة حين يسلمك الأبرياء أولئك المجرمين ؟ أكان باستطاعتكم لولا اليد الـ بالحقيبة (كان الاجدر بى أن ابتر اليد التى كتبت عنى هذه الأشياء المشينة !) ، القبض على القاتل فى أقل من أسبوع أو الحصول على اعترافه فى أقل من يوم ؟ . قال بيكار :
– سننقل تعاونك النادر إلى المحافظ . سيكتب لك خطاب شكر وانت فى السجن . اجاب ميرسيه :
– يغيظكما انكما عاجزان عن اتهامى بالقتل ، ولن تستطيعوا ذلك والحمد لله . قال بيكار :
– صحيح . يحق لك أن تشكر الله . تريفلو ! أدع حارسين ليقودا السيد ميرسيه إلى ملهاه الليلى الجديد . سنعدّ أوراقه صباح الغد ، أعنى صباح اليوم . قال ميرسيه :
– لم آخذ حاجياتى معى ، لا بيجامة ولا بذلة خروج .
– من عادتك أن تلبس بدلة الاسموكنج . أما البيجاما فلا حاجة لبرىء غير ضميره ليحميه من الكابوس !

فتح الباب . نهض ميرسيه وهو ينظر إلى بيكار نظرة حقد لم يحاول اخفاءه . استمتع سلفاً بالمفاجأة التى سيحدثها وهو يقول :

– لن تحبسونى وقتاً طويلاً . الوثيقة الفريدة التى بحوزتكم والتى ستعرضونها طبعاً على المحكمة تنصّ على تعويض من اشتروا اللوحات المزيَّفة . وغداً يطلب محامى من السيد برافية ، موثق عقود القتيلة ، أن يعلن عن هذه الرغبة الأخيرة للقتيلة . وإذا تم ذلك ، فلماذا يصرّ من اشتروا اللوحات المزيَّفة على شكواهم ؟ . قال بيكار للحارسين : – اعتنيا به !

رفع اكبرهما سنا يده بالتحية وقال : أمرك ، يا سيدى المفوض . واخرج من جيبه القيود المعروفة .

– ٤ –

قال بيكار لبلوندل وسيمون ، بعد دقائق من ذلك :

– لقد آن لكما أن تستريحا . قاربت الساعة الرابعة . أمنح كلا منكما بضع ساعات من صباح الغد . قال بلوندل :

– شكرا يا سيدى . يا لك من شحيح ! . قال سيمون وهو لا يزال متأثراً بموت أوغستا :

– لن يجعل ذلك بيرجيه أكثر لطفاً . فكر بلوندل :

– بيرجيه ... من عائلة كريمة ... وموهوب جداً . قال بيكار ضاحكاً :

– ويا لها من موهبة !

– الا تظن ان تلك المرأة أفسدته ؟ . قال بيلو :

– ان كنت تعنى التأثير عليه فقد كان فى حياته امرأة أخرى كان بامكانها أن تجعله إنساناً فريداً . ولكن ..

– من كانت تلك المرأة ؟

– جدته . قال بلوندل :

– أوه يا سيدى الرئيس . جدة !

ضحكوا وشدّ بعضهم ايدى بعض ليعلنوا بتلك الحركة التى نادراً ما يفعلونها نهاية القضية . كان على بيكار وبيلو البقاء رغم انهاكهما الشديد . أخد تريفلو يراجع ما دوَّنه . سأله بيكار :

– يا عزيزى تريفلو ، هل بقيت فى ركن ما علبة بيرة ؟ الحرّ لا يطاق !

– لا يا سيدى . ولكن يمكن فتح النافذة .

– يمكن ذلك . تفكر بيلو بصوت عالٍ :

– ظنه بعضهم بريئاً لأنه كان يحمل يد عشيقته فى الحقيبة . وفى النهاية كان ما وقع جريمة دون تعمّد وتعمّد دون ارتكاب جريمة .

كان تريفلو يقوم ببعض تمارين التنفس قرب النافذة . قال دون أن يوقف تمارينه :
– اتظن أن ميرسيه سيفلت من العقاب ؟ . قال بيلو :
– سيحاسب على المقامرة وعلى الملاهى . لا يتم اختيار المحلّفين من بين الذين يدمنون السهر ويضيعون أموالهم هدراً ! . قال بيكار :
– لو كنت قاضياً ... قال بيلو :
– تتحدث كما يتحدث .
– شكراً . شكراً حقاً .
– لكن افكر كما تفكر ! أن يكون المرء قاضياً فى مثل هذه القضية ..
– لو كنت قاضياً لأدَنت قبل كل شيء الكذب ، ولأوقعت عليهما نفس العقاب ! . التفت تريفلو هذه المرة وقال :
– ان سمحتم لى بابداء رأيى ، الكذب عندى أنواع . الشاب بيرجيه لم يكن يكذب دائماً بل كان يحلم . احلاماً ماضية . كان يستعيد حكايته . قال بيكار بغلظة :
– يدهشنى أن تظهر كل هذا التسامح يا تريفلو . هواء النافذة ينعشنى . للأسف آن الأوان لننصرف . قال بيلو :
– اريد ان اتطاول على رئيس من رؤسائى . قال بيكار منزعجاً .
– ماذا فعلت ؟
– لا أعنيك . بل اعنى المفوض تيفنيه ... مساء الثلاثاء ... انشرح صدر بيكار وصاح .
– اسكتوا . نسيت أنه طلب منى الاتصال به تلفونيا أياً كان الوقت ، حالما ننتهى من هذه القضية . حاول مرة أخرى يا تريفلو . اتصل بمنزله . سأترك لك السماعة . هل ستسمح لى بمتابعة المكالمة . تيفنيه يكُنّ لك اعجابا لا حدود له . أظنه لن يكف عن الحديث عنك بعد اليوم .

تأخرت المكالمة . للاتصال بتيفنيه فى منزله كان لابد من استعمال خطوط الهاتف العامة . قال تريفلوا بعد مدة :
– جرس تليفون السيد تيفنية يرن . ورفع بيلو وبيكار السماعة فى ذات الوقت . استمر رنين الجرس . ردّ تيفنيه من اعماق نوم عميق كالسكر :
– آلو . هنا منزل تيفنيه ، من المتكلم ؟
– فردريك بيلو يا سيدى المفوض . أنا جد آسف . لقد اتصلت بك عملا برأى المفوض بيكار الذى يسمعنا . همس بيكار :
– ستدفع غالياً ثمن ذلك . إستيقظ تيفنيه تماماً وسأل :
– ماذا جرى ؟. قال بيلو بجدّ بالغ :
– عليك أن تطلب احالتك إلى المعاش يا سيدى المفوض .

– ماذا قلت ؟
– لقد وعدت بذلك بعد العشاء الطيب الذى تناولناه مساء الثلاثاء ..
– أنا ؟ وعدت بماذا ؟
– قلت « إذا كان الأمريكى حقيقة » . سأل تيفنيه وقد اشتدّت دهشته :
– أحقيقة هو ؟
– أنه ليس أمريكياً ، ولكنه حقيقة . لقد قبضنا عليه .
– هذا لا يعقل ! ولكن ... القاتل هو الفتى بيرجيه أليس كذلك ؟ . قال بيلو فى شيء من التبرم .
– نعم . نعم . قال تيفنيه :
– حسنا . لقد اطمأن قلبى .

خاتمة

ستكون عين الهر آخر رواياتى البوليسية بلا ريب ، بل لعلها تكون آخر رواية أكتبها . لم اكتب من قبل رواية لجأت فيها إلى صيغة المضارعة دون غيرها . راق لى أن أخاطر تلك المخاطرة . صيغة المضارعة صيغة عصية لا تلين لمتطلبات النحو ولاتناسب الجمل المنتفخة . انها صيغة جافة على حد قول استاذى وصديقى البروفسور لمبورج . ولكن حكاية غامضة تجعله مستساغا اكثر من غيره من الازمنة الفعلية فالقارىء يتابع احداث الرواية ويعيشها لحظة لحظة .

ولعل بعض عشاق الاستماع إلى الاذاعة ، ممن بلغوا من العمر مبلغاً كان يحظى بالاحترام ، ويملكون ذاكرة قوية قد يحفظون فيها أشياء لا أهمية لها ، لعلهم يذكرون أننى عهدت إلى الأذاعة منذ ما يقارب عشرين عاما بمسرحية بوليسية من عدة فصول كان عنوانها أنذاك « عين الهرّ » . وأرجو أن يتذكروا ايضاً آخر جملة فيها حين قال بيلو لبيكار : « انها حكاية بسيطة وليس ثمة ما يستدعى أن تخلق منها رواية » . كان ذلك عين الحق . وحين فكرت أن أجعل تلك المسرحية رواية رغم ، ذلك رفض أبطالى الثلاثة جان مارك وميرسيه وهوغت الظهور فيها بالصورة التى ظهروا بها فى المسرحية ، فقد كانوا على قدر كبير من البساطة . أرغمنى أبطالى الثلاثة إذن على أن أحسن معرفتهم وأن اكشف عن حقيقة أمرهم . وأنا مدين لهم بذلك .

ها هو الآن ترتيب سلسلة كتاباتى البوليسية ، وهو ترتيب أملاه علىّ تسلسل حكاياتى الخمسة المكوِّنة لها ليس تاريخ صدور كل منها :

- **زبون الخط (و)**
- **العربة رقم ٧ ، المقعد رقم ١٥**
- **فوّارة الماء**
- **عين الهر**
- **فردريك بيلو يموت مرتين**

وقد لامنى البعض منذ عشرين عاماً بسبب اليد المبتورة فى الحقيبة . ولعل اللوم كان رد فعل ضد الفظائع التى شهدها العالم آنذاك . ولم أعرف اللوم الا قبل ذلك بعشرة أعوام حين قطعت رأسا فى إحدى كتاباتى . يمكننى اذن أن أقول أننى كنت رائد ادب لم يعد يخشى الفظائع . غير انى أفضل ، ونظراً لعلو مكان المثال الذى سيق وروعة الاحداث ، أن أطالب بمركز تابع أو تلميذ وذلك بعد أن فرغت من قراءة دراسة أجراها السيد كريستيان موريكو عن « تابع مذبذب للقديسة تيريزا دافيلا (مجلة باريس ، ١٩٦٧) . كان الامر يتعلق **بجيروم غارسيا** .

« قصد جيروم غارسيا « ألبا دى تروم » بعد انقضاء تسعة اشهر على موت القديسة . رجته الراهبات أن يفتح التابوت وحين فعل ذلك وجد جسد القديسة « سالما كاملاً وكأنه دفن بالامس » . وكانت تفوح من الجسد الكامل « رائحة قوية آسرة » عجز غارسيا عن دفع نزوة طائشة ليأخذ شيئاً من الرفات ، فبتر يد تريزا اليسرى وأخفاها فى صندوق باقيلا . ولكنه قطع الاصبع الصغير وظل يلبسه على الدوام . وأثناء حياته المتقلبة وقع غارسيا اسيراً عند الاتراك الذين استولوا على الرفات واستمسكوا به . استرجع جيروم غارسيا منهم اصبع القديسة ودفع ثمنه عشرين ريالاً من الذهب » .

باريس ١٩٧٠

الفهـــــــــرس

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٩٩٤ / ١٩٨٦

ISBN ...

طبع بدار نوبار للطباعة

عين الهرّ

الحقيبة ! وبقى نظره عالقاً بالحقيبة التى دفع بها الأمريكى إلى يده .

وسأله الحمّال وهو يمسك بالحقيبة ويدفعه نحو الرصيف : ماذا عن الحقيبة ؟

ليست حقيبتى ، إنها أصغر بكثير من حقيبتى ! الحقيبة التى فى يدك هى حقيبتى ، أما هذه فلا . وانتزعها الحمّال من يده وأخذ يعدو حاملاً الحقيبتين .

هل ستركب قطار مارسيليا ؟ أسرع فهو فى آخر الرصيف

إقرأ هذه الرواية البوليسية الأدبية لتعرف سر تلك الحقيبة .

